٧٤٤٢

المملكة العربية السعودية

جامعة أم القرى

مكة المكرمة

كلية الدعوة وأصول الدين

الدراسات العليا

قسم الكتاب والسنة

٧٤٤٢ - - - - ٢٠١٠٠٠

المقاصد الكبرى في سورة « الأنعام »

إعداد الطالبة

عابديه محمد سعيد بن محمود عيد

إشراف الأستاذ

الشيخ السيد سابق محمد التهامي

رسالة مقدمه إلى قسم الدراسات العليا لنيل درجة الدكتوراه في الكتاب والسنة

الجزء الثاني

١٤١١هـ / ١٩٩١م

بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ
مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ
سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى
ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ
(١)

---

١ ـ سورة المائدة : ١٥ ، ١٦

المقصد الثاني

قضية البعث والجزاء

ويشتمل على ما يأتي :

تمهيد وثلاثة مباحث :

المبحث الأول :

أحوال الناس وموقفهم يوم القيامة .

المبحث الثاني :

كيفية الجزاء على الأعمال .

المبحث الثالث :

عدالة الجزاء .

التمهيد

الإنسان بين الحياة والموت

وفيه ما يأتي :

* وظيفة الإنسان في الدنيا.

* حياته بعد الموت .

* وظيفة الإنسان في الدنيا :

إن اللّه سبحانه وتعالى لم يخلق الإنسان عبثاً ، ولـن يتركه سُدى ، بل خلقه من أجل غاية سامية ، وهى عبادة اللّه وحده لا شريك له ، وعمارة الأرض .

وقد هدى اللّه سبحانه وتعالى الإنسان إلى طريق الحق ، وهو طريق العبادة وعمارة الأرض ، فأرسل إليه الرسل ـ عليهم السلام ـ مبشرين ومنذرين ، حتى لا يكون لأى إنسان عذر يعتذر به ، أو حجة يحتج بها .

وكان ذلك منذ هبط آدم عليه السلام إلى الأرض ، وبقى ذلك حتى عهد النبي ـ صلى اللّه عليه وسلم ـ الذى ختمت به النبوة وامتدت به إلى يوم القيامة .

وهذه الوظيفة التي كلف اللّه بها الإنسان تنتهى بانتهاء أجله في هذه الحياة الدنيا .

* الحياة بعد الموت :

وبعد الموت يبدأ الإنسان حياة جديدة ، وهى حياة البرزخ ، وهى مدة بقاء الإنسان في القبر إلى قيام الساعة . وهذا هو المصير الذى ينتهى إليه كل إنسان بعد انتهاء أجله حسب ما قدره اللّه سبحانه وتعالى .

ثم يأتى بعد ذلك اليوم الآخِر ، وهو يوم القيامة ، وهو بداية الحياة الآخره لأن فيه الحساب والحساب في الآخرة وليس في الدنيا ، بعد أن يسبق ذلك علامات تشير إليه وتدل عليه ، وهذه العلامات منها :

علامات صغرى ، وعلامات كبرى .

وتسمى هذه العلامات بأشراط الساعة .

وقد بينت الآيات القرآنية الكريمة ، ووضحت هذا التغيير والتبديل الذى سيحدث لهذا الكون ، والتي منها :

قول الحق جل ثناؤه :

يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ
وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ‹١›

وقوله تعالى :

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا
﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾
بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ‹٢›

ثم يكون بعد ذلك بعث الناس وحشرهم للحساب ، وبعد الحساب يؤمر بأهل الجنة فيذهبون إلى الجنة ، وأهل النار فيذهبون إلى النار .

---

١ ــ سورة إبراهيم : ٤٨ .

٢ ــ سورة الزلزلة : ١ ــ ٥ .

المبحث الأول

أحوال الناس وموقفهم يوم القيامة

ويشتمل على ما يأتي :

* إقامة الحجة على الكافرين وإعترافهم بكذبهم على الله .
* عرض الكافرين على النار ، وعرضهم على الرب ، وندمهم وتمنيهم العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحاً .
* سبب عذاب الكافرين في الآخرة ، وبيان عدم نفع شفاعة الشفعاء .
* بيان حالة الكافرين أثناء موتهم وحين رجوعهم إلى الله .
* صور متعددة لحال المؤمنين والكافرين وبيان حال كل منهم ، وما ينتهي إليه أمرهم .
* بيان آيات الساعة الصغرى والكبرى .

تصور لنا آيات سـورة « الأنعام » أحوال الناس وموقفهم في يوم القيامة ، وما يحدث لهم فيها من بعث وحشر وحساب ، وثواب وعقاب ، وجنة ونار .

نوردها فيما يلي :

* إقامة الحجة على الكافرين وإعترافهم بكذبهم على الله :

يقول الحق سبحانه وتعالى في ذلك :

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ
الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ
رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ
عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) ‹١›

معاني الكلمات :

« **ويوم نحشرهم جميعاً** » : « الحشر » : معناه : جمع الناس بعد بعثهم وقيامهم من القبور ، أى اذكر يامحمد يوم نجمعهم للحشر والحساب .

« **ثم نقول للذين أشركوا** » : أى ثم نقول لهؤلاء الــذين عبـدوا غير الله ، أو مع الله غيره .

« **أين شركاؤكــم الذين كنتم تزعمون** » : أى أين شركاؤكم الذين كنتم تكذبون ، وتدعون أنهم شركاء لله ، لأن الزعم معناه مظنة الكذب . ‹٢›

---

١ ـ سورة الأنعام : ٢٢ ـ ٢٤ .

٢ ـ انظر : تفسير النسفى (٢ / ٦) وكذلك تفسير المراغى (٧ / ٩٦) .

جاء في المفردات : الزعــم : حكاية قول ، يكون مظنَّة لكذب ، ولهذا جاء في القرآن الكريم في كل موضع ذُمَّ القائلون به ، نحو قوله تعالى :

زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ
لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾

‹١›

وقوله تعالى :

وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭۚ بَلْ زَعَمْتُمْ
أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾

‹٢›

وقوله تعالى :

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ
كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْۖ
وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ
لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

‹٣›

« ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين »

المقصود بالفتنة هنا : المعذرة ، أو القول ، أو الجواب .

وأصل الفتنة الشدة والاختبار والعرض على النار ونحو ذلك واختيار اللفظ هنا يدل على أنه مراد به ما فوق المعذرة أو الجواب أى جواب متلبس بشدة هائلة واختبار بالغ . ‹٤›

---

١ ـ سورة التغابن : ٧ .

٢ ـ سورة الكهف : ٤٨ .

٣ ـ سورة الأنعام : ٩٤ . وانظر : المفردات في غريب القرآن (زعم) .

٤ ـ أفاده المناقش الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد .

أى لـــم تكـن معذرتهـــــم أو قولهـم أو جوابهـم إلا أن قالـــوا : « **والله ربنا ما كنا مشركين** » فأنكروا نسبة الشرك إليهم .

« **وضل عنهم ما كانوا يفترون** » : أي وتــاه وغـاب عنهم مـا كـانوا يختلقون ، من وجود شركاء ينصرونهـــم يوم القيامـــة ، لأن معنى الافتراء الكذب . أى غابت عنهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله .

المعنى الإجمالى للآيات :

في هذه الآيات الكريمة يبين الحق سبحانه وتعالى لنا حال المشركين عندما يُجمعون ويحشرون يوم القيامة بعد بعثهم من قبورهم للحساب .

وأن الله تعالى في ذلك الوقت يوجه إليهم هذا السؤال فيقول لهم جل ثناؤه : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون أنهم آلهة من دون الله وكنتم تعبدونها ؟ .

ففي ذلك الوقــت لا يستطيعون الإجابة عن ذلك ؛ وليس لديهم حجة يحتجون بها ، أو عذر يعتذون به ، إلا أنهم ينكرون أنهم كانوا مشركين ، ويقسمون على ذلك .

ثم إن الحق سبحـانه وتعالى يأمرنا بالنظر والتأمل في أمـر هؤلاء المكذبين : كيف أنهم كذبوا على أنفسهم بأنهم لم يكونوا مشركين ، وأقسموا على ذلك ، وأن الذين اتخذوهـــم آلهة مـــن دون الله تعالى فعبدوهـــم كذباً وافتراءً غابوا عنهم .

التوضيح للآيات :

في هذه الآيات الكريمة يأمر الله تعالـــى نبيــه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يذكر للناس يوم يحشرهم ويجمــــع هؤلاء المشركين المفترين على الله الكذب ، وأنهم ســـوف يُسـألون في هذا اليوم ســـؤال توبيخ وإنكـــار على ما اقترفوه وكذّبوا به .

فيسألهـم عن الأصنـام والأنداد التي كانوا يعبدونها من دونه قائلاً لهم ، إما مباشرة أو بواسطة الملائكة : « **أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون** » ؟ .

وهذه الآية الكريمة كقوله جل ثناؤه :

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ‹١›

والاستفهام في قوله « **أين شركاؤكم** » لتقريع وتوبيخ المشركين . وأضاف الشركاء إليهم ، لأنها لم تكن شركاء لله في الحقيقة بل لما سموها شركاء أضيفت إليهم ، وهى ما كانوا يعبدونه من دون الله أو يعبدونه مع الله .

وقوله « **الذين تزعمون** » أى تزعمونها شركاء ، فحذف المفعولان معاً ، ووجه التوبيخ بهذا الاستفهام أن معبوداتهم غابت عنهم في تلك الحال ، أو كانت حاضرة ، ولكن لا ينتفعون بها بوجه من الوجوه ، فكأن وجودها كعدمه . ‹٢›

ثم لم يكن قولهم ، إجابة عن هذا التساؤل ، إلا أنهم أنكروا الشرك ، وأقسموا على ذلك بقولهم :« **والله ربنا ما كنا مشركين** » فالمقصود : بالفتنة هنا قولهم وإجابتهم . كما روى ذلك عن ابن عباس والضحاك ‹٣› .

ثم يأتى بعد ذلك تساؤل وهو :

كيف تصرح الآية بأنهم أنكروا الشرك بينما جاء في الآيات الأخرى ما يفيد اعترافهم بأنهم كانوا مشركين ؟ .

---

١ ـ سورة القصص : ٦٢ . وقوله : « أين شركائى » أى في زعمكم . .

٢ ـ فتح القدير : (٢ / ١٠٧) .

٣ ـ تفسير ابن كثير : (٣ / ١٣) ، وانظر : تفسير الطبرى : (١١ / ٢٩٧) .

حيث قال تعالى :

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

<١>

وقال تعالى :

﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ <٢>

وقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ ﴾

<٣>

والجواب عن هذا التساؤل :

أن لهؤلاء المشركين موقفين :

الموقف الأول : موقف الإنكار ، كما في آية « الأنعام » : « **ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون . ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين** » .

---

١ ـ سورة النحل : ٨٦ ، ٨٧ .

٢ ـ سورة النساء : ٤٢ .

٣ ـ سورة فصلت : ٤٧ ، ٤٨ . وآذناك : أي أعلمناك .

الموقف الثاني : موقف الاعتراف ، كما في الآيات السابقة في قوله تعالى :

« **قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك** » .

فهم حينما يوجه إليهم السؤال ابتداء ، ويرون أن المسلمين هم المستحقون للجنة ، وأنهم سيحرمون منها بسبب شركهم ، ففى هذه الحال ينكرون كفرهم وشركهم ظناً منهم أن ذلك سينجيهم من العذاب ، ويجعلهم مثل أهل الجنة ؛ وعندئذ يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، فلم ينفعهم هذا الإنكار بعد شهادة الجوارح .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

وَيَوْمَ يُحْشَرُ
أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ
عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾
وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي
أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾
وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ
وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ
﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم
مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن
يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾

(١)

١ ـ سورة فصلت : ١٩ ـ ٢٤ .

وقوله : « يوزعون » أى : يساقون .

وقوله : « وما كنتم تسترون » أى : عن ارتكاب الفواحش .

وقوله : « وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين » : أى أن يطلبوا الرضا فما هم من المرضيين ، أى ممن يرضى الله عنهم . انظر : تفسير الجلالين : (٤٠٢) .

وحينما يختم الحق سبحانه وتعالى على أفواههم ، وتتكلم جوارحهم ، كما جاء في قوله عز من قائل :

ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ
وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ 〈١〉

في هذا الموقف لابد أن يعترفوا بالحقيقة ، ويقروا بأنهم كانوا مشركين . ذكر ابن كثير في تفسيره عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أتاه رجل فقال : يا ابن عباس سمعت الله يقول : « **والله ربنا ما كنا مشركين** » قال : أما قوله : « **والله ربنا ما كنا مشركين** » فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة ، إلا أهل الصلاة ، فقالوا : تعالوا فلنجحد فيجحدون ، فيختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم .

وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا 〈٢〉 فهل في قلبك الآن شيء ؟ إنه ليس من القرآن شيء إلا ونزل فيه شيء ، ولكن لا تعلمون وجهه 〈٣〉 .

ويمكن أن يكون الاعتراف بالنسبة لقوم والإنكار بالنسبة لآخرين ، أو الاعتراف في موقف والإنكار في موقف آخر غيره ، قال ابن جزى الكلبى في تفسيره لهذه الآية : (فإن قيل : كيف يجحدونه وقد قال الله « **ولا يكتمون الله حديثاً** » ؟ .

فالجواب : أن ذلك يختلف باختلاف طوائف الناس واختلاف المواطن ، فيكتم قوم ويقر آخرون ، ويكتمون في موطن ، ويقرون في موطن آخر ، لأن يوم القيامة طويل .

---

١ ـ سورة يس : ٦٥ .

٢ ـ سورة النساء : ٤٢ .

٣ ـ تفسير ابن كثير : (٣ / ١٣) .

وقوله : « فلنجحد » أى لينكروا أنهم كانوا مشركين .

وقد قال ابن عباس لما سُئل عن هذا السؤال : إنهم جحدوا طمعاً في النجاة فختم اللّه على أفواههم ، وتكلمت جوارحهم فلا يكتمون اللّه حديثاً) . ‹١›

ثم انتقلت الآيات بعد ذلك إلى الأمر بالنظر والتأمل في حال هؤلاء المفترين المشركين الكاذبين .

فقال عز من قائل : « **انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون** » أى انظر يامحمد ، أو الأمر من اللّه تعالى بالنظر لكل من يتأتى منه النظر من أصحاب العقول ، إلى حال هؤلاء الكفرة المفترين ، كيف أنهم أنكروا شركهم وكفرهم باللّه العظيم ، وأظهروا اعتذارهم بالباطل والكذب ، وهذا لا ينفعهم يوم القيامة ، وأن الأصنام التي كانوا يعبدونها مع اللّه ـ جل ثناؤه ـ أو من دون اللّه ـ تعالى اللّه عن ذلك علواً كبيراً ـ تاهت وغابت عنهم ، وظهر لهم الحق في ذلك .

قال الخازن في تفسيره لهذه الآية :

« **انظر كيف كذبوا على أنفسهم** » (يعنى انظر يامحمد بعين البصيرة والتأمل إلى حال هؤلاء المشركين « **كيف كذبوا على أنفسهم** » يعنى اعتذارَهم بالباطل وتبرأهم من الأصنام والشرك الذى كانوا عليه ، واستعمالهم الكذب مثل ما كانوا عليه في دار الدنيا ، وذلك لا ينفعهم وهو قوله : « **وضل عنهم** » يعنى زال عنهم وذهب « **ما كانوا يفترون** » يعنى ما كانوا يكذبون ، وهو قولهم : إن الأصنام تشفع لهم وتنصرهم فبطل ذلك كله في ذلك اليوم») ‹٢› .

---

١ ـ التسهيل في علوم التنزيل : (٢ / ٥) .

٢ ـ تفسير الخازن : (٢ / ١٠٤) .

وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ
﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾
فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ
مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ
نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾
ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ
تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ
مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾

(١)

فالذين كانوا يعبدونهم من دون الله لم يأتوا لينصرونهم ويؤيدونهم ، فهم كانوا يعبدونهم لذلك فأين هم الآن ؟ بل تاهوا عنهم فظهر ما كانوا يفترون من الكذب .

---

١ ـ سورة غافر : ٦٩ ـ ٧٦ .

* عرض الكافرين على النار وعرضهم على الرب وندمهم وتمنيهم العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحاً :

وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى :

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ
فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾
بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ
وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ
بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا
بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ
﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ
بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ
عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا
لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

‹١›

معانى الكلمات :

« **إذ وقفوا على النار** » أى إذ عرضوا عليها .

« **ياليتنا نرد** » : ليت : حرف تمن ، فهم تمنوا أن يرجعوا إلى الحياة الدنيا ولا يكذبوا بآيات الله ويكونوا من المؤمنين .

---

١ ـ سورة الأنعام : ٢٧ ـ ٣٢ .

« **بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل** » : أى بل بدالهم ما كانوا يخفونه من قبل وهو صحة التوحيد وبطلان الشرك ، أو النار التي كانوا يكذبونها ونحو ذلك .

« **ولو ردوا** » : أى إلى الحياة الدنيا فرضاً .

« **لعادوا لما نهوا عنه** » : أى من الشرك .

« **وإنهم لكاذبون** » : أى في وعدهم بالإيمان .

« **وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا** » : أى أنكروا البعث ، وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا التي نحن فيها ، وما نحن بمبعوثين بعد الموت .

« **ولو ترى إذ وقفوا على ربهم** » : أى عرضوا على ربهم .

« **قال أليس هذا بالحق** » : أى تقريراً لهم وتوبيخاً .

« **قالوا بلى وربنا** » : أى أنهم اعترفوا بما كانوا ينكرونه في الدنيا .

« **قال فذوقوا العذاب** » : أى يقول الله لهم ذلك ، أو الخزنة تقول لهم ذلك بأمر الله تعالى .

« **بما كنتم تكفرون** » يعنى هذا العذاب بسبب كفركم وجحودكم البعث بعد الموت .

« **قد خسر الذين كذّبوا بلقاء الله** » : أى خسروا أنفسهم بسبب تكذيبهم بالبعث والمقصود « بلقاء الله » هنا يوم القيامة ، أى كذبوا بيوم القيامة (١) .

« **حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة** » : المقصود بـ « الساعة » هنا القيامة ، وقد تأتى الساعة بعدة معان ذكرها صاحب لسان العرب فقال :

(**الساعة** : جزء من أجزاء الليل والنهار .

---

١ ـ تفسير الخازن : (٢ / ١٠٦) .

والساعة : الوقت الحاضر ، والساعة : القيامة ، قال الزجاج : الساعة : اسم للوقت الذى يصعق فيه العباد ، والوقت الذى يبعثون فيه ، وتقوم فيه القيامة ، سميت ساعة لأنها تفجأ الناس في ساعة ، فيموت الخلق كلهم عند الصيحة الأولى التي ذكرها الله تعالى ، فقال :

إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ‹١›

والساعة في الأصل تطلق بمعنيين :

أحدهما : أن تكون عبارة عن جزء من أربعة وعشرين جزءاً هى مجموع اليوم والليلة .

الثاني : أن تكون عبارة عن جزء قليل من النهار أو الليل ، يقال : جلست عندك ساعة من النهار ، أى وقتاً قليلاً منه ، ثم استعيرت لاسم يوم القيامة) ‹٢› .

بغتة : فجأة ، أى مباغة لهم .

« **قالوا ياحسرتنا على ما فرطنا فيهـا** » : الحسـرة : شدة الندامة ، كناية عن شدة الهول الذى هم فيه .

فهم ينادون الحسرة كأنهم يقولون : إن هذا الوقت وقتك فاحضرى .

« **فرطنا** » أى قصرنا وضيعنا .

« **فيها** » أى في الدنيا من عمل الأعمال الصالحة والاستعداد للآخرة .

« **وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم** » : أى والحال أنهم يحملون ذنوبهم على ظهورهم ، لأنه جرت العادة بحمل الأثقال على الظهور، والأوزار : الخطايا والذنوب ، جمع وزر .

---

١ ـ سورة يس : ٢٩ .

٢ ـ لسان العرب : « سوع » .

« **ألا ساء ما يزرون** » : ساء : بئس ، و « **ما يزرون** » أى ما يحملونه من حملهم .

« **وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو** » : أى وما الاشتغال بالحياة والعمل لها إلا لعب ولهو ، فاللعب : هو العمل الذى لا يقصد به جلب نفع أو دفع ضر ، واللهو : هو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه .

« **والدار الآخرة** » : المقصود بها الجنة .

« **خير للذين يتقون** » : أى هى خير للذين يبتعدون عن الشرك والمعاصى .

« **أفلا تعقلون** » : أى أغفلتم فلم تفهموا هذه الحقيقة ؟

المعنى الإجمالى لهذه الآيات :

يبين الحق سبحانه وتعالى حال هؤلاء المشركين في وقت عرضهم على النار ، فيخبر كل من يتأتى منه الرؤية لو رأى حال هؤلاء حين عرضهم على النار ، وما أعده الله سبحانه وتعالى لهم فيها من أنواع العذاب الأليم ؛ لوجدهم في هذه الحالة يتمنون ثلاثة أمور :

أن يرجعوا إلى الحياة الدنيا ، ولا يكذبوا بآيات الله ، ويكونوا من المؤمنين .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يكشف كذبهم فيما قالوه وتمنوه ، وذلك لأنهم لم يكونوا صادقين ، بل ظهر لهم ما كانوا يخفونه من قبل ، وهو معرفتهم برسالة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإيمانهم به ، فهم قد أخفوا هذه المعرفة عناداً وطلباً للدنيا وتقليداً للآباء .

ولو فُرض تحقيق مطلبهم ، وهو الرجوع إلى الحياة الدنيا ، لعادوا إلى الكفر الذى كانوا يظهرونه ، وعادوا لمحاربة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنكار رسالته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وإنكار البعث والجزاء .

ثم يبين الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك أنهم حين العرض على الرب سبحانه وتعالى يقررهم بأن ماهم فيه مما يرونه من أهوال الآخرة ما هو إلا الحق الذى لا شك فيه ، فيعترفون بهذا قائلين مقسمين : « **بلى وربنا** » .

فيصدر الله الحكم عليهم فيقول لهم :« **ذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** » : أى بسبب كفركم الذي كنتم عليه في الدنيا .

ثم إن الحق جل ثناؤه يقرر خسارة هؤلاء المكذبين باليوم الآخر ، حينما يأتى يوم القيامة ، وتظهر لهم الحقيقة التي لا إنكار لها .

فيخبر الله سبحانه وتعالى عما سيحدث لهم من ألم وندم على ما فرطوا في حياتهم الدنيا من الأعمال الصالحة والاستعداد للآخرة ، عندما ينادون الحسرة قائلين : « **ياحسرتنا على ما فرطنا فيها** » : أى أن هذا الوقت هو وقت الندم والتحسر على ما فات عندما يحل بالإنسان ، من الآلام الجسام التي لا مثيل لها ، فينادى هؤلاء الكفار الحسرة بأن تحضر فهذا وقتها ، وهذا كلام يقال : لمن أصابته خسارة كبرى لا عوض عنها ، ولا مخلص منها .

ثم يبين الحق تعالى أن هؤلاء يأتون يوم القيامة وكل واحد منهم يحمل ذنوبه على ظهره ، وبئس هذا الحمل الذى يحمله .

وَحمْل هذه الأوزار إما أن يكون حقيقة ، بمعنى : أن تتجسد الذنوب ويحملها صاحبها على ظهره في صورة قبيحة ، وهذا شر مظهر يظهر به الإنسان .

وإما أن يكون المعنى مجازاً ، فيكون هؤلاء في حالة من التعب والألم والشقاء كحالة من يحمل أثقالاً تتعبه ، ويبلغ بسببها من الضيق والألم ما لا طاقة له به .

ثم يقرر الحق سبحانه وتعالى أن العمل للحياة الدنيا ينتهى إلى ما لا ينفع في الآخرة ، وإذا كان ذلك كذلك فالواجب الاستعداد للدار الآخرة بالإيمان والعمل الصالح .

فالدار الآخرة فيها الجنة ، والجنة هـي الخير الأعلى ، فنعيمها وسعادتها لا شقاء معهما ، وهي غنى لا فقر معه ، ونعيم خالد لا ينتهي ولا يزول ، وإذا كان الأمر كذلك فيجب على الإنسان أن يعقل هذا المعنى ولا يغفل عنه فيُؤثر الحياة الآخرة الباقية على الحياة الدنيا الفانية ، فهذا هو العقل .

التوضيح للآيات :

يبين الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية حال الكافرين وموقفهم في يوم القيامة .

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية :

(يذكر اللَّه تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار ، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال ، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال ، فعند ذلك ، يقولون : « **ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين** » يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً ؛ ولا يكذبوا بآيات ربهم ؛ ويكونوا من المؤمنين) (١) .

وقال الشوكاني أيضاً في تفسيره لهذه الآية :

« **ولو ترى إذ وقفوا على النار** »(الخطاب لرسول اللَّه ـ صلى اللَّه عليه وسلم ـ أو لكل من تتأتى منه الرؤية .

ومعنى « وقفوا » حبسوا ، وقيل : « وقفوا على النار » أدخلوها فتكون « على » بمعنى « في » ، وقيل : هي بمعنى « الباء » أي وقفوا بالنار ، أي بقربها معاينين لها .

---

١ ـ تفسير ابن كثير : (٢ / ١٥) .

ومفعول « ترى » محذوف ، وجـواب « لو » محـذوف ليذهب السامع كل مذهب ، والتقدير : لو تراهم إذ وقفوا على النار لرأيت منظراً هائلاً وحالاً فظيعاً) ‹١› .

ثم بين الحق سبحانـه وتعالى بعد ذلك أن هذا التمنى لم يكن لتغير حالهم بل لأنه ظهر لهم ما كان خافياً عليهـم ، فقال عز من قائل : « **بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل** » .

أى ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهـم مـن صـدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصدق ما جاءهم به من عند ربهم عناداً وتكذيباً ، وطلباً للدنيا وتقليداً للآباء .

وهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة في الإيمان ، بل خوفاً من العذاب الذى عاينوه جزاءً على ما كانوا عليه من الكفر ، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار ، ولهذا قال تعالى : « **ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون** » أى في طلبهم الرجعة رغبة ومحبة في الإيمان .

ثم قال تعالى مخبراً عنهم : إنهم لو ردوا إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والمخالفة . « **وإنهم لكاذبون** » أى في قولهـم : « **ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكـون من المؤمنين** »« **وقالـوا إن هـى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين** » أى لعـادوا لمـا نهـوا عنه ؛ ولقالوا : إن هى إلا حياتنـا الدنيـا ، أى ما هـى إلا هـذه الحياة الدنيا ثم لا معـاد بعدها ، ولهـذا قال تعالى : « **وما نحن بمبعوثين** » ‹٢› .

---

١ ـ فتح القدير : (٢ / ١٠٨) .
٢ ـ تفسير ابن كثير : (٣ / ١٦) .

ويؤيد هـــذا ما جاء في تفسير الخـــازن لهـــذه الآية أيضـــاً ، حيث قال : (قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هذا خبر من الله عنه هؤلاء الكفار الذين وقفوا على النار أنهم لو ردوا إلـى الدنيا لقالـوا : « **إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين** ») ‹١› .

فقوله « **وما نحن بمبعوثين** » أى بعـد الموت ، وهذا من شـدة تمردهم وعنادهم حيث يقولون هذه المقالة على تقدير أنهم لو رجعوا إلى الدنيا بعد مشاهدتهم للبعث ‹٢› .

ويمكن أن يقال : بل لأنهم ما ديون لا يعترفون إلا بالمشاهد المحسوس ، فلما عاينوا الهول آمنوا ولو ردوا لنسوا وعادوا للإنكار اتباعاً لشهواتهم الحاضره .

ثم قال تعالى : « **ولو ترى إذ وقفوا على ربهم** » .

قال مقاتل : عرضوا على ربهم .

« **قال أليس هذا بالحق** » أى يقول الله يوم القيامة : أليس هذا البعث والنشر بعد الموت الذى كنتم تنكرونـــه في الدنيا وتكذبونه وتقولون : لا بعث ولا نشر حقاً ؟ .

« **قالوا بلى وربنا** » أى أنهم اعترفوا بما كانوا ينكـرونه فأجـــابوا وقالوا : بلى والله إنه الحق ، فأقسموا على ذلك بأنه حق لا شك فيه ، وأكدوا ذلك بالقسم .

وقيل : تقول لهم خزنة النار بأمر الله : أليس هذا بالحق ؟ .

يعنى البعث حقاً فأجابوا بقولهم : « **بلى وربنا** » .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : للقيامة مواقف ، ففى موقف ينكرون ، ويقولون والله ربنا ما كنا مشركين ، وفي موقف يعترفون بما كانوا ينكرونه في الدنيا .

---

١ ـ تفسير الخازن : (٢ / ١٠٦) .
٢ ـ فتح القدير للشوكاني : (٢ / ١٠٩) .

« **قال فذوقوا العذاب** » أى يقول الله لهم ذلك ، أو الخزنة تقول لهم ذلك بأمر الله تعالى .

وإنما خص لفظ « الذوق » لأنهم في كل حال يجدون ألم العذاب وجدان الذائق في شدة الإحساس .

« **بما كنتم تكفرون** » يعنى هذا العـذاب بسبـب كفركم وجحودكم البعث بعد الموت ‹١› .

ثم يخبرنا الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك عن أحوال هؤلاء الكفار فيقول تعالى : « **قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون** » .

فهؤلاء الكفار الذين أنكروا البعث حينما يلقون ربهم ، وتأتيهم منيتهم ، وتنتهى حياتهم ، ويرون أن كل ما أخبروا به هو الحق الذى لا شك فيه ، يشعرون بالألم الشديد والندم على ما فاتهم ، وقصروا فيه من الأعمال الصالحة ، والاستعداد للدار الآخرة كما أمرهم الله بها ، فكأنهم ينادون الندامة بأن تأتيهم فهذا وقتها .

فنداء الحسرة نداء مجازى ، وذلك ليدل على شدة تحسرهم ، قال ابن كثير في تفسيره : (يقول الله تعالى مخبراً عن خسارة من كذب بلقائه وعن خيبته إذا جاءته الساعة بغتة ، وعن ندامته على ما فرطً من العمل ، وما أسلف من قبيح الفعل ، ولهذا قال : « **حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على ما فرطنا فيها** » .

١ ـ تفسير الخازن : (٢ / ١٠٦) .

وهذا الضمير يحتمل عوده على الحياة ، وعلى الأعمال ، وعلى الدار الآخرة أى في أمرها) <١> .

وقال المراغى أيضاً في تفسيره : (أى قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وأصروا على هذا التكذيب حتى إذا جاءتهم منيتهم ، وهى مقدمة الآخرة ، وهى بالنسبة إليهم تعتبر قيامتهم ، وهى بالنسبة إليهم مبدأ الساعة ومقدمات القيامة ،مفاجئة لهم من حيث لم يكونوا ينظرونها ـ أى ينتظرونها ـ ولا يعدون العدة لمجيئها . قالوا : ياحسرتنا على تفريطنا في الحياة الدنيا التي كنا نزعم أنه لا حياة بعدها) <٢> .

وقال الخازن في تفسيره لهذه الآية : (يعنى خسروا أنفسهم بسبب تكذيبهم بالمسير إلى الله تعالى ، وبالبعث بعد الموت ، وهذا الخسران هو فوت الثواب العظيم في دار النعيم المقيم ، وحصول العذاب الأليم في دركات الجحيم .

« **حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة** » يعنى جاءتهم القيامة فجأة ، وسميت القيامة ساعة لأنها تفجأ الناس بغتة في ساعة لا يعلمها أحد إلا الله تبارك وتعالى .

وقيل : سميت ساعة لسرعة الحساب فيها ، لأن حساب الخلائق يوم القيامة يكون في ساعة أو أقل من ذلك) <٣> .

فالكفار عندما تأتيهم الساعة بغتة بأهوالها يندمون ويتحسرون على ما قصروا في الأعمال الصالحة في الحياة الدنيا ، لأن الله تعالى أخفى علمها ، ولم يحدد وقت قيامها ، ليستعد لها الناس بالأعمال الصالحة في كل زمان .

---

١ ـ تفسير ابن كثير : (٢ / ١٦) .
٢ ـ تفسير المراغى : (٧ / ١٠٦) .
٣ ـ تفسير الخازن : (٢ / ١٠٦) .

قال جل ثناؤه :

إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾
إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ‹١›

فالله سبحان وتعالى أخفى علم الساعة ، ولم يطلع عليه أحداً من خلقه ، وذلك لتنال كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر ، وله حكمة في ذلك وفي إخفاء وقت الموت فلو علم وقت قيام الساعة ، أو وقت انقضاء الأجل ، فإن الإنسان يشتغل بالمعاصى إلى قرب ذلك الوقت ، ثم يتوب إلى الله تعالى ، ويعمل الصالحات ، ويكون بذلك تخلص من عقابه وعذابه ، ولكنه تعالى أخفى علم ذلك ليظل الناس على حذر دائم ، واستعداد مستمر ، حذرا من أن تباغتهم الساعة أو يفاجئهم الموت ‹٢› .

ثم وصفهم الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك بقوله جل ثناؤه : « **وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون** » فمعنى قوله : « **وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم** » أى والحال أنهم يحملون أوزارهم على ظهورهم .

والأوزار : جمع وزر ، والوزر : الحمل الثقيل ، والمقصود بها هنا الذنوب .

وقد سبق أن قلنا : إن حمل الأوزار هذا قد يكون حقيقة ، بمعنى أن الذنوب تتجسد وتظهر بحيث تأتى يوم القيامة وصاحبها حامل لها على ظهره .

وقد يكون مجازاً ، أى كناية عن أن الإنسان الكافر يأتى يوم القيامة متعباً ومتألماً كما يتعب ويتألم من حَمَل حِملاً ثقيلاً لا يستطيع أن يقوى عليه ولا أن يتخلص منه .

فالمعنى يحتمل هذا وذاك .

فمن المفسرين من رأى أن المقصود هو المعنى الأول « الحقيقة » ومنهم من رأى أن المقصود هو المعنى الثانى « المجاز » .

---

١ ـ سورة طه : ١٤ ، ١٥ .

٢ ـ تفسير المراغي : (١٦ / ١٠٠) .

وممن ذهب إلى الرأى الأول الطبرى وابن كثير والسيوطى والخازن في تفسيرهم <١> .

وممن ذهب إلى الرأى الثانى ، وهو أنه تعبير مجازى ما جاء في تفسير ابن جزى الكلبى : (إنه كناية عن تحمل الذنوب ، وقال تعالى : « **على ظهورهم** » لأن العادة حمل الأثقال على الظهور) <٢> .

وجاء في تفسير الخازن :

(قال الزجاج :الثقل كما يذكر في الوزن فقد يذكر في الحال والصفة ، يقال : ثقل عليَّ كلام فلان ، بمعنى كرهته .

فالمعنى : أنهم يقاسون من عقاب ذنوبهم مُقاساة تثقل ذلك عليهم ، فعلى هذا القول يكون قوله : « **وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم** » مجازاً عما يقاسونه من شدة العذاب .

وقيل في معنى الآية : أوزارهم لا تزايلهم ، أى ملازمة لهم لا تفارقهم ، كما يقال : شخصه نصب عين ، أى ذكره ملازم لى .

وقوله : « **ألا سآء ما يزرون** » يعنى بئس الشيء الذى يحملونه .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : بئس الحِملُ حملوا ») <٣> .

والراجح : أن المقصود بهذا الحقيقة لا المجاز ، فقد ورد ما يؤيد هذا في حديث المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث أخرج الإمام البخارى ومسلم

---

١ ـ تفسير الطبرى (١١ / ٣٢٧) وانظر تفسير ابن كثير (٢ / ١٦) وكذلك الدر المنثور (٣ / ٩) وتفسير الخازن (٢ / ١٠٦) .

٢ ـ كتاب التسهيل لعلوم التنزيل (٢ / ٧) .

٣ ـ تفسير الخازن (٢ / ١٠٦) وانظر معانى القرآن وإعرابه للزجاج (٢ / ٢٤٢) .

بسنديهما عن الزهرى أنه سمع عروة أخبرنا أبو حميد الساعدى (١) قال : استعمل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلاً من بنى أسد يقال له ابن الأتْبيَّة (٢) على صدقة ، فلما قدم قال : هذا لكم وهذا أهدى لى ، فقام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المنبر ـ قال سفيان أيضاً ـ فصعد على المنبر فَحمِدَ اللّه وأثنى عليه ، ثم قال : « ما بال العامل نبعثه فيأتى يقول : هذا لك وهذا لى ، فهلاّ جلس في بيت أبيه وأمه فينظر : أيهدى له أم لا ؟ . والذى نفسى بيده لا يأتى بشىء إلا جاء بها يوم القيامة يحْمِلهُ على رقبته إن كان بعيراً له رُغاء أو بقرة لها خوار ، أو شاةً تَيعُر ، ثم رفع يديه حتى رأينا عُفرتى إبْطيه ، ألا هل بلغت ثلاثاً » (٣) .

---

١ ـ أبو حميد الساعدى الأنصارى المدنى . قيل اسمه عبد الرحمن وقيل المنذر بن سعد بن المنذر ، شهد أحدا وما بعدها وتوفى في آخر خلافة معاوية سنة ستين .

الجرح والتعديل (٨ / ٢٤٤) والتهذيب (١٢ / ٧٩) والتقريب (٢ / ٤١٤) .

٢ ـ ابن الأُتْبيَّةِ أو ابن الأتْبيَّةِ : هو عبد الله بن اللتبيَّة بن ثعلبة الأزدى ـ استعمله النبى صلى الله عليه وسلم على بعض الصدقات مذكور في حديث أبي حميد الساعدى في الصحيحين أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً على الصدقات يدعى ابن اللتبيَّة الحديث بطوله . وإنما يأتى في أكثر الروايات غير مسمّى ، وسماه ابن سعد والبغوى وابن أبي حاتم والطبرانى وابن حبان وغير واحد « عبد الله » .

أسد الغابة (٣ / ٣٧٤) والإصابة (٢ / ٣٦٣) القاموس ل ت ب .

٣ ـ صحيح البخارى (كتاب الأحكام ، باب هدايا العمال) (٩ : ٨٨) وصحيح مسلم (كتاب الامارة ، باب تحريم هدايا العمال) (٣ : ١٤٦٣) .

وقوله : « يقال له ابن الأَتبية » كذا في رواية أبى ذر بفتح الهمزة والمثناة وكسر الموحدة .

وقال عياض : ضبطه الأصيلى بخطه في هذا الباب بضم اللام وسكون المثناة .

وكذا قيده ابن السكن ، قال : وهو الصواب ، وكذا قال ابن السمعانى : ابن اللُّتبِيَّة بضم اللام وفتح المثناة ويقال بالهمزة بدل اللام .

وأسمه عبد الله واللتبية أمه لم نقف على تسميتها .

وقوله « بعير له رُغاء » بضم الراء وتخفيف المعجمة مع المد ، هو صوت البعير .

وقوله : « خُوار » هو صوت العجل . ويستعمل في غير البقر من الحيوان وهو بضم الخاء المعجمة .

وقوله : « أو شاة تَيْعَر » بفتح المثناة الفوقانية وسكون التحتانية بعدها مهملة مفتوحة ويجوز كسرها .

ووقع عند ابن التين « أو شاة لها يَعَار » بفتح التحتانية وتخفيف المهملة وهو صوت الشاة الشديد .

وانظر : فتح البارى شرح صحيح البخارى (كتاب الأحكام ، باب هدايا العمال) (١٣ / ١٦٥ـ١٦٧).

ثم قال الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا
لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
‹١›

أراد الحق جل ثناؤه أن يبين لنا حقيقة الحياة الدنيا ، وحقيقة الحياة الأخرى ، حتى يعرف الإنسان الواجب الذى يجب عليه أن يؤديه ، ويستعد للحياة الآخرة بالأعمال الصالحة ، وهذا رد على منكرى البعث في قولهم كما حكى القرآن عنهم .

فقال تعالى : وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ
‹٢›

وقال عز من قائل في آية أخرى :

إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ
‹٣›

وقال جل ثناؤه :

وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ
إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ
‹٤›

---

١ ـ سورة الأنعام : ٣٢ .
٢ ـ سورة الأنعام : ٢٩ .
٣ ـ سورة المؤمنون : ٣٧ .
٤ ـ سورة الجاثية : ٢٤ .

فقال سبحانه وتعالى راداً عليهم ، ومكذباً لهم : « **وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون** » .

قال الصاوى في تفسيره لهذه الآية : « **وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو** » . (« قوله : أى الاشتغال بها » أشار بذلك إلى أن الكلام على حذف مضاف ، والمعنى : أن الاشتغال في الحياة الدنيا عن خدمة اللّٰه وطاعته لعب ولهو ، وليس المراد أن مطلق الحياة الدنيا لعب ولهو ، بل ما قَرَّب منها إلى اللّٰه فهو مزرعة للآخرة وما أبعد منها فهو حسرة وندامة ») ‹١› .

ثم ختم الحق تعالى الآية بقوله :

« **وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون** » .

فالمراد بالدار الآخرة : الجنة ، واللام فيه للقسم ، والتقدير : واللّٰه لدار الآخرة خير ، أو وعزتى وجلالى لدار الآخرة خير .

والمعنى : واللّٰه لدار الآخرة خير من دار الدنيا وأفضل ، لأن دار الدنيا سريعة الزوال والإنقطاع ، وأما دار الآخرة فهى دار البقاء والخلود ، ولسلامة دار الآخرة من الآفات والمتاعب والموت والبغضاء فضلاً عن النعيم .

« **للذين يتقون** » الشرك والمعاصى .

« **أفلا تعقلون** » أى أن الآخرة خير من الدنيا فتعملوا لها الأعمال الصالحة . ‹٢›

وقال الألوسى ‹٣› في معنى قوله (« **أفلا تعقلون** » ذلك حتى تتقوا ما أنتم عليه من الكفر والعصيان .

---

١ ـ حاشية الصاوى على تفسير الجلالين : (٢ / ١١) .

٢ ـ تفسير الخازن : (٢ / ١٠٧) بتصرف .

٣ ـ الآلوسى : هو محمود بن عبد اللّٰه الحسينى الآلوسى شهاب الدين أبو الثناء .

مفسر محدث ، فقيه أديب لغوى نحوى ، ولد ببغداد ، وتقلد الإفتاء فيها وسافر إلى الموصل فالقسطنطينية ، وأكرمه السلطان عبد المجيد ، وعاد إلى بغداد ، وتوفى بها .

ومن تصانيفه : روح المعانى في تفسير القرآن والسبع المثانى ، وشرح درة الغواص للحريرى ، وحاشية على شرح قطر الندى في النحو (ت ١٢٧٠هـ) معجم المؤلفين (١٢ / ١٧٥) .

« والفاء » للعطف على محذوف أى :أتغفلون ، أو ألا تتفكرون فلا تعقلون)‹١›.

فالاستفهام للإنكار ، ينكر الحــق سبحانه وتعالى عليهم هذا حتى يتدبروا ولا يغفلوا ، فإن الحيــاة الدنيا ستنتهـــى ، والحياة الآخرة ســـوف تأتى وهى خير وأبقى .

كما قال تعالى :

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ‹٢›

وقال تعالى :

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ‹٣›

---

١ ـ روح المعانى : (٧ / ١٣٤) .

٢ ـ سورة القصص : ٦٠ .

٣ ـ سورة العنكبوت : ٦٤ .

* **سبب عذاب الكافرين في الآخرة وبيان عدم نفع شفاعة الشفعاء :**

وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ۝٤٩﴾ ‹١›

معانى الكلمات :

« **يمسهم العذاب** » : أى ينالهم ويصيبهم العذاب .

« **بما كانوا يفسقون** » : أى بسبب فسقهم وخروجهم عن الدين .

والفسق في المعنى المتعارف عليه في الفقه : هو ارتكاب كبيرة ، أو الإصرار على صغيرة ، فكل من ارتكب كبيرة ، أو أصر على صغيرة يعتبر فاسقاً إلا إذا تاب ، والمقصود بالفسق في الآية : الكفر ، قال الراغب‹٢› : « الفسق » : هو الخروج عن الشرع ، وهو أعم من الكفر ، لأنه يقع بالقليل من الذنب وبالكثير ، ولكن عرف فيما كان كثيراً .

وأكثر ما يقال الفاسق لمن التزم حكم الشرع وأقرّ به ، ثم أخل بجميع أحكامه أو ببعضها .

وإذا قيل للكافر الأصلى : فاسق ، فلأنه أخل بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة » ‹٣› .

---

١ ـ سورة الأنعام : ٤٩ .

٢ ـ الراغب الأصفهانى : هو الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم ، أديب من الحكماء العلماء ، سكن بغداد واشتهر حتى كان يقرن بالإمام الغزالى ، مات سنة (٥٠٢هـ) .

انظر : روضات الجنّات (٢٤٩) وكشف الظنون (١ / ٣٦) بغية الوعاة (٢ / ٢٩٧) والأعلام (٢ / ٢٥٥) .

٣ ـ المفردات في غريب القرآن (فسق) .

المعنى الإجمالى للآية :

يبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة سبب عذاب هؤلاء الكفار في الدار الآخرة ، وهو أنهم كذبوا بآيات الله الواضحة ، والدالة على صدق ما جاءتهم به الرسل من عند الله تعالى فهؤلاء سوف ينالهم عذاب الله الأليم ويصيبهم بسبب تكذيبهم وبعدهم عن الحق وارتكابهم الكفر .

التوضيح للآية :

يخبر الله عز وجل أن الذين كذبوا بآياته ، التي تشتمل على أوامره ونواهيه ، ولم يعملوا بها وبما جاءتهم به الرسل ، هؤلاء سينالهم عذاب الله الأليم الشديد بسبب كفرهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى ، وأمتثال أوامره .

فقوله تعالى « **والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب** » يعنى يصيبهم العذاب .

وقوله « **بما كانوا يفسقون** » يعنى بسبب ما كانوا يكفرون ويخرجون عن الطاعة (١) .

وقوله « **آيات الله** » : أى التي بلغتها الرسل عليهم الصلاة والسلام عند التبشير والإنذار (٢) .

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية : « أى ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل ، وخرجوا عن أوامر الله وطاعته ، وارتكبوا من مناهيه ومحارمه وانتهاك حرماته » (٣) .

---

١ ـ تفسير الخازن : (٢ / ١١١) .
٢ ـ روح المعانى : (٧ / ١٥٤) .
٣ ـ تفسير ابن كثير : (٣٢ / ٢٤) .

ويقول الحق سبحانه وتعالى في بيان سبب عذاب الكافرين أيضاً :

وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ
دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ
أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ
وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ‹١›

معانى الكلمات :

« **وذر الذين اتخذوا دينهم** » : أى وأترك وأعرض عن الذين اتخذوا دينهم الذى كُلفوا به ، ودعوا إليه ، وهو دين الإسلام ، فلا تتعرض لهم ، وهذا قبل الأمر بالقتال .

« **لعباً ولهواً** » : أى باستهزائهم به وتكذيبهم ، واللهو : ما يشغل الإنسان من هوى أو طرب .

« **وغرتهم الحياة الدنيا** » : أى خدعتهم الحياة الدنيا بزينتها .

« **وذكر به** » : أى عظ بالقرآن الناس .

« **أن تبسل نفس بما كسبت** » مخافة أن تسلم إلى الهلاك والعذاب ، وترتهن بسوء ما عملت . وأصل الإبسال : المنع .

« **ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع** » : أى ليس لها غيره سبحانه وتعالى ناصر ، فالولى : الناصر والمعين .

---

١ ـ سورة الأنعام : ٧٠ .

والشفيع : هو من ينضم إلى الرجل ، ناصراً له ، وسائلا عنه ، وأكثر ما تستعمل الشفاعة في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى ، يريد : أنه لا أحد يمنع عنها العذاب والهلاك .

« **وإن تعدل كل عدل** » أى إن تفد كل فداء ، لأن معنى العدل ، الفدية .

« **لا يؤخذ منها** » أى لا يقبل منها ما تفدى به .

« **أولئك الذين أبسلوا** » أى هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً هم الذين سلموا للهلاك بما عملوا .

« **لهم شراب من حميم** » أى لهؤلاء شراب من حميم ، وهو الماء الحار الذى بلغ نهاية الحرارة ، يشربونه فيقطع أمعاءهم .

« **وعذاب أليم** » أى ولهؤلاء أيضاً عذاب مؤلم .

« **بما كانوا يكفرون** » أى بسبب كفرهم بالله تعالى (١) .

المعنى الإجمالى للآية :

في هذه الآية الكريمة يأمر الحق سبحانه وتعالى نبيه وحبيبه سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ـ أن يترك هؤلاء الكفرة ، ويعرض عنهم ولا يبالى بهم ، وهم الذين اتخذوا دينهم الذى كلفوا به ، ودعوا إليه ، وهو دين الحق والهدى ، دين الإسلام ـ لعباً ولهواً واستهزاءً به ، وسخرية منه ، وخدعتهم الحياة الدنيا الفانية بزينتها وزخارفها عن الحياة الباقية حياة الآخرة .

وأن عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يذكّر بالقرآن ، وبما فيه من المواعظ الناس جميعاً ، لكى ينجوا من عذاب الله وهلاكه ، فإنه ليس لهم في ذلك اليوم من ينصرهم ، ويمنع عنهم عذاب الله ، وينجيهم من أليم عقابه ، ولا من يشفع لهم عند الله ـ سبحانه وتعالى أحد .

---

١ ـ انظر : تفسير الجلالين : (١١٢) ، وكذلك تفسير النسفى (٢ / ١٨) ، وفتح القدير (٢ / ١٢٩) ، ومفردات الراغب (شفع) .

ولو قدر لهؤلاء أن يفدوا أنفسهم بالفدية ، فإنه لا يقبل منهم بسبب كفرهم بالله تعالى وعدم استجابتهم لدعوة الإيمان .

فهؤلاء الكفرة قد عرضوا أنفسهم لعذاب الله وهلاكه بسبب أعمالهم القبيحة ، وعقائدهم الفاسدة الباطلة .

التوضيح للآية :

في هذه الآية الكريمة يأمر الله نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بترك هؤلاء الكفار الذين لم يستجيبوا لدعوة الإيمان .

قال الخازن في تفسيره لهذه الآية : « **وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً** » .

(الخطاب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعنى وذر يامحمد هؤلاء المشركين الذين اتخـــذوا دينهـــم الـــذى أمروا به ودعوا إليه ، وهو دين الإسلام ، لعباً ولهواً ، وذلك حيث سخروا به واستهزءوا به .

وقيل : إنهم اتخذوا عبادة الأصنام لعباً ولهواً .

وقيل : إن الكفار كانوا إذا سمعوا القرآن لعبوا ولهوا عند سماعه .

وقيل : إن الله جعل لكل قوم عيـــداً ، فاتخذ كل قوم دينهم ، يعنى عيدهم ، لعباً ولهواً يلعبون فيـه إلا المسلمين ، فإنهم اتخذوا عيدهم صلاة وتكبيراً ، وفعل الخير فيه ، مثل عيد الفطر وعيد النحر ويوم الجمعة .

« **وغرتهم الحياة الدنيا** » : يعنى أنهم اتخذوا دينهم لعباً ولهواً لأجل أنهم غرتهم الحياة الدنيا ، وغلب حبها على قلوبهم ، فأعرضوا عن دين الحق ، واتخذوا دينهم لعباً ولهواً ، ومعنى الآية : وذر يامحمد الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً ، واتركهم ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ، وهذا يقتضى الإعراض عنهم ثم نسخ ذلك الإعراض بآية السيف وهو قول قتادة والسدى .

وقيل : إنه خرج مخرج التهديد ، كقوله تعالى :

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ‹١›

وهذا قول مجاهد ، فعلى هذا تكون الآية محكمة .

وقيل : المراد بالإعراض عنهم ترك معاشرتهم ومخالطتهم لا ترك الإنذار والتخويف ، ويدل عليه قوله : « **وذكر به** » يعنى : وذكر بالقرآن وعظه به هؤلاء المشركين) ‹٢› .

وقال الإمام ابن كثير : « أى دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلاً ، فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم ، ولهذا قال :« **وذكر به** » أى وذكر الناس بالقرآن ، وحذرهم نقمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة » ‹٣› .

وقوله تعالى :« **أن تُبْسَلَ نفس بما كسبت** » فالإبسال الاستسلام للهلاك ، أى حتى لا تستسلم نفس للهلاك بسبب ظلمها وكفرها ، فقد وردت عدة أقوال في معنى « الإبسال » .

قال الإمام الخازن : (وأصل البسل في اللغة : التحريم وضم الشيء ومنعه .

فمعنى « **تبسل نفس بما كسبت** » : ترتهن وتحبس في جهنم ، وتحرم من الثواب بسبب ما كسبت من الآثام .

وقال ابن عباس : تبسل : تَهْلِكَ .

وقال قتادة : تحبس في جنهم .

---

١ ــ سورة المدثر : ١١ .

٢ ــ تفسير الخازن : (٢ / ١٢٠) .

تفسير ابن كثير : (٣ / ٤٤) .

وقال الضحاك : تحرق بالنار .

وقال ابن زيد تؤخذ يعنى بما كسبت .

وقيل : تفضح .

والمعنى : وذكرهم بالقرآن ومواعظة ، وعرفهم الشرائع لكى لا تَهلِك نفس ، وترتهن في جهنم بسبب الجنايات التي اكتسبت في الدنيا ، وتحرم الثواب في الآخرة) ‹١› .

أى تسلم إلى الهلاك فتيأس من الوصول إلى أسباب النجـــاة حيث إنها لم تؤمن بالله تعالى ، فترتب على ذلك العذاب الذى قاله أئمة التفسير .

كقوله تعالى :

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ ‹٢›

فليس لتلك النفس التي هلكت من قريب يلى أمرها أو شفيع يشفع لها .

كما قال الحق سبحانه وتعالى :

الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ
اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ
لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ
يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ‹٣›

---

١ ـ تفسير الخازن : (٢ : ١٢٠ ، ١٢١) .

٢ ـ سورة المدثر : ٣٨ ، ٣٩ .

٣ ـ سورة غافر : ١٧ ، ١٨ .

وكما قال عز من قائل :

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا
يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

‹١›

وكما قال سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ
أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ
وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾
‹٢›

وكما قال تعالى :

﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

‹٣›

فالحق سبحانه وتعالى لا يقبل إلا شفاعة من ارتضى وأذن له .

كما قال سبحانه وتعالى :
﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ ‹٤›
إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

---

١ ـ سورة البقرة : ٤٨ .

٢ ـ سورة البقرة : ٢٥٤ .

٣ ـ سورة المدثر : ٤٨ .

٤ ـ سورة الزمر : ٤٤ .

وكما قال عز من قائل :

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ
وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ

‹١›

وكما قال تعالى :

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ
إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ

‹٢›

وكما قال تعالى :

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ

‹٣›

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تبين وتوضح لنا أنه لا أحد يملك الشفاعة ، لا نبى مرسل ، ولا ولى مقرب ، إلا من بعد إذن الحق سبحانه وتعالى ورضاه عن الشافع والمشفوع له .

---

١ ـ سورة الأنبياء : ٢٨ .

٢ ـ سورة يونس : ٣ .

٣ ـ سورة السجدة : ٤ .

وقد ثبت أن الشفاعة العظمى لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيها قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ ‹١›

وثبت أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشفع للمؤمنين ، كما ثبت أن المؤمنين يشفع بعضهم لبعض مع الشروط التي ذكرناها .

فالحق سبحانه وتعالى يبين لنا في هذه الآية الكريمة ويرشدنا إلى أنه لا ينفع في الآخرة إلا الأعمال الصالحة التي يعملها الإنسان في حياته الدنيا ، فلا ينفع الشفعاء ولا الوسطاء إلا من أتى الله سبحانه وتعالى بقلب سليم خال من الكفر .

لذا قال الحق سبحانه وتعالى في الآية الكريمة :

« وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها » .

فالعدل معناه الفداء ، أى وإن تفتد هذه النفس المبسلة بكل فداء لا يقبل ذلك العدل ولا تلك الفدية ‹٢› .

أى : ولو بذلت كل مبذول ما قبل منها .

كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ ‹٣›

---

١ ـ سورة الإسراء : ٧٩ .

٢ ـ تفسير الخازن : (٢ / ١٢١) .

٣ ـ سورة آل عمران : ٩١ . انظر : تفسير ابن كثير (٢ / ٤٤) .

وكقوله عز من قائل :

﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ ﴾ ‹١›

فالكافر يتمنى أن يفدى نفسه بأى فداء ، ولكنه لا يقبل منه ، وليس له من قريب ولا ناصر ينصره ، ولا شفيع يشفع له فى ذلك اليوم ، فيتمنى أن يكون تراباً .

وكما قال تعالى :

﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾ ﴾ ‹٢›

قال ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية :

(أى يود الكافر يومئذ أن كان فى دار الدنيا تراباً ، ولم يكن خلق ولا خرج إلى الوجود ، وذلك حين عاين عذاب الله ، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سُطرت عليه بأيدى الملائكة السفرة الكرام البررة .

وقيل : إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التى كانت فى الدنيا ، فيفصل بينها بحكمه العدل الذى لا يجور ، حتى أنه ليقتص للشاة الجماء من القرناء ، فإذ افرغ من الحكم بينها قال لها : كونى تراباً فتصير تراباً ، فعند ذلك يقول الكافر : « **ياليتنى كنت تراباً** » أى كنت حيواناً فأرجع إلى التراب) ‹٣› .

---

١ ـ سورة المعارج : ١١ ـ ١٤ .

٢ ـ سورة النبأ : ٤٠ .

٣ ـ تفسير ابن كثير : (٧ / ٢٠٣) .

فقد أخرج الحاكم ‹١› بسنده عن أبي هريرة رضى الله عنه ـ في قوله عز وجل : « **أمم أمثالكم** » قال : يحشر الخلق كلهم يوم القيامة ، البهائم والدواب والطير وكل شيء ، فيبلغ من عدل الله أن يأخذ للجماء من القرناء ثم يقول : « **كوني تراباً** » فلذلك يقول الكافر : « **ياليتني كنت تراباً** » ‹٢› .

وقد سبق شرح هذا عند قوله تعالى :

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم
مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ

‹٣›

ثم ختم الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة ببيان جزائهم نتيجة سوء أعمالهم فقال عز من قائل :« **أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون** » .

---

١ ـ الحاكم : هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم النيسابوري الشافعي إمام أهل الحديث في عصره ، الناقد العلامة ، صاحب التصانيف طلب الحديث من الصغر باعتناء أبيه وخاله وسمع من نحو ألفي شيخ مولده سنة (٣٢١هـ) وتوفي سنة (٤٠٥هـ) .

تاريخ بغداد (٥ / ٤٧٣) الأنساب (٢ / ٣٧٠) : « البيِّع » . تبين كذب المفتري (٢٢٧) المنتظم لابن الجوزي (٧ / ٢٧٤) اللباب (١ / ١٩٨) وفيات الأعيان (٤ / ٢٨٠) تذكرة الحفاظ (٣ / ١٠٣٩) سير أعلام النبلاء (١٧ / ١٦٢) ميزان الاعتدال (٣ / ٦٠٨) النجوم الزاهرة (٤ / ٢٣٨) .

٢ ـ المستدرك على الصحيحين ـ كتاب التفسير (٢ / ٣١٦) .

وقال الحاكم : وهو صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

٣ ـ سورة الأنعام : ٣٨ .

فهؤلاء الكفار الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا ، وأسلموا أنفسهم إلى الهلاك والعذاب بسبب كفرهم بالله ، وما اكتسبوا من الأعمال السيئة ، فجازاهم الله بأن جعل شرابهم الماء المغلى ، وذلك ليذيقهم العذاب الأليم نتيجة لكفرهم وعدم إيمانهم بالله الواحد الأحد ‹١› .

وقال الشوكانى في تفسيره لهذه الآية : « **لهم شراب من حميم** » : (جواب سؤال مقدّر كأنه قيل : كيف حال هؤلاء ؟ فقيل : لهم شراب من حميم وعذاب أليم ، وهو الماء الحارّ ، ومثله قوله تعالى : هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ‹٢›

وهو هنا شراب يشربونه فيقطع أمعاءهم) ‹٣› .

وإن الحق سبحانه وتعالى يصور لنا حال هؤلاء الكفار وعذابهم في نار جهنم في آيات أخرى ، فيقول تعالى : هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ‹٤›

---

١ ـ انظر تفسير الخازن : (٢ / ١٢١) .

٢ ـ سورة الحج : ١٩ .

٣ ـ فتح القدير : (٢ / ١٢٩) .

٤ ـ سورة الحج : ١٩ ـ ٢٢ .

ويقول عز من قائل :

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ
مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا
﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟
لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ
أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

<١>

---

١ ــ سورة النبأ : ٢١ ــ ٣٠ .

ومعنى : « وكذبوا بآياتنا كذاباً » أى كذبوا تكذيباً شديداً . وهذا مبالغة في الكذب ، فهم كانوا معرضين إعراضاً حتى لم يك هناك ثقب إبرة في نفوسهم لقبول الحق .

* **بيان حالة الكافرين أثناء موتهم وحين رجوعهم إلى الله :**

يقول الحق سبحانه وتعالى :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى
اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ
مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ
وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ
تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ
وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ
كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ
وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ
لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

‹١›

معانى الكلمات :

« **ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً** » : الافتراء : الكذب على الله سبحانه وتعالى والاختلاق عليه ، وقد سبق ذكر معنى الافتراء ‹٢› .

« **غمرات الموت** » : جمع غمرة ، وهى شدائده وسكراته .

« **والملائكة باسطوا أيديهم** » : أى إليهم بالضرب والتعذيب .

« **أخرجوا أنفسكم** » : أى يقولون لهم : أخرجوا أنفسكم إلينا لنقبضها .

« **اليوم تجزون عذاب الهون** » : أى تنالون عذاب الهوان ، وهو المتضمن الشدة والإهانة .

---

١ ـ سورة الأنعام : ٩٣ ، ٩٤ .

٢ ـ عند تفسير الآية : ٢١ من سورة الأنعام (١ / ٣٢٨) .

« **بما كنتم تقولون على الله غير الحق** » : أى بدعوى النبوة والإيحاء كذباً .

« **وكنتم عن آياته تستكبرون** » : أى تتكبرون عن الإيمان بها .

« **ولقد جئتمونا فرادى** » : أى منفردين عن الأهل والمال والولد .

« **كما خلقناكم أول مرة** » : أى حفاة عراة غُرْلاً .

« **وتركتم ما خولناكم** » : أى ما أعطيناكم في الحياة الدنيا من الأموال والأولاد .

« **وراء ظهوركم** » : أى في الدنيا بغير اختياركم .

« **وضل عنكم ما كنتم تزعمون** » : أى ضاع وبطل وذهب ما كنتم تفترونه في الدنيا من شفاعتهم <١> .

المعنى الإجمالى للآيتين :

يخبر الحق سبحانه وتعالى في هاتين الآيتين الكريمتين أن أشد الناس ظلماً لنفسه هو الذى يختلق الكذب على الله ، ويدعى كذباً وبهتاناً أنه أوحى إليه بشىء من الشرائع ، وأنه سوف ينزل للناس مثل ما أنزل الله من القرآن والكتب السماوية .

ثم يبين الحق سبحانه وتعالى المصير النهائى لمن يفعل ذلك بقوله تعالى : « **ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت** » : أى يا من تتأتى منك الرؤية ، لو رأيت حالهم عند الاحتضار وهم في سكرات الموت وشدائده ، والملائكة الموكلون بقبض أرواحهم باسطو إيديهم إليهم بالضرب والتعذيب ، قائلين لهم : أخرجوا أنفسكم ، اليوم تجزون العذاب الأليم المهين ، وذلك جزاء ظلمكم لأنفسكم وبسبب ما كنتم تفترون على الله غير الحق ، وكنتم عن آياته تستكبرون ، ولا تؤمنون بها .

---

١ ـ تفسير الجلالين : (١١٤) بتصرف .

ثم يبين الحق سبحانه وتعالى أنهم جاءوا إلى الله ورجعوا إليه ، منفردين عن الأهل والمال والولد كما خلقهم الله تعالى أول مرة ، تاركين ما منحهم وأعطاهم في الحياة الدنيا من الأموال والأولاد والأهل ، وليس معهم شفعاؤهم الذين زعموا أنهم شركاء لله ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

لقد تقطع بينهم ما كان من صلات وعلاقات بهؤلاء الشفعاء وتاهت عنهم الآلهة المزعومة التي كانوا يزعمون أنها شركاء لله ، وأنها تضر وتنفع وتشفع لهم يوم القيامة .

أين هى في هذا الوقت ؟ .

وفي هذا توبيخ لهم على اتخاذهم الأنداد شفعاء من دون الله .

التوضيح للآيتين :

في هاتين الآيتين الكريمتين يبين الله تعالى حكم الكذب عليه جل ثناؤه وعاقبة مرتكبه .

قال الإمام الخازن في تفسيره لهذه الآية الكريمة :

« **ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً** » : (أى ومن أعظم خطأ ، وأجهل فعلاً ممن أختلق على الله كذباً ، فزعم أن الله بعثه نبياً وهو في زعمه كذاب مبطل ؟) (١) .

وقال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية أيضاً : (أى لا أحد اظلم ممن كذب على الله فجعل له شركاء أو ولداً ، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يرسله ، ولهذا قال تعالى : « **أو قال أوحى إلىَّ ولم يوح إليه شىء** »)(٢) .

---

١ ـ تفسير الخازن : (٢ / ١٣٢) .

٢ ـ تفسير ابن كثير : (٢ / ٦٦) .

وجاء في تفسير الخازن أيضاً لهذه الآية :

قال عكرمة <١> وقتادة : نزلت هذه الآية في مُسيلمة الكذاب وغيره ممن ادعى النبوة أو يدعيها في أى زمان كان <٢> .

فقد أخرج الشيخان بسنديهما : عن همَّام <٣> أنه سمع أبا هريرة رضى الله عنه ، يقول : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « بينا أنا نائم أتيت بخزائن الأرض ، فوُضع في كَفَّيَّ سِواران من ذهب ، فَكَبُرا عليَّ ، فأُوحي إليَّ أن أنفخهما ، فنفختُهما فذهبا ، فَأَوَّلْتُهما الكذابين ، اللذين أنا بينهما ، صاحب صنعاء ، وصاحب اليمامة » <٤> .

---

١ ـ هو عكرمة بن عبد الله البربرى ، مولى ابن عباس . تابعى ثقة ثبت عالم بالتفسير ، وكان من بحور العلم . مات سنة ١٠٧ هـ بالمدينة .

انظر : الثقات للعجلي (٣٣٩) والثقات لابن حبان (٥ / ٢٣٠) والتذكرة (١ / ٩٥) والميزان (٣ / ٩٣) والعبر (١ / ١٠٠) وهدى السارى (٤٢٥) والتهذيب (٧ / ٢٦٣) والتقريب (٢ / ٣٠) .

٢ ـ تفسير الخازن (٢ / ١٣٢) وانظر كتاب التسهيل في علوم التنزيل لابن جزى الكلبى (٢ / ١٦) .

٣ ـ هو همام بن مُنَبِّه بن كامل بن شيخ اليمانى ، أبو عقبة الصنعانى ، أخو وهب ، كان يغزو ، وكان يشترى الكتب لأخيه وهب . فجالس أبا هريرة فسمع منه أحاديث وهى نحو من أربعين ومائة حديث بإسناد واحد . مات سنة ١٣٢هـ .

انظر : سير أعلام النبلاء (٥ / ٣١١) وطبقات خليفة (٢٨٧) والعبر (١ / ١٣٤) والجرح والتعديل (٩ / ١٠٧) والتهذيب (١١ / ٦٧) والتقريب (٢ / ٣٢١) .

٤ ـ صحيح البخارى (كتاب المغازى ، باب وفد بنى حنيفة ... الخ ، ٥ : ٢١٦) وصحيح مسلم (كتاب الرؤيا ، باب رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم ، ٤ : ١٧٨١) واللفظ للبخارى .

والمراد بصاحب صنعاء : الأسود العَنْسى : هو عيهلة بن كعب بن عوف العنسى المذحجى ، ارتدّ في أيام النبى صلى الله عليه وسلم وادّعى النبوة ، وأرى قومه أعاجيب استهواهم بها فاتبعته مذحج . وتغلّب على نجران وصنعاء واتسع سلطانه ، وجاءت كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من بقى على الإسلام في اليمن بالتحريض على قتله فاغتاله أحدهم سنة ١١هـ في خبر طويل أورده ابن الأثير .

انظر : تاريخ الطبرى (٣ / ٢٢٧ ـ ٢٤٠) دار المعارف ، والكامل لابن الأثير (٢ / ٣٣٦) وفتوح البلدان للبلاذرى (١١١) والأعلام (٥ / ١١١) .

وقوله تعالى : « **ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله** » .

جاء في سبب نزول هذه الآية :

أنها نزلت في عبد الله بن سعد بن أبى سرح <١> ، كان قد تكلم بالإسلام ، فدعاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم يكتب له شيئاً ، فلما نزلت الآية التي في المؤمنين ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ أملاها عليه ، فلما انتهى إلى قوله : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ <٢> .

= والمراد بصاحب اليمامة : مسيلمة الكذاب : هو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفى الوائلى ، أبو ثمامة ، متنبىء من المعمرين ، ولد ونشأ في « الجبيلة » بقرب « العيينة » بوادى حنيفة في نجد وتوفى النبى صلى الله عليه وسلم قبل القضاء على فتنته ، فانتدب له أبو بكر أعظم قواده خالد ابن الوليد على رأس جيش قوى ، وانتهت المعركة بظفر خالد ومقتل مسيلمة سنة ١٢هـ .

انظر : سيرة ابن هشام (٣ / ٧٤) والروض الأنف (٢ / ٣٤٠) والكامل لابن الأثير (٢ / ١٣٧) وفتوح البلدان للبلاذرى (٩٤) والشذرات (١ / ٢٣) الأعلام (٧ / ٢٢٦) .

وهناك امرأة ظهرت وادعت النبوة : وهى سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية ، مُتَنَبِّئة مشهورة ، نبغت في عهد الردة ، وادّعت النبوة ، فتبعها جمع من عشيرتها ، فأقبلت بهم من الجزيرة تريد غزو أبى بكر ، فنزلت باليمامة ، فبلغ خبرها مسيلمة الكذاب ، فخافها وأقبل عليها في جماعة من قومه وتزوّج بها ، فأقامت معه قليلاً ، وأدركت صعوبة الإقدام على قتال المسلمين ، فانصرفت راجعة إلى أخوالها بالجزيرة ، ثم بلغها مقتل مسيلمة فأسلمت وهاجرت إلى البصرة وتوفيت فيها سنة ٥٥هـ .

انظر : تاريخ الطبرى (٣ / ٢٦٧ ـ ٢٧٥) دار المعارف ، والأعلام للزركلى (٣ / ٧٨) .

١ ـ هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح القرشى العامرى ، فاتح أفريقية ، من أبطال الصحابة ، وأسلم قبل فتح مكة ، وكان من كتاب الوحى فأزله الشيطان فلحق بالكفار ، فأمر به النبى صلى الله عليه وسلم ان يقتل فاستجار له عثمان ، وكان اخاه من الرضاعة ، وولى مصر سنة ٢٥هـ بعد عمرو بن العاص فاستمّر نحو (١٢) عاماً ، دانت له أفريقية كلها ، وعاد إلى المشرق ، واعتزل الحرب بين على ومعاوية بصفين ، ومات بعسقلان فجأة وهو قائم يصلى سنة ٣٧هـ .

انظر : طبقات ابن سعد (٧ / ٤٩٦) وأسد الغابة (٣ / ٢٥٩) والإصابة (٢ / ٣١٦) وتاريخ دمشق لأبى زرعة (١ / ١٨٣) والنجوم الزاهرة (١ / ٧٩) وسير أعلام النبلاء (٣ / ٣٣) وحسن المحاضرة (١ / ٥٧٩) .

٢ ـ سورة المؤمنون : ١٢ .

عجب عبد الله في تفصيل خلق الإنسان ، فقال : تبارك الله أحسن الخالقين ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « هكـذا أنزلـت عليَّ » فشك عبد الله حينئذ وقال : لئن كان محمد صادقاً لقد أوحى إليَّ كما أوحى إليه ، ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال ، وذلك قوله : ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وارتد عن الإسلام ، وهذا قول ابن عباس في رواية الكلبي (١) .

وقال جلال الدين السيوطي (٢) أيضاً : « نزلت هذه الآية في عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، كان يكتب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فيملي عليه « عزيز حكيم » فيكتب : « غفور رحيم » ثم يقرأ عليه فيقول : نعم سواء « فيما زعم ابن أبي السرح » فرجع عن الإسلام ولحق بقريش .

وأخرج عن السدى نحوه وزاد قال : إن كان محمد يوحى إليه فقد أوحى إليَّ ، وإن كان الله ينزله فقد أنزلت مثل ما أنزل الله ، قال محمد : « سميعاً عليماً » ، فقلت أنا : « عليماً حكيماً » (٣) .

---

١ ـ اسباب النزول للواحدى (١٤٨) والآية من سورة الأنعام : ٩٣ .

٢ ـ هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيرى ، جلال الدين السيوطى ، إمام حافظ مؤرخ أديب ، له نحو ٦٠٠ مصنف .

نشأ في القاهرة يتيماً ، واعتزل الناس بعد الأربعين ، وخلا بنفسه في روضة المقياس على النيل ، فألّف أكثر كتبه ، وكان يردّ هدايا الأغنياء والسلاطين (ت ٩١١هـ) .

انظر : الكواكب السائرة (١ / ٢٢٦) والشذرات (٨ / ٥١) والضوء اللامع (٤ / ٦٥) وحسن المحاضرة (١ / ١٨٨) والأعلام (٣ / ٣٠١) .

٣ ـ لباب النقول في أسباب النزول (١٠٣) .

قال الخازن في تفسيره : (ثم رجع عبد الله بن أبى سرح بعد ذلك إلى الإسلام فأسلم قبل فتح مكة ، والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نازل بمر الظهران .

وقال ابن عباس : نزل قوله : « **ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله** » في المستهزئين وهو جواب لقولهم : لو نشاء لقلنا مثل هذا .

قال العلماء : وقد دخل في حكم هذه الآية كل من افترى على الله كذباً في ذلك الزمان وبعده ، لأنه لا يمنع خصوص السبب من عموم الحكم) (١) .

فالحكم عام في كل من زعم وافترى الكذب بأنه أوحى إليه أو من قال : سأنزل مثل ما أنزل الله .

ثم انتقلت الآيات الكريمة بعد ذلك إلى بيان ما ينتظر هؤلاء المفترين على الله الكذب من الوعيد والعذاب الأليم عند موتهم .

فقال عز من قائل :

« **ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو إيديهم أخرجوا أنفكسم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن أياته تستكبرون** » .

أى لو ترى يامحمد ، أو أيها الناظر ، هؤلاء الظالمين إذا نزل بهم الموت لرأيت أمراً عظيماً ، و « **غمرات الموت** » شدائده وسكراته وكرباته (٢) .

١ ـ لباب التأويل في معانى التنزيل (٢ / ١٣٢) .

٢ ـ المرجع السابق .

كقوله تعالى :

وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ‹١›

وقوله تعالى :

فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾
وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ‹٢›

وقوله : « **والملائكة باسطو أيديهم** » : أى بالعذاب يضربون وجوههم وأدبارهم ، قاله الضحاك وأبو صالح ‹٣› .

كقوله تعالى :

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ
وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ
بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾
‹٤›

ولهذا قال : « **والملائكة باسطو أيديهم** » أى بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم ، ولهذا يقولون لهم : « **أخرجوا أنفسكم** » .

---

١ ـ سورة ق : ١٩ .

٢ ـ سورة الواقعة : ٨٣ ـ ٨٥ .

٣ ـ أبو صالح : هو ذكوان أبو صالح السمّن الزيات المدنى ، ثقة ثبت من أجل الناس وأوثقهم ، عن الأعمش : كان أبو صالح مؤذناً ، فأبطأ الإمام ، فأمّنا فكان لا يكاد يجيزها من الرقة والبكاء . مات سنة إحدى ومائة .

انظر : طبقات ابن سعد (٥ / ٣٠١) وسير أعلام النبلاء (٥ / ٣٦) وتذكرة الحفاظ (١ / ٨٩) العبر (١ / ٩١) والتهذيب (٣ / ٢١٩) .

٤ ـ سورة الأنفال : ٥٠ ، ٥١ .

وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال ، والأغلال والسلاسل ، والجحيم والحميم ، وغضب الرحمن الرحيم ، فتتفرق روحه في جسده ، وتعصى وتأبى الخروج ، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم :

« أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون » .

أى اليوم تهانون غاية الإهانة ، كما كنتم تكذبون على الله وتستكبرون عن اتباع آياته والانقياد لرسله ‹١› .

ويرد سؤال في هذه الآية الكريمة ، وهو :

أنه لا قدرة لأحد على إخراج روحه من بدنه ، فما فائدة قوله تعالى : **« أخرجوا أنفسكم »** ؟ .

الجواب عن ذلك أن معناه : يقولون لهم : أخرجوا أنفسكم كرهاً ، لأن المؤمن يحب لقاء الله بخلاف الكافر .

وقيل : معناه : يقولون لهم : خلصوا أنفسكم من هذا العذاب إن قدرتم على ذلك .

فيكون هذا القول توبيخاً لهم ، لأنهم لا يقدرون على خلاص أنفسهم من العذاب في ذلك الوقت ‹٢› .

---

١ ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير : (٢ / ٦٦) .
٢ ـ تفسير الخازن : (٢ / ١٣٣) .

وقال القرطبى أيضاً في تفسيره لهذه الآية : « **أخرجوا أنفسكم** » : (أى خلصوها من العذاب إن أمكنكم ، وهو توبيخ . وقيل : أخرجوها كرهاً ؛ لأن روح المؤمن تنشط للخروج للقاء ربه ، وروح الكافر تنتزع انتزاعاً شديداً ، ويقال : أيتها النفس الخبيثة أخرجى ساخطة مسخوطاً عليك إلى عذاب الله وهوانه) ‹١› .

وقال القرطبى أيضاً : « وقيل : هو بمنزلة قول القائل لمن يعذبه لأذيقنك العذاب ، ولأخرجن نفسك ؛ وذلك لأنهم لا يخرجون أنفسهم بل يقبضها ملك الموت وأعوانه . وقيل : يقال هذا للكفار وهم في النار .

والجواب محذوف ، أى جواب لو ، لعظم الأمر ، أى ولو رأيت الظالمين في هذه الحال لرأيت عذاباً عظيماً » ‹٢› .

وأخرج الشيخان بسنديهما عن أنس رضى الله عنه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « العبد إذا وضع في قبره ، وتولى وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نِعَالِهِمْ ، أتاه ملكان فأقعداه فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال : انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيراهما جميعاً ، وأما الكافر أو المنافق فيقول : لا أدرى ، كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال :

---

١ ـ الجامع لأحكام القرآن : (٧ / ٤٢) .

٢ ـ الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (٧ / ٤٢) .

لا دريتَ ولا تَلَيْتَ ، ثم يُضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أُذُنيْه ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلاّ الثقلين » <١> .

وقوله تعالى : « **اليوم تجزون عذاب الهون** » .

« الهُون والهَوان : بمعنى واحد ، وهو العذاب الذى تصيرون به في إهانة وذلة بعد ما كنتم فيه من الكِبْر والتعاظم .

وأراد بـ « اليوم » الذى تُقبض فيه أرواحهم ، وهو الوقت الذى يعذَّبون فيه ، وهو بداية عذاب القبر .

وقوله تعالى : « **بما كنتم تقولون على الله غير الحق** » أى ذلك العذاب بسبب قولكم هذا ، من إنكار إنزال اللّه كتبَه على رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ والإشراك به .

« **وكنتم عن آياته تستكبرون** » أى عن التصديق لها والعمل بها ، فكان ما جُوزِيتم به من عذاب الهُون جزاءً لكم <٢> .

كما قال الحق سبحانه وتعالى : إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ <٣>

---

١ ـ صحيح البخارى (كتاب الجنائز ، باب الميت يسمع خفق النعال ، ٢ / ١١٣) .
وصحيح مسلم (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وأثبات عذاب القبر والتعوذ منه ، ٤ / ٢٢٠٠ ، ٢٢٠١) واللفظ للبخارى .

٢ ـ فتح القدير : (٢ / ١٤٠) .

٣ ـ سورة النبأ : ٢١ ـ ٢٨ .

ثم يبين الحـق سبحانـــه وتعالى بعد ذلـــك ما يُقال لهم في يوم القيامة ، فقال عز من قائل :

« ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مره وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون » .

جاء في سبب نزول هذه الآية :

أخرج ابن جرير وغيره عن عكرمة قال : قال النضر بن الحارث : ‹١›

سوف تشفع لى « اللاَّت والعُزَّى » فنزلت هذه الآية .

« **ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة** » إلى قوله « **شركاء** » ‹٢› .

أى جئتمنـــا للحســـاب والجزاء منفردين عن الأموال والأولاد وما آثرتموه من متاع الحياة الدنيا .

أو عن الأعوان والأوثان التى زعمتم أنها شفعاؤكم ‹٣› .

---

١ ـ النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف من شجعان قريش ووجهائها ، وهو ابن خالة النبى صلى الله عليه وسلم أسر يوم بدر ، وكان صاحب لواء المشركين ، وقُتِل بالأثيل قرب المدينة بعد انصرافهم من الوقعة .

الكامل لابن الأثير (٢ / ٢٦) ومعجم البلدان (١ / ١١٢) والبيان والتبيين ـ تحقيـــق عبد السلام هارون (٤ / ٤٣) ونهاية الأرب للنويرى (١٦ / ٢١٩) والأعلام (٨ / ٣٣) .

٢ ـ لباب النقول في أسباب النزول : (١٠٣) ، وانظر : تفسير الطبرى (١١ / ٥٤٧) .

٣ ـ تفسير القاسمى ، محاسن التأويل (٦ / ٢٤١٨) .

قال الخازن فى تفسيره لهذه الآية الكريمة : « وهذا خبر من الله عز وجل عن حال الكافرين يوم القيامة ، وكيف يُحشرون إليه ، وما ذا يقول لهم فى ذلك اليوم .

وفى قوله للكافرين : « **ولقد جئتمونا فرادى** » تقريع وتوبيخ لهم ، لأنهم صَرفوا همَّهم فى الدنيا إلى تحصيل المال والولد والجاه ، وأفْنَوْا أعمارهم فى عبادة الأصنام ، فلم يُغْنِ عنهم كل ذلك شيئاً يوم القيامة ، فبَقُوا فُرادَى عن كل ما حصَّلوه فى الدنيا » ‹١› .

وقال ابن كثير : « أى يقال لهم يوم معادهم هذا .

كما قال تعالى :

وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ‹٢›

أى كما بدأناكم أعدناكم ، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدون ، فهذا يوم البعث ‹٣› .

وقال الخازن أيضاً : « أى جئتمونا حفاة عراة غُرْلاً ‹٤› يعنى « قُلْفًا » كما ولدتهم أمهاتُهم أول مرة فى الدنيا ، لا شىء عليهم ولا معهم » ‹٥› .

---

١ ـ تفسير الخازن (٢ / ١٣٣) .

٢ ـ سورة الكهف : ٤٨ .

٣ ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣ / ٦٧) .

٤ ـ وقوله : « غرلا » معناه غير مختونين ، جمع أغرل ، وهو الذى لم يختن وبقيت معه غرلته ، وهى قلفته ، وهي الجلدة التى تقطع في الختان ، والمقصود أنهم يحشرون كما خلقوا ، لا شىء معهم ، ولا يفقد منهم شىء ، حتى الغُرله تكون معهم .

انظر شرح النووى على صحيح مسلم (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ، ١٧ / ١٩٣) والنهاية في غريب الحديث (٣ / ٣٦٢) .

٥ ـ تفسير الخازن (٢ / ١٣٣) .

وفى الحديث الشريف الذى أخرجـــه الشيخان بسنديهما عن ابن عباس رضى اللّه عنهما عن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال : « إنكم مَحْشورون حفاةً عُراةً غُرْلاً ، ثم قرأ :

كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ‹١›

وأول من يكْسى يوم القيامة إبراهيم ، وإن أناساً من أصحابى يُؤخذ بهم ذاتَ الشّمال فأقول : أصحابى أصحابى ، فيقول : إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتَهم ، فأقول كما قال العبد الصالح :

وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ إلى قوله : ٱلْحَكِيمُ ‹٢›

وأخرجا أيضاً بسنديهما عن عائشة رضى اللّه عنها قالت :

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « تُحشرون حفاةً عُراةً غُرْلاً » .

قالت عائشـــة : فقلت : يا رسول اللّه ، الرجالُ والنساءُ ينظر بعضهم إلى بعض ، فقال : الأمرُ أشدُّ من أن يهمهم ذاك » . ‹٣›

وروى الطبرى بسنده أيضاً عن عائشـــة رضى اللّه عنها ، أنها قرأت قول اللّه « **ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة** » .

فقالت : واسوأتاه ، إن الرجال والنســـاء يُحشـــرون جميعاً يَنظر بعضُهم إلى سوأة بعض ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :

لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ لا ينظر الرجال إلى النساء ، ولا النساء إلى الرجال شُغل بعضهم عن بعض » ‹٤›

---

١ ـ سورة الأنبياء : ١٠٤ .

٢ ـ صحيح البخارى (كتاب بدء الخلق ، باب قول الله تعالى : واتخذ الله إبراهيم خليلاً ، ٤ / ١٦٩) .
و صحيح مسلم (كتــاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب فنـــاء الدنيا وبيـــان الحشر يوم القيامة ، ٤ / ٢١٩٤ ، ٢١٩٥) . اللفظ للبخارى . سورة المائدة : ١١٧ ، ١١٨ .

٣ ـ صحيح البخارى (كتاب الرقاق ، باب كيف الحشر ، ٨ / ١٣٦) .
وصحيح مسلم (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب فناء الدنيا وبيـــان الحشـــر يوم القيامـــة ، ٤ / ٢١٩٤) واللفظ للبخارى .

٤ ـ تفسير الطبرى (١١ / ٥٤٤) والأثر رقمه (١٣٥٧٠) . والآية من سورة عبس : ٣٧ .

ثم تابع الحق سبحانه وتعالى وصف حالهم يوم القيامة ، فقال عز من قائل :

« **وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم** » .

أى تركتم الذى أعطيناكم و ملّكناكم من الأموال والأولاد والخَدمَ والخَوَل ‹١› وهو ما أعطاه اللّٰه للإنسان من متاع الدنيا .

ومعنى قوله : « **وراء ظهوركم** » : أى تركـــتم ذلك خلفكم لم تأتونا بشىء منه ، ولا انتفعتم به بوجه من الوجوه ‹٢› .

وقد جاء فى حديث المصطـفى صلى اللّٰه عليه وسلم ما يبين ويوضح ذلك : فعن أبى هريرة رضى اللّٰه عنه أن رســول اللّٰه صلـــى اللّٰه عليه وسلم قال : « يقول العبد مَالى،مالى، إنما له من ماله ثلاثٌ :ما أكل فأفنى، أو لَبِس فأبلى ، أو أعْطَى فاقْتَنَى ، وما ســوى ذلك فهـــو ذاهـــب وتاركُه للنـــاس » . ‹٣›
وعن عبد اللّٰه بن أبـــى بكر ‹٤› قال : سمعت أنس بن مالك يقول : قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم : « يتبع الميتَ ثلاثةٌ ، فيرجع اثنان ويبقىً واحد ، يَتبعه أهلُه وماله وعمله ، فيرجع أهلُه وماله ، ويبقى عمله » ‹٥› .

---

١ ـ تفسير الخازن (٢ / ١٣٣) .

٢ ـ فتح القدير (٢ / ١٤٠) ، وانظر : تفسير الطبري (١١ / ٥٤٣) .

٣ ـ صحيح مسلم (كتاب الزهد والرقائق ، ٤ / ٢٢٧٣) .

وقوله : « أو أعطى فاقْتَنَى » هكذا في معظم النسخ لمعظم الرواة : « فاقْتَنَى » ومعناها : ادَّخر لآخرته ، أى أدخر ثوابه ، وفى بعضها : « فأقْنَى » بحذف التاء ، أى أرضى .

٤ ـ عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى ، أبو محمد المدنى القاضى . ثقة ثبت . قال ابن سعد : كان ثقة كثير الحديث عالماً . وقال ابن عبد البر : كان من أهل العلم ، ثقة فقيها محدثاً مأمونا حافظاً وهو حجة فيما نقل وحمل ، توفيى سنة خمس وثلاثين ومائة ، وهو ابن سبعين سنة ، وليس له عقب .

انظر :الجرح والتعديل(٥ / ١٧)والتهذيب (٥ / ١٦٤)والعبر (١ / ١٤٠)والتقريب (١ / ٤٠٥) .

٥ ـ صحيح البخارى (كتاب الرقاق ، باب سكرات الموت ، ٨ / ١٣٤) .

وصحيح مسلم (كتاب الزهد والرقائق ، ٤ / ٢٢٧٣) .

فلا ينفع فى ذلك اليوم إلا ما عمله الإنسان فى الحياة الدنيا من الأعمال الصالحة . وفى الحديث الشريف الذى أخرجه الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة :إلا من صدقة جارية .أو علمٍ ينتفع به ، أو ولدٍ صالح يدعو له » ‹١› .

فالإنسان لا ينفعه إلاعملُه الذى عمله فى حياته ، فلا يأخذ معه أيَّ شىء كان ، ولا ينفعه الشفعاءُ والشركاء .

قال تعالى :

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ ‹٢›

ثم يتابع الحق سبحانه وتعالى بيان أحوالهم فى يوم القيامة ، فيقول عز من قائل :

« وما نرى معكم شفعاكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون » .

---

١ ـ صحيح مسلم (كتاب الوصية ، باب وصول ثواب الصدقة إلى الميت ، ٣ / ١٢٥٥) .

وقوله : « إذا مات الانسان انقطع عمله » قال العلماء : معنى الحديث أن عمل الميت ينقطع بموتة ، وينقطع تجدد الثواب له ، إلا من هذه الأشياء الثلاثة ، لكونه كان سببها ، فإن الولد من كسبه ، وكذلك العلم الذى خلفه من تعليم أو تصنيف ، وكذلك الصدقة الجارية ، وهى الوقف .

شرح النووى على صحيح مسلم (كتاب الوصية ، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ، ١١ / ٨٥) .

٢ ـ سورة الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ .

قال ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية :

(وقــوله : « **وما نرى معكم شفعاكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء** » تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا فى الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان ظَانّين أنها تنفعهم في مَعاشهم ومَعادهم ، إن كان ثَمَّ معاد ، فإذا كان يومُ القيامة تقطَّعت بهم الأسباب ، وانزاح الضلال ، وضل عنهم ما كانو يفترون ، ويناديهم الربّ جل جلاله على رءوس الخلائق :

﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ ﴿٦٢﴾ ‹١›

ويقال لهم :

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾
مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ ‹٢›

ولهذا قال هاهنا :

﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ﴾ ‹٣›

أى فى العبادة لهم) ‹٤› .

---

١ ـ سورة القصص : ٦٢ .
٢ ـ سورة الشعراء : ٩٢ ، ٩٣ .
٣ ـ سورة الأنعام : ٩٤ .
٤ ـ تفسير ابن كثير (٢ / ٦٧) .

وقال الطبرى أيضاً : (يقول تعالى ذكره لهؤلاء العادلين بربهم الأندادَ يوم القيامة : ما نرى معكم شفعاءكم الذين كنتم فى الدنيا تزعمون أنهم يَشفعون لكم عند ربكم يوم القيامة .

وقد ذكر أن هذه الآية نزلت فى النَّضْر بن الحارث ، لقيله :

إن اللاتَ والعُزَّى يَشفعان له عند اللَّه يوم القيامة .

وقيل : إن ذلك كان قولَ كافة عَبَدة الأوثان .

وعن السُّدِّى : أما قوله : « **وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء** » فإن المشركين كانوا يزعمون أنهم كانوا يعبدون الآلهة ، لأنهم شفعاء يشفعون لهم عند اللَّه ، وأن هذه الآلهة شركاء للَّه .

وعن عِكْرمة قال : النضر بن الحارث : « سوف تشفع لى اللاتُ والعُزىٌ » فنزلت هذه الآية « **ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة** » إلى قوله : « **شركاء** ») ‹١› .

ثم قال الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : « **لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون** » قُرِىء « بَيْنكم » بالفتح والضم ، والقراءتان صحيحتان ، والمعنى واحد ، أى إن الصِّلات التى كانت تجمع بينهم فى الدنيا انتهت ، ولم يبقَ منها شىء فى الآخرة ، وهذا قريب من قوله تعالى :

وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم
بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ‹٢›

١ ـ تفسير الطبرى : (١١ / ٥٤٧) .
٢ ـ سورة العنكبوت : ٢٥ .

وكقوله تعالى :

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١)

قال الطبرى فى تفسيره لهذه الآية : (يقول تعالى ذكره ، مخبراً عن قيله يوم القيامة لهؤلاء المشركين به الأنداد :

« **لقد تقطع بينكم** » يعنى تواصلهم الذى كان بينهم فى الدنيا ، ذهب ذلك اليوم ، فلا تواصل بينهم ولا تَوَادٌ ولا تناصر ، وقد كانوا فى الدنيا يتواصلون ويتناصرون ، فَاضْمَحَلَّ ذلك كله فى الآخرة ، فلا أحدَ منهم ينصر صاحبه ، ولا يواصله .

فعن مجاهد : « **لقد تقطَّع بينُكم** » قال تواصلُهم في الدنيا .

وعن قتادة : « **لقد تقطع بينكم** » وَصْلُكم .

وعنه أيضاً : قال ما كان بينكم من الو صل .

وعن ابن عبـــاس : « **لقد تقطـع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون** » يعنى الأرحام والمنازل .

وعن السدى : « **لقد تقطع بينكم** » يقول ما بينكم .

١ ـ سورة الزخرف : ٦٧ .

وقال أبوبكر بن عياش ‹١› : « **لقد تقطع بينكم** » التواصل فى الدنيا)‹٢›.

وقوله : « **وضل عنكم ما كنتم تزعمون** » : أى ذهب عنكم ما زعمتم من رجاء الأصنام والأنداد .

كقوله تعالى :

إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ
وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ
لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ
أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

‹٣›

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى تبين لنا حقيقة هؤلاء المفترين على الله جل ثناؤه الكذبَ فى اتخاذهم الآلهةَ المزعومةَ التى لا تملك لهم نفعاً ، ولا تكشف عنهم ضراً .

---

١ ـ أبو بكر بن عياش بن سالم الأسدى الكوفى ، ثقة عابد مقرىء إلا أنه لما كبر ساء حفظه وكتابه صحيح . قال ابن حبان : الصواب في أمره مجانبة ما علم أنه أخطأ فيه ، والاحتجاج بما يرويه ، سواء وافق الثقات أو خالفهم ، مات سنة ١٩٣هـ وقد قارب المائة .

الثقات للعجلى (٤٩٢) والثقات لابن حبان (٧ / ٦٦٨) وتاريخ بغداد (١٤ / ٣٧١) وسير أعلام النبلاء (٨ / ٤٩٥) والتذكرة (١ / ٢٦٥) ومعرفة القراء الكبار (١ / ١١٠) .

٢ ـ تفسير الطبرى (١١ / ٥٤٨ ، ٥٤٩) .

٣ ـ سورة البقرة : ١٦٦ ، ١٦٧ ، وانظر : تفسير ابن كثير : (٢ / ٦٧ ، ٦٨) .

* صور متعددة لحال المؤمنين والكافرين وبيان حال كل منهم وما ينتهى إليه أمرهم .

يقول الحق سبحانه وتعالى فى ذلك :

فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ
أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ
فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا
ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ
وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا
يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم
مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ
أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ
رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا
بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ
رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ
يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا
وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ
أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾
وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا
يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ
أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا
تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ
ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (١)

---

١ ـ سورة الأنعام : ١٢٥ ـ ١٣٥ .

معانى الكلمات :

« **فمن يُرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** » .

« يشرح » : أى يوسع ، وانشرح صدره : أى اتسع ، وذلك بأن يقذف في قلبه نوراً فينفسحَ له ويقبلَه .

« **ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً** » .

« ضيقاً » : أى عن قبول الإسلام .

« حرجاً » : أى شديد الضيق .

« **كأنما يَصَّعَّدُ في السماء** » : بمعنى يَصْعد ، شبهه في ضيق صدره كالذى يزاول ما لا يقدر عليه ، وذلك إذا كلف الإيمان لشدته عليه .

« **كذلك يجعل الله الرجس** » : الشىء القذر ، أو العذاب ، أو تسليط الشيطان <٢> .

« **لهم دار السلام عند ربهم** » : أى دار السلامة من المكاره وهى الجنة ، لكونها في مقام القرب .

« **وهو وليهم بما كانوا يعملون** » : أى يتولاهم بمحبته ، ويجعلهم في أمانة ، بسبب أعمالهم الصالحة .

« **ويوم نحشرهم جميعاً** » : أى الجن وأولياءهم من الإنس ، الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ، ويعوذون بهم ويطيعونهم ، ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا .

---

١ ـ تفسير الجلالين : (١١٨) .

« **وقال أولياؤهم من الإنس** » : أى الذين أطاعوهم وتولوهم <١> .

« **ربنا استمتع بعضنا ببعض** » : أى انتفع الإنس بتزيين الجن لهم الشهوات ، والجن بطاعة الإنس لهم .

« **وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا** » : وهو يوم القيامة ، وهذا تحسر منهم .

« **قال النار مثواكم** » : أى قال تعالى لهم على لسان الملائكة : النار مثواكم .

« **إن ربك حكيم عليم** » « حكيم » : أى في صنعه ، « عليم » بخلقه ، فيجازى كُلاً على عمله <٢> .

« **وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً** » : أى كما متَّعنا عصاة الإنس والجن بعضهم ببعض ، نسلط ونؤمر بعضهم على بعض .

« **بما كانوا يكسبون** » : أى بما كانوا يكسبون في المعاصى ، والمعنى : كما متعنا الإنس والجن بعضهم ببعض ، فنسلط بعض الظالمين على بعض ، بسبب كسبهم من المعاصى ، فيؤخذ الظالم بالظالم .

« **يقصون عليكم أياتى** » : القص : معناه : الحديث ، أى يحدثونكم بآياتى على وجه البيان .

« **وينذرونكم لقاء يومكم هذا** » : أى يخوفونكم يوم القيامة ، والمعنى : يحذرونكم من مخالفة الله التي توجب الخوف يوم القيامة .. <٣> .

« قالوا » : أى الجن والإنس .

---

١ ـ انظر : محاسن التأويل للقاسمي (٦ / ٢٤٩٨ ، ٢٤٩٩) .

٢ ـ انظر : تفسير الجلالين : (١١٨) .

٣ ـ انظر : حاشية الصاوى على تفسير الجلالين : (٢ / ٤٧) .

« **شهدنا على أنفسنا** » : أى أقررنا بإتيان الرسل وإنذارهم وبتكذيب دعوتهم <١> .

« **وغرتهم الحياة الدنيا** » : بزينتها ونعيمها الزائل .

« **وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين** » : أى اعترفوا بكفرهم .

« **ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون** » : أى أن اللَّه تعالى لا يهلك ولا يعذب أحداً إلا بعد إرسال الرسل إليهم .

« **ولكل درجات مما عملوا** » : أى من الجن والإنس ، أى لكل عامل بطاعة درجات في الثواب ، ولكل عامل بمعصية دركات في العقاب .

« **وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ** » : أى ليس بلاهٍ ولا ساهٍ عن أفعالهم .

« **وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ** » : أى عن خلقه وعن أعمالهم .

« **ذُو الرَّحْمَةِ** » : أى بأوليائه وأهل طاعته .

« إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ » بالإماتة والاستئصال بالعذاب .

« **ويستخلف من بعدكم ما يشاء** » : أى خلقنا آخر أمثلَ منكم وأطوع .

« **كَمَا أنشأكم من ذرية قوم آخرين** » : أى يستخلف من بعدكم ما يشاء استخلافاً مثل ما أنشأكم » <٢> .

« **إِنمَّا تُوعَدُونَ** » : أى من البعث وأحواله .

« لآتٍ » : أى لكائن لا محالة .

« **وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ** » : أى بفائتين ، يعجز عنكم . وهذا رَدٌّ لقولهم : مَنْ مات فات ، أى هو قادر على إعادتكم ، وإن صرتم رُفَاتاً .

---

١ ـ محاسن التأويل : (٦ / ٢٥٠٦) .

٢ ـ الجامع لأحكام القرآن للقرطبى : (٧ / ٨٧ ، ٨٨) .

« **قل ياقوم اعملوا على مكانتكم** » أى : على غاية تمكنكم واستطاعتكم ، والمعنى اثبتوا على كفركم .

« **إنى عامل** » أى : ما أمرتُ به من الثبات على الإسلام <١> .

« **فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار** » : أى من هو على الحق ، ومن هو على الباطل ، وهذا وعيد شديد .

و« **عاقبة الدار** » : هى العاقبة المحمودة التى يُحمد صاحبها عليها ، أى مَنْ له النصرُ في دار الدنيا ، ومن له وراثة الأرض ، ومن له الدار الآخرة ، أى الجنة <٢> .

« **إنه لا يفلح الظالمون** » : أى لا يفلح من اتَّصف بصفة الظلم ، وهو تعريض لهم بعدم فلاحهم لكونهم المتصفين بالظلم <٣> .

المعنى الإجمالى للآيات :

يوضح الحق سبحانه وتعالى في هذه الآيات ، ويبين لنا أن من يريد هدايته وتوفيقه للخير والصلاح فإنه يوسع صدره ، ويشرحه لهذا الدين الصحيح ، دين الإسلام .

ومن يريد إضلاله وإهلاكه لا يوفقه لذلك ، بأن يجعل صدره لا يتسع لنور الإيمان والهداية ، كمن يضيق صدره عندما يصعد إلى الطبقات العليا ، أو كمن يريد أن يصعد إلى السماء فلا يستطيع ذلك لأنه من المحال .

وأن الله تعالى سيجعل العذاب والهلاك على الكفار الذين لا يؤمنون به ، ولا يوحدونه .

---

١ ـ محاسن التأويل : (٦ / ٢٥١١) .
٢ ـ فتح القدير : (٢ / ١٦٤ ، ١٦٥) .
٣ ـ المرجع السابق : (٢ / ١٦٥) .

فدين الإسلام هو الطريق المستقيم الذى لا اعوجاج فيه ، هو طريق الحق والصواب .

فالحق سبحانه وتعالى أوضح ذلك وبينه بالآيات الواضحة ، والبراهين الساطعة ، التي يستنير بها القوم المتدبرون لها .

ولقد جعل الله تعالى لهؤلاء المؤمنين المتدبرين لآياته سبحانه وتعالى والمنتفعين بها دار السلام وهى الجنة ، التي سلمت من كل عيب ونقص ، جزاء بما كانوا يعملون في الحياة الدنيا من الأعمال الصالحة .

ثم يبين الله تعالى بعد ذلك عظيم قدرته في جمعه للثقلين الجن والإنس في ذلك اليوم العظيم ، حيث إنه ـ جل جلاله ـ يجمعهم للحساب وإقامة الحجة عليهم قائلاً لهم : يامعشر الجن ، قد استكثرتم من مصاحبة الإنس وإضلالهم وإغوائهم بالشهوات والتزيين لصدهم عن الطريق المستقيم . وفي هذا توبيخ وتقريع لهم .

فيجيب الذين أطاعوهم من الإنس قائلين : « ربنا استمتع بعضنا ببعض ، وذلك بما كان من تزيين الجن للإنس الباطلَ والضلال والمعاصىَ والشهوات والأهواء ، وبما كان من الإنس من الطاعة والاستجابة لهم في ذلك .

ثم يبين الحق سبحانه وتعالى مدى ندم وتحسر الإنس من اتباعهم لإغواء الجن ، وفي ذلك اعتراف من الإنس بما آل إليه مصيرُهم الذى حَدَّده الله تعالى لهم ، وهو يوم البعث والجزاء .

ثم يرد الله سبحانه وتعالى عليهم جميعاً قائلاً لهم : إن النار هى مأواهم خالدين فيها إلا ما شاء الله فجميع الأمور تجرى بمشيئته وإرادته ، فهو سبحانه وتعالى الحكيم في أفعاله ، العليم بأعمال عباده ، فيجازى كلاً بما عمل .

ثم وجهت الآيات بعد ذلك تهديداً لكل من استمر في ظلمه وغَيِّه ، ولم يردعه عن ذلك رادع ، فإن الله تعالى سيسلط عليه ظالماً آخر ، يظلمه ويخذله جزاء فعله وظلمه ، لأن الله تعالى لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسَهم يظلمون .

ثم بعد ذلك جاءت الآيات الكريمة تجيب عن سؤال يخطر ببال كل سائل ، فأظهرت مهمة الرسل ، وهي التبشير والإنذار ، فكأنه تعالى يقول : ياجماعة الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم يبينون لكم أصول الإيمان والتشريع ، والأخلاق والمعاملات ، ويحذرونكم لقاء هذا اليوم العظيم يوم الحشر والحساب ؟ ! .

فلم يجدوا سبيلاً إلا الاعترافَ والإقرار بالحقيقة ، فأجابوا على ذلك بقولهم : بلى قد جاءت رسل ربنا مبشرةً ومنذرةً بذلك .

فشهدوا على أنفسهم بأن رسل الله قد جاءتهم ، وبلغتهم آيات الله ، وأنذرتهم لقاء هذا اليوم ، ولكن غرتهم الحياة الدنيا بزخارفها وزينتها ، ففرطوا في دينهم ـ دين الإسلام ـ وضيَّعُوا أنفسهم ، فكذبوا بما جاءتهم به رسل الله ، وشهدوا على أنفسهم بالكفر ، وذلك بعد قيام الحجة عليهم .

وفي ذلك إثبات لحكمة الله تعالى وعدله ، وأنه لا يعذب قوماً حتى يبعث فيهم رسولاً منهم يبين لهم طريق الهداية ، ويخرجهم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى والإيمان ، ويهديهم إلى الطريق المستقيم .

فالله تعالى يرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، فيبشرون المؤمنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات بما أعد لهم في الآخرة من الثواب والنعيم المقيم في جنات النعيم ، وينذرون من كذب الرسل وكفر بالله من بعد ما جاءتهم البينات بعذاب أليم في دركات الجحيم .

UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

فالله تعالى أرسل الرسل بهذه الحقيقة ليعرفوا النـاس ما يؤول إليـه أمرهم في الآخرة من الجنة أو النار ، فيستعدوا ويتزودوا لذلك بالأعمال الصالحة التي تنجيهم من العذاب الأليم في نار جهنم ، وتقربهم إلى رضوان الله تعالى وثوابه العظيم في جنات النعيم .

ثم يبين الله تعالى بعـد ذلك أنه هو الرب الغنى عن خلقـه وعن أعمالهم ، ذو الرحمة الواسعة ، التي وسعت كل شيء ، وبخاصة أولياؤه وأهل طاعته ، فالكل محتاجون إليه ، فلو شاء سبحانه وتعالى لأهلك هؤلاء الكافرين المعاندين كما أهلك الأمم السابقة المكذبة للرسل بعذاب أليم ، واستخلـف من بعدهم ما شاء خلقاً آخرين ، يكونون أكثر استجابة منهم ، كما أنشأهم من ذرية قوم آخرين كانوا قبلهم .

ثم حذرهم الحق سبحانه وتعالى من العذاب والهلاك ، وأخبرهم أن ما يوعدون به من قيام الساعة والبعث والجزاء آتٍ لا مَرَدَّ له من أمر الله .

وأنه جل ثناؤه سيبعثهم إليه جميعـاً ، لا يعجزونه بهرب ولا منع مما يريد ، فهو القادر على إعادتهم كما خلقهم أول مرة .

وفي هذه الآيات أيضاً يأمر الحق تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يهدد هؤلاء الكافرين المعاندين ، ويقول لهم : استمروا على ما أنتم عليه من الكفر والتكذيب بما جئتكم به ، فإنـي ثابـت على الإيمان الذى أمرنى به ربى وربكم .

وسوف تعلمون من هو على الحق والصواب ، ومن هو على الضلال والبعد عن الحق ، وذلك إذا كشفت الحقائق ، وفـاز المؤمنون بالجـنة وبرضوان الله تعالى ، إذ لا فوز ولا نجاة من عذاب الله الأليم للظالمين الجاحدين المخالفين لأمر الله تعالى .

التوضيح للآيات :

يخبر الحق سبحانه وتعالى ، ويوضح لنا أنه من أراد هدايته للخير والصلاح فإنه يوسع صدره ويشرحه لدين الإسلام ، ويوفقه لما فيه الخير والسعادة في الحياة الدنيا والآخرة .

ومن يريد إضلاله وإهلاكه فإنه لا يوفقه لهذا الدين الصحيح ، وذلك بأن يجعل صدره ضيقاً لا يتسع لنور الإيمان والهداية ، فشبهه بمن يريد الصعود إلى السماء ، فهو لا يستطيع ذلك لأنه محال .

ففي هذه الآية الكريمة يبين الله لنا الفرق الكبير بين المؤمن والكافر في قبولهما لدين الإسلام ، وإتباع ما جاءت به رسل الله ، فقال تعالى : « **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعّد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون** » .

قال الخازن في تفسيره لهذه الآية : « **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** » (أي للإيمان ، يقال : شرح الله صدره فانشرح ، أي : وسعه لقبول الإيمان والخير فتوسّع ، وذلك أن الإنسان إذا اعتقد في عمل من الأعمال أن نفعه زائد ، وخيره راجح وربحه ظاهر ، مال بطبعه إليه ، وقويت رغبته فيه ، فتسمى هذه الحالة سَعَة النفس ، وانشراح الصدر ، وقيل : الشرح : الفتح والبيان ، يقال : شرح فلان أمره ، إذا وضحه وأظهره ، وشرح المسألة ، إذا كانت مشكلة فأوضحها وبينها .

يتبين من هذا أن للشرح معنيين :

أحدهما : الفتح ، ومنه يقال : شرح الكافر بالكفر صدراً ، أى فتحه لقبوله ، ومنه قوله تعالى :

مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ
وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا
فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾
‹١›

وقوله تعالى :

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ
لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾
‹٢›

يعنى فتحه ووسعه لقبوله .

الثاني : أن الشرح نور يقذفه الله في قلب العبد ، فيعرف بذلك النور الحقَّ فيقبله وينشرح صدره له .

ومعنى الآية :

فمن يرد الله أن يهديه للإيمان بالله وبرسوله وبما جاء به من عنده ، يوفقه له ، ويشرح صدره لقبوله ، ويهونه عليه ويسهله له بفضله وكرمه ولطفه به وإحسانه إليه ، فعند ذلك يستنير الإسلام في قلبه ، فيضيء به ويتسع له صدره) ‹٣› .

---

١ ـ سورة النحل : ١٠٦ .

٢ ـ سورة الزمر : ٢٢ .

٣ ـ تفسير الخازن : (٢ / ١٤٩) .

وقال ابن كثير : (أى ييسره لــه وينشطــه ويسهلــه لذلك ، فهذه علامات على الخير .

كقوله تعالى :

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾

‹١›

وقال تعالى :

وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾

‹٢›

وقال ابن عباس رضى الله عنها في قوله : « **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** » ، أى : يوسع قلبــه للتوحيد والإيمــان به ، وكذا قال أبو مالك وغير واحد وهو ظاهر .

وعن عبد الله بن مسعود عن رســول اللــه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** » قالوا : يارسول الله ، وكيف يشرح صدره ؟ قال : « يدخل فيه النور فينفسح » .

قالوا : وهل لذلك من علامة يارسول الله ؟ قال : « التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل أن ينزل الموت » .

---

١ ـ سورة الزمر : ٢٢ .

٢ ـ سورة الحجرات : ٧ .

وساق الإمام ابن كثير عدة طرق لهذا الحديث ، وختم ذلك بقوله : فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة ، يشد بعضها بعضاً ، والله أعلم) ‹١› .

وقوله تعالى : « **ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً** » .

قال الصاوى :

« والمعنى : أن من أراد الله شقاوته وطرده عن رحمته ضَيَّق قلبهَ ، فلا يقبل شيئاً من أصول الإسلام ولا من فروعه ، ولو قطع إرْباً إرْباً ، وعلامة ذلك إذا ذكر التوحيد نفر قلبه واشمأز ، وإن نطق بلسانه كأهل النفاق) ‹٢› .

قال تعالى :

وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾

‹١›

وجملة ما قاله المفسرون في معنى الآية لخصه الخازن فقال :

(قال أهل المعانى : لما كان القلب محلاً للعلوم والاعتقادات وصف الله تعالى قلب من يريد هدايته بالانشراح والانفساح ، ونَوَّره فقبل ما أودعه من الإيمان بالله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

---

١ ـ تفسير القرآن العظيم : (٢ / ٩٨) .

وقد أستدرك الشيخ أحمد محمد شاكر على قول ابن كثير هذا فقال: « وأخطأ الحافظ جداً كما ترى ، فإن حديث أبى جعفر الهاشمي أحاديث كذاب وضاع لا تشد شيئاً ولا تحله ... » انظر : تفسير الطبرى ـ تحقيق محمود محمد شاكر وراجع احاديثه أحمد محمد شاكر (١٢ / ٩٩) .

والذى يترجح أن قول الشيخ أحمد محمد شاكر هو الأصح ، وأن هذا الحديث ضعيف .

٢ ـ حاشية الصاوى : (٢ / ٤٥) .

٣ ـ سورة الزمر : ٤٥ .

ووصف قلبَ من يريد ضلالته بالضيِّق الذى هو خلاف الشَّرْح والانفساح ، فدل ذلك على أن اللّٰه تعالى صَيَّر قلبَ الكافر بحيث لا يَعي علماً ولا استدلالاً على توحيد اللّٰه تعالى والإيمان به .

وقوله تعالى : « **كأنما يَصَّعَّدُ في السماء** » يعني أن الكافرَ إذا دُعى إلى الإسلام كأنه كُلِّف أن يَصعد إلى السماء ، ولا يقدر على ذلك .

وقيل : يجوز أن يكون المعنى : كأن قلب الكافر يَصعد إلى السماء نُبُوّاً عن الإسلام ـ أى بُعداً عن الإسلام ـ وتكبراً .

وقيل : ضاق عليه المذهب فلم يجد إلا أن يصعَد إلى السماء ، وليس يقدر على ذلك .

وقيل : هو من المشقة وصعوبة الأمر فيكون المعنى :

أن الكافر إذا دُعى إلى الإسلام فإنه يتكلف مشقة وصعوبة في ذلك ، كمن يتكلف الصعودَ إلى السماء ، وليس يقدر على ذلك) (١)

وقد قرىء « ضَيْق » بفتح الضاد وتسكين الياء ، وبتشديد الياء وكسرها ، وكلا القراءتين بمعنى واحد ، كهَيْن وهيِّن . وكذلك « حرجاً » فيها قراءتان :

قراءة بفتح الحاء وكسر الراء « حَرِجاً » بمعنى آثم ، أى يجعل قلبه آثماً .

كقوله تعالى :

وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ (٢)

---

١ ـ تفسير الخازن : (٢ / ١٥٠) .

٢ ـ سورة البقرة : ٢٨٣ .

وأما قراءة « حَرَجاً » بفتح الحاء والراء ، فإن معناها : ضيقاً لا يتسع إلى أى شيء من هداية الله ، ولا ينفذ إليه شيء من العلم . فحاصل ما قاله المفسرون : في معنى « ضيقاً حرجاً » أى يستعصى عليه قبول الإيمان (١).

ولقد ثبت علمياً أن الذى يصعد إلى أعلى طبقات الجو لا يجد متنفساً ، لأنه لا يوجد هواء ، فالإنسان في منطقة معينة من الجو لا يستطيع التنفس ، فيضيق صدره لدرجة الاختناق ، وهذا يثبت معجزة القرآن الكريم بأن الله تعالى شبه الكافر الذى لا يصل إليه الإيمان بالشخص الذى فقد الحياة والحركة والسعادة النفسية ، بالرغم من أن الكافر يتمتع بالحياة ، ولكن هذا ليس استمتاعاً ، بل حالتهُ حالةُ من صعد إلى السماء ، وانقطع عنه الهواء فهذا من إعجاز القرآن في إثبات الحقائق العلمية التى كانت مجهولة في زمن نزوله .

تبين مما ذكرته معنى « ضيق الصدر » عند المفسرين الأقدمين والأظهر أن الآية تشير إلى معنى لم يهتدوا إليه من قبل : حيث تشير الآية إلى حقيقة علمية لم يكن العلم قد عرفها ، وقد اهتدى إليها علماء العصر أخيراً وأشار إلى ذلك الشيخ المراغى في تفسيره ففسر « ضيق الصدر » تفسيراً متفقاً مع الحقيقة العلمية حيث قال : (وخلاصة ذلك : أن الله ضرب مثلاً لضيق النَّفَس المعنوى يجده من دُعِيَ إلى الحق وقد ألف الباطل وركن إليه ، بضيق التنفُّس الذى يجده من صَعِدَ بالطائرة إلى الطبقات العليا من الجو ، حتى لقد يشعر بأنه أشرف على الهلاك ، وهو لا محالة هالك إن لم يتدارك نفسه ، وينزل من هذا الجو إلى طبقات أسفل .

---

١ ـ انظر : تفسير ابن كثير : (٢ / ٩٩) .

(وفي كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد / ٢٦٨ ، تحقيق الدكتور شوقى ضيف ، الطبعة الثانية دار المعارف مصر قرأ ابن كثير وحده « ضيْقاً » وقرأ الباقون : « ضيِّقاً » واختلفوا في فتح الراء وكسرها من قوله « حَرَجاً » فقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزه والكسائى « حَرَجاً » مفتوحة الراء . وقرأ نافع وعاصم في رواية أبى بكر « حَرِجاً » مكسورة الراء . وروى حفص عن عاصم « حَرَجاً » مثل أبى عمرو .

سبحانك ربى نطق كتابك الكريم بقضية لم يتفهم سرَّها البشر ، ولم يفقه معرفة كنهها إلا بعد أن مضى على نزولها نحو أربعة عشر قرناً ، ويتقدُّم فن الطيران الآن علم الطيارون بالتجربة صدقَ ما جاء في كتابك ، ودل على صحة ما ثبت في علم الطبيعة من اختلاف الضغط الجوى في مختلف طبقات الهواء ، وقد علم الآن أن الطبقات العليا أقل كثافة في الهواء من الطبقات التي هى أسفل منها ، وأنه كلما صَعَدَ الإنسان إلى طبقة أعلى شعر بالحاجة إلى الهواء وبضيق في التنفس ، نتيجة لقلة الهواء الذى يحتاج إليه ، حتى لقد يحتاجون أحياناً إلى استعمال جهاز التنفس ليساعدهم على السير في تلك الطبقات .

وهذه الآيات وأمثالُها لم يستطع العلماء أن يفسروها تفسيراً جلياً ‹١› ، لأنهم لم يهتدوا لسرها ، وجاء الكشف الحديث وتقدم العلوم ، فأمكن شرحُ مغزاها ، وبيان المراد منها بحسب ما أثبته العلم ، ومن هذا صح قولهم ؛ الدين والعلم صِنْوان لا عَدُوَّان ، وهكذا كلما تقدم العلم أرشد إلى إيضاح قضايا خفى أمرها على المتقدمين من العلماء والمفسرين) ‹٢› .

وقال تعالى بعد ذلك « **كذلك يجعل اللَّه الرجس على الذين لا يؤمنون** » قال الطبرى : (يقول تعالى ذكره : كما يجعل اللَّه صدر من أراد إضلاله ضيقاً حرجاً ،كأنما يصعد في السماء من ضيقه عن الإيمان ، فيجزيه بذلك ، كذلك يسلطُ اللَّه الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبىَ الإيمان باللَّه ورسوله ، فيغويه ويصده عن سبيل الحق .

---

١ ـ لقد فسرها العلماء تفسيراً لغوياً صحيحاً يناسب زمانهم .

فإذا جدّت حقائق علمية تضيف وجهاً جديداً للتفسير ولا يدل ذلك على خطأ التفسير السابق .

٢ ـ تفسير المراغي : (٧ / ٢٥ ، ٢٦) .

واختلف أهل التأويل في معنى « الرجس » .

فقال بعضهم : هو كل مالا خير فيه ، قاله مجاهد .

وقال آخرون : « الرجس » العذاب ، قاله ابن زيد .

وقال آخرون : « الرجس » الشيطان ، قاله ابن عباس .

وقال الطبرى : والصواب من القول في ذلك عندى ما قاله ابن عباس . ‹١›

وفي القاموس : الرجس القذر والعمل المؤدى إلى العذاب ‹٢› .

ثم انتقلت الآيات بعد ذلك لبيان ما جاء به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عند الله من الهدى والحق الذى لا اعوجاج فيه ، والذى ارتضاه لعباده ، فقال تعالى : « **وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون** » قال الخازن في تفسيره لهذه الآية : (« **وهذا صراط ربك مستقيماً** » يعنى : وهذا الذى بينا لك يامحمد في هذه السورة وغيرها من سور القرآن هو صراط ربك ، يعنى : دينهُ الذى شرعه لعباده ، ورضيه لنفسه ، وجعله مستقيماً لا اعوجاج فيه .

قال ابن عباس في تفسيره لهذه الآية : يعنى الإسلام .

وقال ابن مسعود : يعنى القرآن ، لأنه يؤدى من اتبعه وعمل به إلى طريق الاستقامة والسداد .

وقوله : « **قد فصلنا الآيات** » : أى قد فصلنا آيات القرآن بالوعد والوعيد ، والثواب والعقاب ، والحلال والحرام ، والأمر والنهى ، وغير ذلك من أحكام القرآن .

وقوله « **لقوم يذكرون** » : أى لمن يتذكر بها ، ويتعظ بما فيها من المواعظ والعبر .

---

١ ـ تفسير الطبرى المحقق : (١٢ / ١١٠ ـ ١١٢) .

٢ ـ القاموس المحيط (ر ج س) .

قال عطاء : يعنى أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن تبعهم بإحسان) ‹١› .

ثم جاءت الآية الكريمة بعد ذلك تبين جزاء من ينتفع بالذكرى فقال الحق سبحانه وتعالى : « **لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون** » .

فقوله « **لهم** » أى للقوم الذين يذكرون آيات الله فيعتبرون بها ، ويوقنون بدلالتها على مادلت عليه ، من توحيد الله ، ومن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وغير ذلك فيصدقون بما وصلوا بها إلى علمه من ذلك ‹٢› .

و « **دار السلام** » أما أن يكون السلام اسماً من اسماء الله ، وأن الدار أضيفت إليه إضافة تشريف وتعظيم ، كما يقال : بيت الله ، وعبد الله ، وناقه الله .

وإما أن يكون السلام هنا بمعنى السلامة ، أى أن الجنة سلمت من جميع العيوب والنقائص والآفات .

ويكون هذا كقول الله تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴾ ‹٣›

---

١ ـ تفسير الخازن : (٢ / ١٥٠) .

٢ ـ جامع البيان : (١٢ / ١١٤) .

٣ ـ سورة يونس : ٢٥ .

أو تكون الجنة سميت بدار السلام لأن جميع حالاتهــا مقرونــة بالسلام ، كما قال تعالى :

﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴾ (٤٦) ‹١›

وكما قال جل ثناؤه :

﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ
فِيهَا سَلَامٌ ﴾ (٢٣) ‹٢›

وقال سبحانه وتعالى :

﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ (٦٢) ‹٣›

وقال عز من قائل :

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ (٢٦) ‹٤›

وقال تعالى :

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ
وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ
فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (٢٤) ‹٥›

---

١ ـ سورة الحجر : ٤٦ .

٢ ـ سورة إبراهيم : ٢٣ .

٣ ـ سورة مريم : ٦٢ .

٤ ـ سورة الواقعة : ٢٥ ، ٢٦ .

٥ ـ سورة الرعد : ٢٣ ، ٢٤ .

وقال تعالى :

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾

‹١›

وقوله تعالى : « **عند ربهم** » أى أن الجنة مُعـدَّة ومهيَّأة لهم عند ربهم حتى يوصلهم إليها .

وقوله تعالى : « **وهو وليهم بما كانو يعملون** » أى أن الله تعالى يتولاهم فى الدنيا بالتوفيق والهداية والنصر ، وفى الآخرة بالجزاء والجنة بسبب أعمالهم الصالحة ‹٢› .

ففى هذه الآيات وغيرها وَصْفٌ لدار الخلود ، وما أعده الله فيها لعباده المؤمنين من ألوان النعيم والمتاع الدائم .

فقد جاء فى الحديث الشريف :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قال الله : « أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فاقرءوا إن شئتم :

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ‹٣›

---

١ ـ سورة يس : ٥٥ ـ ٥٨ .

٢ ـ تفسير الخازن : (٢ / ١٥١) بتصرف .

٣ ـ صحيح البخاري (كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ، ٤ / ١٤٣) ، سورة السجدة : ١٧ .

وجاء فى رواية مسلم بزيادة :

« مصداق ذلك في كتاب اللّه :

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ (١)

فالحق سبحانه وتعالى قد أعد لعباده المؤمنين في جنات النعيم ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وذلك ليستعدوا لها بالأعمال الصالحه إذا أن الأعمال الصالحة هي من أسباب دخول الجنة ولا يمكن الظفر بها إلا بفضل اللّه تعالى ثم إذا قدم الإنسان من العمل ما يؤهله لدخولها .

وهذا كقول الحق سبحانه وتعالى :

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ
تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا
وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ
وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

(٢)

وكقوله تعالى :

تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ (٣)

---

١ ـ صحيح مسلم (كتاب الجنة وصفة نعيم أهلها ، ٤ / ٢١٧٤) سورة السجدة : ١٧ .

٢ ـ سورة الأعراف : ٤٢ ، ٤٣ .

٣ ـ سورة مريم : ٦٣ .

وكقوله تعالى :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) ﴾

(١)

وكقول الحق تعالى :

﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) ﴾ (٢)

وأما ما جاء فى الحديث الشريف :

فعن عائشة رضى الله عنها زوج النبى صلى الله عليه وسلم أنها كانت تقول :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سدّدوا وقاربوا وأبشروا ، ، فإنه لن يُدخِل الجنةَ أحداً عملُه ، قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه برحمة ،واعلموا أن أحب العمل إلى الله أدومُه وإن قلَّ»(٣).

وفى رواية أخرى :عن أبى هريرة قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لن يُدخِلَ أحداً منكم عملُهُ الجنةَ » قالوا ولا أنت يارسول الله ؟ .

قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه بفضل ورحمة » .

---

١ ـ سورة النحل : ٣٠ ـ ٣٢ .

٢ ـ سورة الزخرف : ٧٢ .

٣ ـ صحيح البخارى (كتاب الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل ، ٨ / ١٢٢ ، ١٢٣) .

وصحيح مسلم (كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ، ٤ / ٢١٧١) .

وفى رواية أخرى : عنه قــال : قــال رسول الله ـ صلـــى الله عليه وسلم ـ : « قاربوا وسددوا واعلموا أنه لن ينجوا أحدٌ منكم بعمله» قالوا : يارسـول الله ولا أنت ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » <١> .

وأخرج الإمام أحمــد بسنـــده عن أبى هريـــرة قـــال : قال رســـول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ : « لا يدخل أحدكم الجنة بعمله » قـالوا ولا أنت يارسول الله . قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه برحمة وفضل ووضع يده على رأسه » <٢> .

ما جاء في الأحاديث السابقة : القصد منه أن الجنة ليســت ثمنـــاً للعمل ولا هى عوضاً عنه وإنما دخول الجنة بفضل الله ثم العمل الصالح ، والعمل يكون بهداية الله وتوفيقه وفضله ورحمته ، فتكون « الباء » في قولـــه تعالـــى : « **ادخلوا الجنـــة بما كنتم تعلمون** » .

« باء » السـببـيـة ، وتكون في قـوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « **لا يدخل أحدكم الجنة بعمله** » .

« باء » الثمنية ، ولا منافاة بينهما ، فدخول الجنة بسبب العمل ، وليست الجنة ثمناً العمل .

على أن العمل الذى يعمله الإنسان يكـون دائمـــاً بتوفيـق الله وإعطاء العبد القدرة عليه .

---

١ ـ صحيح البخارى (كتاب الإيمان ، باب الدين يُسْرٌ ، ١ / ١٦) و (كتاب الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل ، ٨ / ١٢٢) وصحيح مسلـــم (كتـــاب صفـات المنافقين وأحكامهـــم ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ، ٤ / ٢١٧٠) .

٢ ـ مسند الإمام أحمد (٢ / ٢٥٦) .

وقد رغب الإسلام في العمل للجنة والاستعداد لها <١> .

ثم ختم الحق الآية بقوله تعالى : « **وهو وليهم بما كانوا يعملون** » .

قال الخازن في تفسيرها : (يعنى أنه تعالى يتولى أمرهم ، وإيصال المنافع إليهم ، ويدفع المضار عنهم .

وقيل : معناه : أنه يتولاهم في الدنيا بالتوفيق والهداية ، وفي الآخرة بالجزاء والجنة .

وقيل : الولى هو الناصر والقريب ، يعنى أنه تعالى ينصرهم في الدنيا ، ويقربهم في الآخرة بسبب أعمالهم الصالحة التي كانوا يتقربون بها إليه في الدنيا) <٢> .

وفي هذا المعنى يقول الحق سبحانه وتعالى :

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ <٣>

ويذكر الله تعالى ما سيكون قبل الحساب والجزاء ، وهو جمع الخلائق يوم القيامة لمحاسبتهم وإقامة الحجة عليهم ، فقال تعالى : « **ويوم يحشرهم جميعاً يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤكم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا، قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم** » .

---

١ ـ انظر : فتح البارى شرح صحيح البخارى (كتاب الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل ، ١١ / ٢٩٦) .

٢ ـ تفسير الخازن : (٢ / ١٥١) .

٣ ـ سورة يونس : ٦٢ ـ ٦٤ .

فالحق سبحانه وتعالى في هذه الآية يقرر أنه سيوجه سؤالاً إلـــى الجن فيقول لهم : « **يامعشر الجن** » والمراد بالجن هنا الشياطين منهم .

« **قد استكثرتم من الإنس** » أى مـــن إغوائهـــم وإضلالهم بالمعاصـــى والكفر والشهوات .

ثم يجيب الأولياء من الإنس ، وهم الأتباع والأنصار ، فيقولون :

« **ربنا استمتع بعضنا ببعض** » أى لقد زينوا لنا المعاصى والشهوات والمحرمات ، فما كـــان منا إلا أن استجبنا لهـــم في ذلـــك ، وأطعناهم فيما أمرو نابه .

« **وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا** » أى عشنــا وبقينــا إلى الأجل المحدد لنا ، وهو مدة عمرنا في الدنيا .

ثم يصدر الحق بعد ذلك الحكم على كل من الإنس والجن قائلاً :

« **النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله** » أى أن النار مقامكم ومقركُم فيها ، ومصيركم إليها ، وأنتم مقيمون فيها أبداً .

وقوله « **إلا ما شاء الله** » هذه الآية كقوله تعالى في سورة هود :

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي
النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ‹١›

فهذه الآية تربط الأمر بمشيئة الله ، وليست دليلاً على أن أهل النار سيخرجون منها أو يموتون ، وهذا هو إجماع أهل السنة ، وأن النار لا تفنى ولا تبيد ، وأن الكفار لا يخرجون منها أبداً ، وكذلك الجنة لقوله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ
فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ‹٢›

---

١ ـ سورة هود : ١٠٦ ، ١٠٧ .

٢ ـ سورة البينة : ٦ .

ولقوله تعالى :

إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾
خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ ‹١›

ولقوله تعالى :

قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا
مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ
مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ ‹٢›

وقد أخرج الشيخان بسنديهما عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : (يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينُادى مُنادٍ : ياأهل الجنة فَيشْرَئِبُّونَ وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموتُ ، وكُلُّهُمْ قد رآهُ . ثم يُنادى : ياأهل النار ، فَيشْرَئِبُّونَ وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت وكُلُّهُمْ قد رآهُ ، فُيذْبح ، ثم يقول : ياأهل الجنة ، خلودٌ فلا موتَ ، وياأهل النار ، خلودٌ فلا موتَ ، ثم قرأ : وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) ‹٣› .

---

١ ــ سورة الأحزاب : ٦٤ ، ٦٥ .

٢ ــ سورة الجن : ٢٢ ــ ٢٤ .

٣ ــ صحيح البخارى (كتاب التفسير ، باب قوله : « وانذرهم يوم الحسرة » ، ٦ / ١١٧ ، ١١٨) .
وصحيح مسلم (كتاب الجنة وصفه نعيمها وأهلها ، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ، ٤ / ٢١٨٨) واللفظ للبخارى . والآية من سورة مريم : ٣٩ .
وقوله : « كبش أملح » الأملح ، قيل : هو الأبيض الخالص . قاله ابن الأعرابى ، وقال الكسائى : هو الذي فيه بياض وسواد ، وبياضه أكثر .
وقوله : « فيشرئبون » : أى يرفعون رءوسهم إلى المنادى (شرح النووى على صحيح مسلم (كتاب الجنة ، باب النار يدخلها الجبارون ، ١٧ / ١٨٥) .

وهذا الاستثناء في الآية : « **إلا ما شاء الله** » إنما يُقصد به ربط الأمر بمشيئة الله سبحانه وتعالى ، وأنه لا شيء يخرج عن إرادته ومشيئته .

وأخرج الإمام مسلم بسنده عن محمد بن قيس بن مخرمة بن المطلب ‹١› أنه قال يوماً : ألا أحدثكم عني وعن أمي ؟ قال : فظننا أنهً يريد أمه التي ولدته ، قال : قالت عائشة:ألا أحدثكم عني وعن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ قلنا : بلى ، قال : قالت : لما كانت ليلتي التي كان النبي صلى الله عليه وسلم فيها عندي ، انقلب فوضع رداءه ، وخلع نعليه ، فوضعهما عند رجليه ، وبسط طرف إزاره على فراشه ، فاضطجع ، فلم يلبثْ إلا ريثما ظن أنْ قد رقدتُ ، فأخذ رداءه رويداً وانتعل رويداً ، وفتح الباب فخرج ، ثم أجافه رويداً ، فجعلت درْعي في رأسي ، واختمرتُ ، وتقنعت إزاري ، ثم انطلقت على إثره ، حتى جاء البقيع ، فقام ، فأطال القيام ، ثم رفع يديه ثلاث مرات ، ثم انحرف فانحرفت ، فأسرع فأسرعت ، فهرول فهرولت ، فأحضر فأحضرت ، فسبقته فدخلت ،فليس إلا أن اضطجعت فدخل ، فقال : « مالك ياعائشُ حَشيًا رَابِيَة » ! قالت : قلت :لا شيء . قال :« لَتُخْبِرِيني أو لَيُخبِرَنيٌ اللطيفُ الخبير » قالت : قلت : يارسول الله بأبي أنت وأمي ! فأخبرتُه ، قال : « فأنت السواد الذي رأيت أمامي » ؟ قلت : نعم . فَلَهَدَنِي في صدري لَهْدَةَ أوجعتني .
ثم قال : « أظننتِ أن يحيف الله عليك ورسوله ؟ » قالت : مهما يكتم الناسُ يعلمْه الله ، نعم ، قال : « فإن جبريل أتاني حين رأيتِ ؛ فناداني ، فأخفاهُ منكِ ، فأجبتُهُ ، فأخفيتُهُ منك ، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعتِ ثيابَك ، وظننتُ أنْ قد رقدتِ ، فكرهتُ أن أوقظك ، وخَشِيتُ أن تستوحشي ، فقال : إن ربكَ يأمرك أن تأتي أهلَ البقيع فتستغفرَ لهم » . قالت : قلت : كيف أقول لهم

---

١ ـ محمد بن قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف المطلبي . ذكر العسكري أنه أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وهو صغير . وقد روى عنه مرسلاً وعن أبي هريرة وعائشة .
الثقات للعجلي (٤١١) والجرح والتعديل (٨ / ٦٣) والتهذيب (٩ / ٤١٢) والتقريب (٢ / ٢٠٢) .

يارسول الله ؟ : قال « قولى : السلامُ على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، ويرحم الله المستقدمِيــن منـــا والمستأخرِيــن ، وإنـــا إن شـــاء اللّـــه بكم للاحقون » <١> .

وأخرج الإمام مسلم أيضاً بسنده عن سليمان بن بريدة <٢> ، عن أبيه قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلــم ـ يعلِّمهم إذا خرجـوا إلـى المقابر ،

---

١ ـ صحيح مسلم (كتاب الجنائز ، باب ما يقال عند دخول القبور ... الخ ، ٢ / ٦٧٠ ، ٦٧١) .
قولها : « إلا ريثما » معناه : إلا قدر ما .
وقولها : « أخذ رداءه رويداً » أى قليلاً لطفاً لئلا ينبهها .
وقولها : « ثم أجافه » أى أغلقه ، وإنما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم ، في خفية لئلا يوقظها ويخرج عنها ، فربما لحقتها وحشة في انفرادها في ظلمة الليل .
وقولها : « فجلعت درعي في رأسى » درع المرأة : قميصها .
وقولها : « واختمرت » أى ألقيت على رأسى الخمار ، وهو ما تستتر به المرأة رأسها .
وقولها : « وتقنعت إزارى » هكذا في الأصول : « إزارى » بغير باء في أوله .
وكأنه بمعنى : لبست إزارى ، فلهذا عدى بنفسه .
وقولها : « فأحضر فأحضرت » الإحضار : العَدْو ، أى فعدا فعدوت ، فهو فوق الهرولة .
وقوله : « مالك ياعائش حشيا رابية » يجوز في « عائش » فتح الشين وضمها ، وهما وجهان جاريان في كل المرخمات . وحشياً معناه :وقع عليك الحشا وهو الربو والتهيج الذى يعرض للمسرع في مشيه ، والمحتد في كلامه من ارتفاع النفس وتواتره .
يقال : امرأة حشياء وحشية ورجل حشيان وحَشِيٌّ . قيل أصله من أصاب الربو حشاه .
و « رابية » : أى فرتفعة البطن . وقوله : « فأنت السواد » : أى الشخص .
وقولها : « فلهدنى » قال أهل اللغة : لهده ولهّده ، بتخفيف الهاء وتشديدها أى دفعه . انظر شرح النووى على صحيح مسلم (٧ / ٤٣ ، ٤٤) .

٢ ـ هو سليمان بن بريدة بن الحصيب الأسلمى ، المروزى قاضيـــها ، ولد على عهد عمر بن الخطاب ، وهو ثقة ، مات سنة خمس ومائة .
انظر : طبقات بن سعد (٧ / ٢٢١) والثقات لابن حبان (٤ / ٣٠٣) والجرح والتعديل (٤ / ١٠٢) والعبر (١ / ٩٨) والتهذيب (٤ / ٧٤) والتقريب (١ / ٣٢١) .

فكان قائلهم يقول ، (في رواية أبى بكر) <١> : السلام علـــى أهل الديار ، (وفي رواية زهير) <٢> : السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله للاحقون ، أسأل الله لنا ولكم العافية » <٣> .

ففى الحديـــث الأول : ذكـــر الرسول ـ صلـــى الله عليـــه وسلـــم ـ : « وإنا إن شاء الله بكـم للاحقـــون » وفـــي الحديث الثانـــي : قـــال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « وإنا إن شـاء الله للاحقون » مع القطع بأن كل إنسان سيموت ، فإنه لا يخلد أحد في الدنيا أبداً .

لقوله عز من قائل :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ <٤>

---

١ ـ أبو بكر بن أبى شيبة هو عبد الله بن محمد بن إبراهيم أبى شيبة بن عثمان العبسى الواسطى الكوفى صاحب المسند والمصنف ، ثقة ثبت حافظ متقن ، إمام حجة ، مات سنة (٢٣٥هـ) . روى عنـــه مسلم (١٥٤٠ حديثاً) .

انظر : كتاب الكنى للبخارى (١٣) والثقات للعجلى (٢٧٦) والجرح والتعديل (٥ / ١٦٠) والثقات لابن حـبـان (٨ / ٣٥٨) وتاريخ بغـداد (١٠ / ٦٦) والتـذكـرة (٢ / ٤٣٢) والميـزان (٢ / ٤٩٠) والتهذيب (٦ / ٢) والتقريب (١ / ٤٤٥) .

٢ ـ زهير بن حرب بن شداد أبو خيثمة النسائى ، نزيل بغداد ، ثقة ثبت حافظ ، روى عنه مسلم أكثر من ألف حديث ، مات سنة أربع وثلاثين ومئتين وهو ابن أربع وسبعين .

انظر : التاريـــخ الكبير (٢ / ١ / ٤٢٩) والجـــرح والتعديـــل (٣ / ٥٩١) وســـير أعلام النبلاء (١١ / ٤٨٩) والعـــبر (١ / ٣٢٧) والشـذرات (٢ / ٨) والتهذيـــب (٣ / ٣٤٢) والتقريـــب (١ / ٢٦٤) .

٣ ـ صحيح مسلم (كتاب الجنائز ، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها ، ٢ / ٦٦٩) .

٤ ـ سورة الرحمن : ٢٦ ، ٢٧ .

ثم ختم الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله : « **إن ربك حكيم عليم** » : أى في تدبير خلقه وتصريفه إياهم بمشيئته من حال إلى حال ، وغير ذلك من أفعاله .

وقيل : « **حكيم** » فيما يفعله من ثواب الطائع وعقاب العاصى ، وفي سائر وجوه المجازاة .

« **عليم** » يعنى : بعواقب أمور خلقه وما هم إليه صائرين كأنه قال : إنما حكمتُ لهؤلاء الكفار بالخلود في النار لعلمى بأنهم يستحقون ذلك ‹١› .

ثم قال الحق جل ثناؤه بعد ذلك : « **وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون** » .

فما علاقة هذه الآية الكريمة بالآية التي سبقتها ؟ .

الجواب عن ذلك :

أنه كما أن الله سبحانه وتعالى يجازى الجن والإنس الذين انحرفوا عن الحق والهدى ، فإنه جل ثناؤه يجازى الظالمين الذين انحرفوا أيضاً في الدنيا ، بأن يسلط عليهم الظالمين أمثالهم .

فالحق سبحانه وتعالى كما أنه ذكر لنا ما سيكون في الحشر من سؤال لهم في الآية السابقة يذكر لنا في هذه الآية أيضاً سنة من سننه في الحياة الدنيا ، وفي المجتمع البشرى ، وهى أنه سبحانه وتعالى يسلط الظلمة على الظلمة ، فإذا كان الناس تنكروا لدين الله ، وانحرفوا عن شريعته السمحاء ، فالله تعالى يجعل لهم من أنفسهم من يتولون أمورهم ، ويظلمونهم ، فيكون هذا الظلم الواقع عليهم نتيجة للأعمال التي اقترفوها عقاباً لهم .

---

١ ـ لباب التأويل في معانى التنزيل : (٢ / ١٥٢) .

وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما في تفسيره لهذه الآية :

« وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون » .

إن الله إذا أراد بقوم خيراً ولّى عليهم خيارهم ، وإذا أراد بقوم شراً ولى عليهم شرارهم .

فعلى هذا القول نجد أن الرعية متى كانوا ظالمين سلط الله عز وجل عليهم ظالماً مثلهم ، فمن أراد أن يخلص من ظلم ذلك الظالم فليترك الظلم .

وقوله « **بما كانوا يكسبون** » يعنى يسلط عليهم من يظلمهم بسبب أعمالهم الخبيثة التي اكتسبوها (١) .

وقال ابن كثير : « ومعنى الآية الكريمة : كما ولّينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفةَ التي أغوتهم من الجن ، كذلك نفعل بالظالمين ، نسلّط بعضهم على بعض ، ونُهلك بعضهم ببعض ، وننتقم من بعضهم ببعض جزاء على ظلمهم وبغيهم » (٢) .

وكما يقال : الظالم سيف الله في الأرض ينتقم به ثم ينتقم منه .

وقوله تعالى : « **يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين** » .

يخبرنا الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة عما سيكون موقف هؤلاء الظالمين عند مُثولهم أمام الله في يوم القيامة ، وفي هذا تقريع وتوبيخ لهم ، فيسألهم قائلاً لهم : « **يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا** » .

---

١ ـ تفسير الخازن : (٢ / ١٥٢) بتصرف .

٢ ـ تفسير القرآن العظيم : (٢ / ١٠٢) .

وذلك لإقامة الحجة عليهم ، فهو جل ثناؤه لم يظلمهم ، ولكنهم ظلموا أنفسهم بعدم إيمانهم وتصديقهم بما جاءتهم به الرسل من عند الله تعالى .

فهم يعترفون بأن الرسل قد جاءتهم من عند الله ، ولكنهم لم يؤمنوا ولم يعملوا الأعمال التي تنفعهم في هذا اليوم الرهيب ، والذى تظهر فيه الحقائق ، وينال كل واحد جزاء ما عمل من خير أو شر .

لقوله تعالى :

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا
لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا
يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

<١>

ثم قال تعالى حكاية عن حالهم : « **قالوا شهدنا على أنفسنا** » : أى أقررنا بأن الرسل قد بلغتنا رسالات الله ، وأنذرتنا لقاء هذا اليوم ، يوم الحساب والسؤال ، وأن هذا اليوم كائن لا محالة فيه .

ثم بين بعد ذلك سبب منعهم الإيمان بالله سبحانه وتعالى وبما جاءت به الرسل عليهم السلام فقال : « وغرتهم الحياة الدنيا » : أى فهم قد انخدعوا بباطلها ، وما فيها من زينة وشهوات وملذات ، فشغلتهم عن الآخرة والاستعداد لها بالأعمال الصالحة .

---

١ ـ سورة الزلزلة : ٦ ـ ٨ .

كما وصف الحق سبحانه وتعالى الحياة الدنيا وزينتها في كتابه العزيز قائلاً :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) ﴾

(١)

وقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) ﴾ (٢)

وقال عز من قائل :

﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١) ﴾

(٣)

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تحذرنا من الانشغال بزينة الحياة الدنيا وشهواتها عن العمل للآخرة .

فهؤلاء انشغلوا بالحياة الدنيا وزينتها واغتروا بها .

---

١ ــ سورة الحديد : ٢٠ .

٢ ــ سورة فاطر : ٥ .

٣ ــ سورة الأعراف : ٥١ .

فبعد ما بين لنا الحق سبحانه وتعالى اعترافهم وشهادتهم بأن الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ قد بلغتهم دعوة الإيمان ولكنهم لم يؤمنوا ، وذكر لنا أن سبب عدم إيمانهم هو انخداعهم بزينة الحياة الدنيا وشهواتها الزائلة ، فلم يؤمنوا وشهدوا على أنفسهم بالكفر بعد إقامة الحجة عليهم واعترافهم بأن الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ قد جاءتهم ، ولكنهم لم يؤمنوا ، ختم الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة باعترافهم بالكفر وعدم إيمانهم بقوله تعالى : « **وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين** » .

وإن الله جل ثناؤه قد بين لنا أنه منزه عن الظلم ، وأنه لم يظلمهم ، وأن نتيجة أعمالهم من الخزى والعذاب إنما كانت بعد إرسال الرسل إليهم وإنزارهم كما بين لنا سبحانه الآثار المترتبة ـ على الطاعات والمعاصى من ثواب وعقاب ، فليس لهم حجة يحتجون بها ، لأنه سبحانه وتعالى قد أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ، كما قال تعالى :

رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ
لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١﴾

وكما قال تعالى :

مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ
وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا
﴿٢﴾

١ ـ سورة النساء : ١٦٥ .

٢ ـ سورة الإسراء : ١٥ .

وكما في قوله تعالى حكاية عن حال الكفار حين دخولهم النار وعذابهم فيها :

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ
﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ
مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾
قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ
إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ
السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾

‹١›

ففى قوله تعالى : « يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم » .

لنا وقفة واستفسار ، وهو :

هل هناك رسل من الإنس للإنس ؟ .

وهل هناك رسل من الإنس للجن ؟ .

وهل هناك رسل من الجن للجن ؟ .

---

١ ـ سورة الملك : ٦ ـ ١١ .

الإجابة على ذلك نوردها فيما يلي :

١ ـ من المعلوم أن هناك رسلاً من الإنس للإنس ، كما قال سبحانه وتعالى :

إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا

‹١›

وقوله تعالى عن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام :

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

‹٢›

فحصر النبوة والكتاب بعد سيدنا إبراهيم عليه السلام في ذريته ، ولم يقل أحد من الناس : إن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل ثم انقضت عنهم ببعثته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال تعالى :

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

‹٣›

---

١ ـ سورة النساء : ١٦٣ ـ ١٦٥ .

٢ ـ سورة العنكبوت : ٢٧ .

٣ ـ سورة الفرقان : ٢٠ .

وقال تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ ‹١›

إلى غير ذلك من الآيات التي تبين لنا أن الله تعالى قد أرسل رسلاً من الإنس للإنس ‹٢› .

٢ ـ ومن المعلوم أن سيدنا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الرسول الذى أرسله الله إلى الإنس والجن ، كما بين الحق سبحانه وتعالى ذلك في كتابه حيث قال جل ثناؤه :

وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ‹٣›

وقال تعالى :

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ‹٤›

---

١ ـ سورة يوسف : ١٠٩ .

٢ ـ تفسير ابن كثير : (٣ / ١٠٣) .

٣ ـ سورة الأنبياء : ١٠٧ .

٤ ـ سورة الفرقان : ١ .

وقال تعالى :

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢)

‹١›

وقد ذكر لنا الله سبحانه وتعالى أحوال الجن ، وبينها في سورة من سور كتابه العزيز ، وهى سورة « الجن » ، وسميت باسمهم قال تعالى :

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢)

‹٢›

وهناك دلائل أخرى توضـــح عمـــوم رسالته ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى العـالمين المكلفين من الإنس والجن ، فـهو ـ صلى الله عليـه وسلم ـ رسول الثقلين الإنس والجن .

---

١ ـ سورة الأحقاف : ٢٩ ـ ٣٢ .

٢ ـ سورة الجن : ١ ، ٢ .

وعن جابر بن عبد الله ـ رضـــــى الله عنهما ـ قال : لما قرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سورة الرحمن على أصحابه حتى فرغ قال : ما لي أراكم سكوتاً ؟ ! للجنُّ كانوا أحسن منكم رداً ، ما قرأت عليهم من مرة ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إلا قالوا : « ولا بشيء من نعمتك ربنا نكذب فلك الحمد » ‹١› .

٣ ـ ولا نعلم أن رسولاً من الجن أرسل إلى الجن ، حيث لم يأت بذلك كتاب ولا سنة .

٤ ـ ولا نعلم أن رسولاً من الإنس أرسل إلى الجن من قبلُ إلا سيدنا محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو الرسول الذى أرسله الحق سبحانه وتعالى إلى الثقلين الإنس والجن ‹٢› .

وإذا كان ذلك كذلك فكيف نفسر قوله تعالى في هذه الآية :

« يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا » .

---

١ ـ المستدرك على الصحيحين (كتاب التفسير ـ تفسير سورة « الرحمن » ، ٢ / ٤٧٣) .
وقال الحاكم :« صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي والآية من سورة الرحمن :١٣
وأخرجه الترمذي في الجامع الصحيح (أبواب التفسير ، سورة الرحمن ، ٥ / ٧٣ ، ٧٤) .
وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد » .

٢ ـ وتسخير الجن لسيدنا سليمان عليه السلام يفيد أنه كان رسولاً إليهم .

وظاهر الآية يفيد أن هناك رسلاً من الجن أرسلوا إلى الجن ، أو رسلاً من الإنس أرسلوا إليهم ؟

وكيف نفسر أيضاً ما جاء في قوله تعالى :

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا
حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ
(٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ
(٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن
ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ
فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ
فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢)

(١)

فهذه الآية تفيد علمهم برسالة موسى ، وأنهم كانوا يهوداً ، وأن القرآن جاء مصدقاً لما علموه من التوراة ، وأن هؤلاء النفر من الجن الذين استمعوا إلى رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعوا إخوانهم من الجن الذين لم يحضروا مجلس الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الدخول في الإسلام ؟ .

---

١ ـ سورة الأحقاف : ٢٩ ـ ٣٢ .

والإجابة عن ذلك نوردها فيما يلى :

١ ـ أما الجواب عن قوله تعالى : « يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم » .

فالمقصود به جنس الرسل ، الصادق بالواحد ، والمقصود به هنا سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه لم يرسل لهم غيره .

قال الإمام الصاوى في تفسيره لهذه الآية :

« **ألم يأتكم رسل منكم** » (أى من الإنس يبلغونكم عن الله ، ومن الجن يبلغونكم عن الرسل ‹١› .

قال الإمام ابن كثير أيضاً :

« والرسل من الإنس فقط ، وليس من الجن رسل للجن ولا للإنس ، كما نص على ذلك مجاهد وابن جريج ‹٢› وغير واحد من الأئمة من السلف والخلف ؛ وقال ابن عباس : الرسل من بنى آدم ، ومن الجنِ نذُر » ‹٣› .

---

١ ـ حاشية الصاوى على تفسير الجلالين : (٢ / ٤٧) .

٢ ـ ابن جريج هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، أبو الوليد الأموى المكى ، ثقة ثبت فقيه فاضل ، قال ابن المدنى : لم يكن في الأرض أعلم بعطاء من ابن جريج . مات سنة خمسين ومائة وكان مولده سنة ثمانين بمكة .

طبقات ابن سعد (٥ / ٤٩٢) والثقات للعجلى (٣١٠) والتذكرة (١ / ١٦٩) والميزان (٢ / ٦٥٩) والعبر (١ / ١٦٣) والتهذيب (٦ / ٤٠٥) والتقريب (١ / ٥٢٠) وجامع التحصيل (٢٢٩) .

٣ ـ تفسير ابن كثير (٢ / ١٠٢) .

وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم أنه زعم أن في الجن رسلاً ، واحتج بهذه الآية الكريمة ، وفيه نظر ، لأنها محتملة وليست بصريحة ـ والله أعلم .هذا ما قاله ابن كثير نقلاً عن ابن جرير مختصراً . وانظر : جامع البيان (١٢ / ١٢١ ، ١٢٢) .

فرسل الجن هم رسل الرسل الذين أرسلهم الله تعالى من الإنس الذين يستمعون من المواعظ والأحكام ، ويبلغون قومهم ذلك أو يكون قوله تعالى « رسل منكم » من باب التغليب ، كما في قوله تعالى :

مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ‹١›

فاللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من البحر .

فالرسل كما بينا لا يكونون إلا من الإنس كما ذهب إليه جمهور العلماء ‹٢› .

٢ ـ وأما الجواب عن قوله تعالى :

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ‹٣›

فإنه لا يلزم من كون هؤلاء النفر من الجن الذين ذهبوا إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، واستمعوا إليه ، لا يلزم من ذلك أن موسى عليه السلام كان رسولاً إلى هؤلاء الجن ، وقد يكون هؤلاء الجن قد آمنوا حتى ولو لم يرسل إليهم رسل .

قال الإمام الصاوي :

« فلا يلزم من إيمانهم بموسى وسماعهم لكتابه أن يكونوا مكلفين به » ‹٤› .

ثم بعد ذلك بين الله تعالى وظيفة الرسل الذين أرسلهم إلى الفريقين فقال تعالى:« **يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا** » .

---

١ ـ سورة الرحمن : ١٩ ـ ٢٢ .

٢ ـ انظر : تفسير الطبرى جامع البيان : (١٢ / ١٢١) ، وتفسير الخازن : (٢ / ١٥٢) .

٣ ـ سورة الأحقاف : ٢٩ .

٤ ـ حاشية الصاوى على تفسير الجلالين : (٢ / ٤٧) .

يعنى : يخبرونكم بما أوحي إليهم من آياتي الدالة على توحيدى وتصديق رسلي .

« **وينذرونكم لقاء يومكم هذا** » ، يعنى : ويحذرونكم ويخوفونكم لقاء عذابي في يومكم هذا ، وهو يوم القيامة .

وذلك أن الله تعالى يقول يوم القيامة لكفار الجن والإنس على سبيل التقريع والتوبيخ ما أخبر به في كتابه ، وهو قوله : « **يا معشر الجن والإنس** » فيجيبون بما أخبر عنه في قوله تعالى « **قالوا** » يعني : كفار الجن والإنس .

« **شهدنا على أنفسنا** » : أي اعترفوا بأن الرسل قد أتتهم وبلغتهم رسالات ربهم ، وأنذروهم لقاء يومهم هذا ، وأنهم كذبوا الرسل ولم يؤمنوا بهم ، وذلك حين شهدت عليهم جوارحهم بالشرك والكفر .

ثم بين الله عز وجل سبب كفرهم في قوله : « **وغرتهم الحياة الدنيا** » يعنى : إنما كان ذلك بسبب أنهم غرتهم الحياة الدنيا ومالوا إليها <١> .

وقال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية :

« أي وقد فرطوا في حياتهم الدنيا ، وهلكوا بتكذيبهم الرسل ، ومخالفتهم للمعجزات لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها »<٢> .

وأما قوله تعالى : « **وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين** » .

فإن معناه أنهم في يوم القيامة يشهدون على أنفسهم أنهم كانوا في الدنيا كافرين .

---

١ ـ تفسير الخازن : (٢ / ١٥٢) .
٢ ـ تفسير ابن كثير : (٣ / ١٠٣) .

وهنا سؤال ، وهو :

كيف أنهم أقروا على أنفسهم بالكفر في هذه الآية ، وجحدوا الشرك والكفر في آية أخرى ، وهي قوله تعالى : « والله ربنا ما كنا مشركين » ؟ .

الجواب عن ذلك :

أن يوم القيامة يوم طويل ، والأحوال فيه مختلفة ، فقد قال تعالى عنه :

تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ‹١›

فهناك أحوال في يوم القيامة مختلفة ، فإذا رأوا ما حصل للمؤمنين من الخير والفضل والكرامة أنكروا الشرك لعل ذلك الإنكار ينفعهم فقالوا « **والله ربنا ما كنا مشركين** » .

فحينئذ يختم على أفواههم ، وتشهد عليهم جوارحهم بالشرك والكفر ، فذلك قوله تعالى : « **وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين** » .

وهنا سؤال آخر أيضاً ، وهو :

لماذا كرر الله شهادتهم على أنفسهم ؟ .

---

١ ـ سورة المعارج : ٤ .

الجواب عن ذلك :

كرر شهادتهم على أنفسهم لاختلاف المشهود به ، فشهادتهم الأولى اعتراف منهم بما كانوا عليه في الدنيا من الشرك والكفر وتكذيب الرسل ، فشهدوا بتبليغ المرسل لهم .

وشهادتهم الثانية ذَمٌّ لهم ، وتخطئةٌ لرأيهم ، ووصف لقلة نظرهم لأنفسهم ، وأنهم قوم غرتهم الحياة الدنيا ولذاتها فكانت عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر زيادة في التقبيح لحالهم .

والمقصود من ذكر ذلك الاتعاظ به ، وتحذير السامعين من فعل مثل ذلك ، وزجر لهم عن الكفر والمعاصي <١> .

وقوله تعالى : « **ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافلٍ عما يعملون** » .

يبين الله تعالى لنا في هاتين الآيتين الكريمتين أنه لا يظلم الناس بإهلاكهم وإنزال العذاب بهم قبل أن يبين لهم الطريق الذي يجب عليهم أن يسلكوه من أجل النجاة ، وهو طريق الهداية ، ويبين لهم أيضاً الطريق الذي يجب عليهم أن يجتنبوه وهو طريق الضلال .

وهذا البيان إنما هو بواسطة الرسل ، عليهم الصلاة والسلام .

فالله تعالى عادل في حكمه ، لا يظلم أحداً من خلفه ، وهذا كقوله عز وجل :

مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ
وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ <٢>

---

١ ـ تفسير الخازن : (٢ / ١٥٣) بتصرف ، وانظر : حاشية الصاوى على الجلالين : (٢ / ٤٧) .

٢ ـ سورة الإسراء : ١٥ .

وفي هذا دليل على أن الله لا يعذب أهل الفترة ، ولا من لم تبلغهم دعوة الإسلام على وجه يحمل على النظر ، كما قال تعالى في كتابه العزيز :

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ (١)

وكذلك هذه الآية « **ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون** » أي لم ينتبهوا إلى الواجب الذي عليهم ، من الإيمان بالله تعالى واتباع ما جاءت به الرسل .

فالحق سبحانه وتعالى لا يعاقب الكفار بكفرهم إلا بعد ما يقيم الحجة عليهم بإرسال الرسل .

لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (٢)

فالمقصود بإهلاك القرى أهل القرى وليست القرية ذاتها ، أى مهلكون أهلها ومعذبوهم .

وقوله تعالى : « **ولكلٍ درجات مما عملوا** » أي فلكل عامل من هؤلاء وهؤلاء المؤمنين والكافرين ، سواء كانوا إنساً أو جناً ، منازل يبلغها بحسب عمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وسميت « **درجات** » لاختلافهم فيها .

---

١ ـ سورة النساء : ١١٥ .

٢ ـ سورة القصص : ٥٩ .

وقوله تعالى : « **وما ربك بغافل عما يعملون** » : أى أن الله لا يغفل عن هؤلاء ولا عن هؤلاء ، فعلمه سبحانه وتعالى شامل للطائعين والعاصين ، وهذا رأي جمهور المفسرين ، وقد رجحه الخازن فقال : (أى لكل عامل بطاعة الله أو بمعصيته درجات ، يعني منازل يبلغها بعمله ، إن كان خيراً فخير ، وإن كان شراً فشر .

وإنما سميت « درجات » لتفاضلها في الارتفاع والانحطاط ، كتفاضل الدرج ، وهذا إنما يكون في الثواب والعقاب على قدر أعمالهم في الدنيا ، فمنهم من هو أعظم ثواباً ، ومنهم من هو أشد عقاباً ، وذلك لأن علمه سبحانه وتعالى شامل لكل المعلومات ، فيدخل فيه المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، وأنه عالم على التفصيل التام ، فيجزي كل عامل على قدر عمله وما يليق به من ثواب أو عقاب) ‹١› .

ثم قال الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك مبيناً أنه الغنى ذو الرحمة الواسعة لعباده المؤمنين « **وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين . إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين ، قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون** » .

يبين الحق سبحانه وتعالى في هذه الآيات ، ، بعد ما بين في الآيات السابقة منازل الطائعين والعاصين أنه غنى عن خلقه فلا تضره معصية العاصين ، ولا تنفعه طاعة الطائعين ، وإنما الضرر أو النفع يرجع إلى العباد أنفسهم قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ ﴿١٥﴾ ‹٢›

---

١ ـ تفسير الخازن : (٢ / ١٥٣) .

٢ ـ سورة فاطر : ١٥ .

قال الخازن في تفسير قوله تعالى : (« **وربك الغني** » يعني عن خلقــــه ، وذلك أنه تعالى لما بيّن أن لكل عامل بطاعة الله أو معصيته درجة على قدر عمله .

بين أن تخصيص المطيعين بالثواب والعاصين بالعقاب ليس لأنه محتاج إلى طاعة المطيع ، أو منتقص بمعصية العاصي ، بل هو الغني على الإطلاق ، وأن جميع الخلق فقراء إليه) <١> .

وقد جاء في حديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يثبت ذلك ، فعن أبي ذر <٢> ، عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : « ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرّما فلا تظالموا ، ياعبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، ياعبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، ياعبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، ياعبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم ، ياعبادي إنكم لن تبلغوا ضرى فتضروني ، ولن تبلغو نفعي فتنفعوني ، ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني ، فأعطيت كل إنسانٍ مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، ياعبادي

---

١ ـ تفسير الخازن : (٢ / ١٥٣) .

٢ ـ أبو ذر الغفاري : هو جندب بن جنادة بن قيس بن عمرو ، تقدم إسلامه ، وتأخّرت هجرته ، فلم يشهد بدراً ، وكان يوازي ابن مسعود في العلم ، وكان لا يأخذه في الله لومة لائم . مات بالربذة سنة (٣٢هـ) .

الاستيعاب (٤ / ١٦٥٢) وأسد الغابة (٦ / ٩٩) والإصابة (٤ / ٦٢) وسير أعلام النبلاء (٢ / ٤٦) والتذكرة (١ / ١٧) والعبر (١ / ٢٤) والتهذيب (١٢ / ٩٠) والتقريب (٢ / ٤٢٠) .

إنما هـي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمـن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » <١> .

وقوله تعالى : « **ذو الرحمة** » قال ابن عباس : بأوليائه وأهل طاعته .

وقال الكلبى : بخلقه ذو التجاوز عنهم ، فمن رحمته تأخير العذاب عن المذنبين لعلهم يتوبون ويرجعون <٢> .

فالحق سبحانه وتعالى واسع الرحمـة ، ورحمتـه قد وسعـت كل شيء ، فهو صاحب الرحمة الواسعة الشاملة :

١ ـ فمن رحمته أنه أرسل الرسل وأنزل الكتب .

قال تعالى :

وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ <٣>

وقال عز من قائل :

وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ
أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ
هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى
وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٨٩﴾ <٤>

---

١ ـ صحيح مسلم (كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم ، ٤ / ١٩٩٤ ، ١٩٩٥) .

٢ ـ تفسير الخازن : (٢ / ١٥٢) .

٣ ـ سورة الأنبياء : ١٠٧ .

٤ ـ سورة النحل : ٨٩ .

٢ ـ ومن رحمته أنه لا يعاقب الكفار والعصاه قبل أن تبلغهم الدعوة .

قال تعالى : ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ ‹١›

٣ ـ ومن رحمته أنه يقبل توبة التائبين ويتجاوز ويعفو عن كثير من السيئات .

قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ ‹٢›

وقال تعالى : ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾ ‹٣›

٤ ـ ومن رحمته أنه تعالى يبسط الرزق لعباده .

قال تعالى :

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ ‹٤›

---

١ ـ سورة الإسراء : ١٥ .

٢ ـ سورة الشورى : ٢٥ .

٣ ـ سورة الشورى : ٣٠ ـ ٣٤ .

٤ ـ سورة الإسراء : ٣٠ .

وقال تعالى : لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ
يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

<١>

وقال تعالى :

ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾

<٢>

٥ ـ ومن رحمته أنه لا يعجل بعقوبة من يستحق العقوبة .

قال تعالى :

وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ
ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾

<٣>

وقد وصف الحق سبحانه وتعالى نفسه بأنه الرحمن الرحيم ، وأنه بالناس رؤوف رحيم .

فقال تعالى : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟
شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا
جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ
مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ
هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ
لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

<٤>

---

١ ـ سورة الشورى : ١٢ . وقوله : « له مقاليد السموات والأرض » أى مفاتيح خزائنهما من المطر والنبات وغيرهما . تفسير الجلالين : (٤٠٦) .

٢ ـ سورة الشورى : ١٩ .

٣ ـ سورة الكهف : ٥٨ .

٤ ـ سورة البقرة : ١٤٣ .

وقال عز وجل :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ
بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۚ إِنَّ
ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾
<١>

وقال عز من قائل :

نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي
<٢>
هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

وقال سبحانه وتعالى :

قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن
رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ
<٣>

وقال تعالى :

ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ
لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا
فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾
رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ
مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾
<٤>

---

١ ـ سورة الحج : ٦٥ .

٢ ـ سورة الحجر : ٤٩ ، ٥٠ .

٣ ـ سورة الزمر : ٥٣ .

٤ ـ سورة غافر : ٧ ـ ٩ .

إلى غير ذلك من الآيـات الكريمة التي تبين وتوضح رحمـة الله تعالى بخلقه .

ومما جاء في ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله يقول : « جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعةً وتسعين جزءاً ، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء يتراحـم الخلق حتى ترفع الفـــرس حافرهـــا عن ولدهـــا خشيـــة أن تصيبه » ‹١› .

وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن لله مائة رحمـة أنزل منها رحمـة واحدة بين الجن والإنس والبهائـــم والهـــوام ، فبهـــا يتعاطفـــون ، وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحش على ولدها ، وأخرٌ الله تسعاً وتسعين رحمةً يَرحمُ بها عِباده يوم القيامة » ‹٢› .

وقوله تعالى : « **إن يشأ يذهبكـم ويستخلـــف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين** » .

فالله تعالى يهدد هؤلاء الكافرين المعاندين المخالفين لأمره ، ويبين لهم أنه قادر على إهلاكهم واستخلاف غيرهم من بعدهم ، كما أهلـــك مـــن سبقوهـــم من الأقوام السابقين ، كعاد وثمود وغيرهم ، حينما جحدوا بآيـات ربهـــم ، ثم استخلف من بعدهم قوماً آخرين أسرع استجابةً للدعوة ، وأخضع لحمل الإسلام ، وهذا وعد الله الذي وعد به قد تحقق فعلاً .

---

١ ـ صحيح البخارى (كتاب الأدب ، باب جعل الله الرحمه مائه جزء ، ٨ / ٩) .
وصحيح مسلم (كتاب الثوية ، باب في سعه رحمه الله تعالى وأنها سبقت غضبه ، ٤ / ٢١٠٨) .

٢ ـ صحيح مسلم (كتاب التوية ، باب في سعه رحمه الله تعالى وأنها سبقت غضبه ، ٤ / ٢١٠٨) .

قال الإمام المراغي : « وقد صدق الله وعده فأهلك أولئك الذين عادوا خاتم رسله كبراً وعناداً وجحوداً بما جاء به ، وهم يعلمون صدقه ، واستخلف في الأرض غيرهم ممن كان كفرهم عن جهل أو تقليد لمن قبلهم ، ولم يلبث أن زال بالتأمل في آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم ، فكانوا أكمل الناس إيماناً وإسلاماً وإحساناً ، وهم المهاجرون والأنصار وذرياتهم ، وكانوا أعظم مظهر لرحمة الله للبشر حتى في حروبهم وفتوحهم ، وشهد لهم بذلك أعداؤهم ، حتى قال مؤرخو الإفرنج : ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب ‹١› .

وهذه الآية الكريمة ، وهي قول الحق سبحانه وتعالى : « **وربك الغنى ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين** » .

كالآية السابقة في السورة نفسها وهي قوله عز من قائل :

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾

‹٢›

وقد وردت آيات أخرى يخبر الحق تعالى فيها عن هلاك الأقوام السابقين وإنشاء أقوام غيرهم .

---

١ ـ تفسير المراغي : (٨ / ٢٨) .

٢ ـ سورة الأنعام : ٦ .

كما في قوله عز من قائل :

وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ‹١›

وقوله تعالى :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ‹٢›

ثم بعد ما أنذرهم الحق سبحانه وتعالى بعذاب الدنيا وهلاكهم فيها ، أنذرهم بعذاب الآخرة فقال تعالى : « **إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين** » : أى إنما توعدون من الجزاء بعد مجيء الساعة والبعث بعد الموت والحشر للحساب لآتٍ ، وأنه كائن قريب لا مرد له ، وأنكم لا تعجزون الله بهرب ولا امتناع مما يريد ، فهو سبحانه القادر على إعادتكم كما قدر على بَدء خلقكم ، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وهو على كل شيء قدير .

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية الكريمة « **إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين** » : (أى أخبرهم يامحمد أن الذى يوعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة .

« **وما أنتم بمعجزين** » : أى ولا تعجزون الله ، بل هو قادر على إعادتكم وإن صرتم تراباً ورفاتاً وعظاماً ، هو قادر لا يعجزه شيء) ‹٣› .

---

١ ـ سورة القصص : ٥٩ .

٢ ـ سورة إبراهيم : ١٩ ، ٢٠ .

٣ ـ تفسير ابن كثير : (٣ / ١٠٥) .

وقال الخازن أيضاً في تفسيره لهذه الآية الكريمة : (قوله تعالى « **إنما توعدون** » به من مجيء الساعة والبعث بعد الموت والحشر للحساب يوم القيامة « لآت » يعني أنه كائن قريب .

« **وما أنتم بمعجزين** » يعني بفائتين حيثما كنتم يدركم الموت » <١> .

يشير إلى قوله تعالى : أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ <٢>

وليس الموت هو النهاية ، بل هناك الحساب والجزاء بالثواب العظيم بالجنة والنعيم والمقيم ، أو العقاب بالنار والعذاب الأليم في جهنم أعاذنا الله من ذلك .

وقوله عز من قائل : « **قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون** » .

في هذه الآية الكريمة تهديد من الحق سبحانه وتعالى لقوم قريش المكذبين له فيقول لهم : « **اعملوا على مكانتكم** » : أي استمروا على ما أنتم عليه من الكفر والتكذيب والعصيان ، وأنا أستمر على ما أنا عليه من الإيمان والعمل الصالح والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، وستظهر نتيجة عملي وعملكم ، وإن نتيجة عملكم هي خسارة الدنيا والآخرة ، وإن نتيجة عملي هي الفوز في الدنيا والآخرة ، فقوله تعالى : « **ياقوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون** » .

ليست تفويضاً لهم في البقاء على ما هم عليه من الكفر والعصيان ، وإنما هو تهديد ووعيد لهم .

كما في قوله تعالى في آية أخرى :

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ۚ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ <٣>

---

١ ـ تفسير الخازن : (٢ / ١٥٤) .

٢ ـ سورة النساء : ٧٨ .

٣ ـ سورة فصلت : ٤٠ .

وقال تعالى :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾

‹١›

ثم أخبر سبحانه وتعالى بعد ذلك بأن الظلم نتيجته الخسران ، وهذه قاعدة عامة تطبق على الظالمين في كل زمان ومكان ، فالظالم لا يُفلح أبداً .

قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

‹٢›

وقال تعالى :

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ ﴾ ‹٣›

وقد حدث ما أخبر الله به من نصرة الإسلام وأهله ، وخذلان الكفر وأهله .

---

١ ـ سورة الكهف : ٢٩ .

٢ ـ سورة يونس : ١٣ .

٣ ـ سورة الأنبياء : ١١ .

قال الإمام ابن كثير في تفسيره : « وقد أنجز الله موعده لرسوله صلوات الله عليه ، أي فإنه تعالى مكنه في البلاد ، وحكمه في نواصي مخالفيه من العباد ، وفتح له مكة ، وأظهره على منْ كذبه من قومه وعاداه وناوأه واستقر أمره على سائر جزيرة العرب ، وكذلك اليمن والبحرين ، وكل ذلك في حياته ، ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق ‹١› بعد وفاته في أيام خلفائه رضى الله عنهم أجمعين .

كما قال تعالى :

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ ‹٢›

وقال تعالى :

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾

‹٣›

وقال تعالى إخباراً عن رسله :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾

‹٤›

---

١ ـ الرساتيق : جمع رستاق وهو البيوت المجتمعة وقيل : الصف وهو فارسي معرب (اللسان/ رستق).

٢ ـ سورة المجادلة : ٢١ .

٣ ـ سورة غافر : ٥١ .

٤ ـ سورة إبراهيم : ١٣ ـ ١٥ .

وقال تعالى :

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾

‹١›

قوله : « **قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار أنه لا يفلح الظالمون** » .الخطاب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أي قل يامحمد لقومك من كفار قريش .

وقوله : « **اعملوا على مكانتكم** » قرىء : « **مكاناتكم** » على الجمع ، والمكانة تكون مصدراً يقال : مَكُنَ مكانةً ، إذا تمكن أبلغ التمكن ، وبمعنى : المكان ، يقال : مكان ومكانة ، كما يقال : مقام ومقامة .

فقوله : « **اعملوا على مكانتكم** » ، يحتمل : أن يكون معناه : اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم .

ويحتمل : أن يكون معناه : اعملوا على حالتكم التي أنتم عليها ، كما يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حاله : مكانتك يافلان ، أي اثبت على ما أنت عليه لا تتغير عنه .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ـ : معناه : اعملوا على ناحيتكم .

---

١ ـ سورة النور : ٥٥ .

وانظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣ / ١٠٥ ، ١٠٦) .

« **إنى عامل** » يعنى إنى عامل على مكانتى التي أنا عليها ، وما أمرنى به ربى .

والمعنى : اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة فإنى ثابت على الإسلام والمصابرة ‹١› .

وقال الخازن : (فإن قلت : ظاهر الآية يدل على أمر الكفار بالإقامة على ما هم عليه من الكفر وذلك لا يجوز .

قلت : معنى هذا الأمر الوعيدُ والتهديد والمبالغة في الزجر عما هم عليه من الكفر ، فكأنه قال : أقيموا على ما أنتم عليه من الكفر إن رضيتم لأنفسكم بالعذاب الدائم ، فهو كقوله تعالى :

ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ ‹٢›

ففيه تفويض أمر العمل إليهم على سبيل الزجر والتهديد وليس فيه إطلاق لهم في عمل ما أرادوه من الكفر والمعاصى .

وقوله تعالى:« **فسوف تعلمون** » يعنى لمن تكون العاقبة المحمودة لنا أو لكم .

وقيل : معناه : فسوف تعلمون عند نزول العذاب بكم أينا كان على الحق في عمله نحن أم أنتم ؟ .

« **من تكون له عاقبة الدار** » يعنى فسوف تعلمون غداً يوم القيامة لمن تكون عاقبة الدار وهى الجنة .

« **إنه لا يفلح الظالمون** » قال ابن عباس معناه : لا يسعد من كفر بى وأشرك) ‹٣› .

---

١ ـ تفسير الخازن : (٢ / ١٥٤) بتصرف .

٢ ـ سورة فصلت : ٤٠ .

٣ ـ تفسير الخازن : (٢ / ١٥٤) .

* بيان آيات الساعة الصغرى والكبرى :

قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ ‹١›

معاني الكلمات :

« **هل ينظرون** » : أى هـل ينتظرون ، فالاستفهـام بمعـنى النفى « ما » أى ما ينتظرون .

« **إلا أن تأتيهم الملائكة** » : أى لقبض أرواحهم .

« **أو يأتى بعض آيات ربك** » : أى علاماته الدالة على قيام الساعة .

« **يوم يأتى بعض آيات ربك** » : وهى طلوع الشمس من مغربها .

« **لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل** » : أى لم تؤمن من قبل ذلك .

« **أو كسبت في إيمانها خيراً** » : أى عملت عملاً صالحاً مع هذا الإيمان فتنتفع به .

« **قل انتظروا** » : أى أحد هذه الأمور الثلاثة ‹٢› .

---

١ ـ سورة الأنعام : ١٥٨ .

٢ ـ تفسير الجلالين : (١٢٢) .

المعنى الإجمالي لهذه الآية الكريمة :

يبين الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة أن هؤلاء الكافرين المكذبين إذا لم يبادروا إلى الإيمان ولم يتعجلوه قبل مجيء الحالات التي لا ينفع الإيمان ، فإنه لا ينفعهم إيمانهم بعد ذلك .

وهذه الحالات هي :

١ ـ إتيان الملائكة .

٢ ـ أو إتيان الرب عز وعلا .

٣ ـ أو إتيان بعض آيات الله تعالى .

فحينما يصدر عنهم الإيمان في مثل هذه الحالة يكون إيمانهم إيمان المضطر ، ولا اختيار للمؤمن فيه ، لأن إيمان المضطر لا يُعتد به ، وذلك كإيمان فرعون حين أدركه الغرق .

التوضيح للآية الكريمة :

قوله عز من قائل : « **هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعضُ آيات ربك** » : أي هؤلاء الذين كفروا بالله وبرسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ولم يؤمنوا واستمروا على ما هم عليه من الكفر والتكذيب ، ولم يتحولوا عن ما هم عليه إلا بعد أن تظهر لهم إحدى الآيات الثلاث وهي :

إتيان الملائكة .

أو إتيان الرب جل ثناؤه .

أو إتيان بعض آيات الساعة الكبرى (١) .

---

١ ـ آيات الساعة نوعان : صغرى وكبرى :

أما الآيات الصغرى : فهى التى تسبق ظهور الآيات الكبرى ، ومعظمها يدور حول فساد الناس في آخر الزمن ، وظهور الفتن بينهم ، وبعدهم عن هدى الله وطريق الحق الذى وضحه لهم صلى الله عليه وسلم ومن هذه الآيات ما ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الصحيحة ، ففي الحديث الذى رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه .

أن جبريل عليه السلام لما جاء في صورة بشر سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الساعة . قال : متى الساعة ؟ قال : (ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربها ، وإذا تطاول رعاة الإبل في البنيان ، في خمس لا يعلمهن إلا الله ، ثم تلا النبى صلى الله عليه وسلم . « إن الله عنده علم الساعة » الآية . ثم أدبر فقال « ردوه » . فلم يروا شيئاً ، فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم) .

(صحيح البخارى ، كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبى صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام ... الخ ، ١ / ٢٠) . والآية من سورة لقمان : ٣٤ .

وفي رواية أخرى :

(إذا ولدت المرأة ربتها فذاك من أشراطها ، وإذا كان الحفاة العراة رؤوس الناس فذاك من أشراطها ، في خمس لا يعلمها إلا الله « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، ثم انصرف الرجل ، فقال : « ردوا علىّ » ، فأخذوا ليردوا فلم يروا شيئاً ، فقال : هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم) .

صحيح البخارى (كتاب التفسير ، باب « إن الله عنده علم الساعة » ، ٦ / ١٤٤) .

وصحيح مسلم (كتاب الإيمان ، ١ / ٣٩) . واللفظ للبخارى ، والآية من سورة لقمان :٣٤ .

وروى البخارى بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه : قال : لأحدثنكم حديثاً لا يحدثكم أحد بعدى ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أشراط الساعة أن يقل العلم ، ويظهر الجهل ، ويظهر الزنا ، وتكثر النساء ، ويقل الرجال ، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد » .

صحيح البخارى (كتاب العلم ، باب رفع العلم وظهور الجهل ، ١ / ٢٠ ، ٢١) .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون حتى يختبىء اليهودى من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يامسلم ياعبد الله ، هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله ، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود » .

صحيح مسلم (كتاب الفتن وأشراط الساعة ، ٤ / ٢٢٣٩) .

فأما إتيان الملائكة : فإنها تأتى لقبض أرواحهم عند انتهاء آجالهم ، وعند ذلك تتضح لهم الحقيقة التي كانت غائبةً عنهم ، كما يقول الحق سبحانه وتعالى :

وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ‹١›

وكما يقول عز من قائل :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ
أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ
ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم
مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ
إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن
يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١١﴾

‹٢›

ويقول تعالى :

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ
ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ
هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾

‹٣›

---

١ ـ سورة ق : ١٩ .

٢ ـ سورة المنافقون : ٩ ـ ١١ .

٣ ـ سورة المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠ .

وأما إتيان الرب سبحانه وتعالى : فالمقصود به الإتيان من أجل الحكم والفصل بين الخلق يوم القيامة عند الحساب .

وهل الإتيان حقيقة أو مجازٌ ؟ .

والظاهر أنه حقيقة بالكيفية التي يعلمها الله سبحانه وتعالى والتي لا علم لنا بها .

وقد اختلف العلماء في معنى الإتيان ، والذى نختاره مذهب السلف ، والذى قرره الإمام الخازن في تفسيره عند قوله تعالى :

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ‹١›

قال : « إن هذه الآية من آيات الصفات ، وللعلماء في آيات الصفات وأحاديث الصفات مذهبان :

أحدهما : وهو مذهب سلف هذه الأمة وأعلام أهل السنة :

الإيمان والتسليم لما جاء في آيات الصفات وأحاديث الصفات ، وأنه يجب علينا الإيمان بظاهرها ، ونؤمن بها كما جاءت ، ونكل علمها إلى الله تعالى وإلى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع الإيمان والاعتقاد بأن الله تعالى منزه عن سمات الحدوث وعن الحركة ـ والسكون،قال الكلبى : هذا من المكتوم الذى لا يفسر .

---

١ ـ سورة البقرة : ٢١٠ .

وقال سفيان بن عيينة ‹١› : كل ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره قراءته والسكوت عليه ، ليس لأحد أن يفسره إلا الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وكان الزهرى والأوزاعى ‹٢› ومالك ‹٣› وابن المبارك ‹٤›

---

١ ـ سفيان بن عيينة بن أبى عمران ميمون الهلالى ، أبو بكر محمد الكوفى ، ثقة ثبت حافظ إمام حجة ، واسع العلم كبير القدر . قال الشافعى : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز . توفى سنة ١٩٨هـ وكان مولده سنة ١٠٧هـ .

انظر : طبقات ابن سعد (٥ / ٤٩٧) والثقات للعجلى (١٩٤) ومقدمة الجرح والتعديل (١ / ٣٢) وحلية الأولياء (٧ / ٢٧٠) وتاريخ بغداد (٩ / ١٧٤) والتذكرة (١ / ٢٦٢) والميزان (٢ / ١٧٠) والتهذيب (٤ / ١١٧) .

٢ ـ الأوزاعى : هو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد ، أبو عمرو الدمشقى ، ثقة جليل إمام فقيه ، حافظ حجة ، متفق على ثقته وجلالته . قال الذهبى : كان أهل الشام ثم أهل الأندلس على مذهب الأوزاعى مدة من الدهر ، ثم فنى العارفون به ، وبقى منه ما يوجد في كتب الخلاف . ولد سنة ٨٨هـ ، ومات سنة ١٥٧هـ مرابطاً ببيروت .

انظر : طبقات ابن سعد (٧ / ٤٨٨) والثقات للعجلى (٢٩٦) وسير أعلام النبلاء (٧/ ١٠٧) والتذكرة (١ / ١٧٨) والميزان (٢ / ٥٨٠) والتهذيب (٦/ ٢٣٨) .

٣ ـ مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحى ، أبو عبد الله المدنى ، إمام دار الهجرة ، صاحب الموطأ ، ورأس المتقين وكبير المتثبتين ، اتفقت الأئمة على أنه حجة . ولد سنة ٩٣هـ وتوفى سنة ١٧٩هـ .

انظر : التاريخ الكبير للبخارى (٣ / ١ / ٣١٠) ومقدمة الجرح والتعديل (١ / ١١) وحلية الأولياء (٦/ ٣١٦) والانتقاء لابن عبد البر (٨ / ٦٣) والتذكرة (١ / ٢٠٧) والعبر (١ / ٢١٠) والتهذيب (١٠ / ٥) .

٤ ـ ابن المبارك : هو عبد الله بن المبارك بن واضح المروزى ، أبو عبد الرحمن الحنظلى ، شيخ خرسان ، إمام حجة ، ثقة ثبت ، فقيه عالم جواد مجاهد ، جمعت فيه خصال الخير ، ولد سنة ١١٨هـ ومات سنة ١٨١هـ .

انظر : طبقات ابن سعد (٧ / ٣٧٢) والثقات للعجلى (٢٧٥) ومقدمة الجرح والتعديل (٢٦٢) وتاريخ بغداد (١٠ / ١٥٢) والتذكرة (١ / ٢٧٤) والتهذيب (٥ / ٣٨٢) .

وسفيان الثورى <١> والليث بن سعد <٢> وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه <٣> يقولون في هذه الآية وأمثالها : أقرؤها كما جاءت بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل .

هذا مذهب أهل السنة ومعتقد سلف الأمة <٤> .

أما المذهب الثاني فإننا نذكره لتمام الفائدة ، وإن كان المذهب الأول هو المذهب الصحيح الذى عليه سلف الأمة .

---

١ ـ سفيان الثورى : هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى ، أبو عبد الله الكوفى ، أمير المؤمنين في الحديث ، ثقة حافظ فقيه ، متقن عابد ، إمام حجة ، كثير الحديث متفق على جلالته ، ولد سنة ٩٧هـ ومات سنة ١٦١هـ .

انظر : طبقات ابن سعد (٦ / ٣٧١) والثقات للعجلى (١٩٠) ومقدمة الجرح والتعديل (٥٥) وحلية الأولياء (٦ / ٣٥٦) وتاريخ بغداد (٩ / ١٥١) ووفيات الأعيان (٢ / ٣٨٦) والتذكرة (١ / ٢٠٣) والتهذيب (٤ / ١١٢) .

٢ ـ الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمى ، أبو الحارث المصرى ، ثقة ثبت حجة فقيه إمام مشهور ، من نظراء مالك . وكان دخل الليث كل سنة ثمانين ألف دينار ، فما وجبت عليه زكاة لكرمه وسخائه ، مات في سنة ١٧٥هـ ، وله إحدى وثمانون سنة .

انظر : طبقات ابن سعد (٧ / ٥١٧) والجرح والتعديل (٧ / ١٧٩) وحلية الأولياء (٧ / ٣١٨) وسير أعلام النبلاء (٨ / ٣٦) والتذكرة (١ / ٢٢٤) ووفيات الأعيان (٤ / ١٢٧) والتهذيب (٨ / ٤٥٩) .

٣ ـ إسحاق بن راهويه : هو إسحاق بن ابراهيم بن مخلد ابراهيم أبو يعقوب الحنظلى المعروف بابن راهويه المروزى ، ثقة إمام من أئمة المسلمين ، لا أعرف له بالعراق نظيراً مات سنة ٢٣٨هـ وله سبع وسبعون سنة .

انظر : تاريخ بغداد (٦ / ٣٤٥) وحلية الأولياء (٩ / ٢٣٤) والوفيات (١ / ١١٩) واللباب (١ / ٣٩٦) وسير أعلام النبلاء (١١ / ٣٥٨) والتذكرة (٢ / ٤٣٣) والتهذيب (١ / ٢١٦) .

٤ ـ تفسير الخازن (١ / ١٦٦) .

قال الإمام الخازن في تقرير المذهب الثاني : « وهو قول جُمهور علماء المتكلمين ، وذلك أنه أجمع جميع المتكلمين من العقلاء ، والمعتبرين من أصحاب النظر ، على أنه تعالى منزه عن المجيء والذهاب ، ويدل على ذلك أن كل ما يصح عليه المجيء والذهاب لا ينفك عن الحركة والسكون ،وهما محدثان ،وما لا ينفعك عن المحدث فهو محدث .

والله تعالى منزه عن ذلك فيستحيل ذلك في حقه تعالى ، فثبت بذلك أن ظاهر الآية ليس مراداً ، فلابد من التأويل على سبيل التفصيل ، فعلى هذا «**هل**» في معنى الآية « **هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله** » الآيات ، فيكون مجيء الآيات مجيئاً لله تعالى على سبيل التفخيم لشأن الآيات .

وقيل : معناه : إلا أن يأتيهم أمر الله ، ووجه هذا التأويل أن الله تعالى فسر في آية أخرى فقال : هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ <١>

فصار هذا الحكم مفسراً لهذا المجمل في هذه الآية .

وقيل : معناه : يأتيهم الله بما أوعد من الحساب والعقاب ، فحذف ما يأتي به تهويلاً عليهم ، إذ لو ذكر ما يأتى به كان أسهل عليهم في باب الوعيد ، وإذا لم يذكر كان أبلغ .

وقيل : يحتمل أن تكون « الفاء » بمعنى « الباء » لأن بعض الحروف يقوم مقام بعض فيكون المعنى : هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله بظلل من الغمام والملائكة والمراد العذاب الذى يأتى من الغمام مع الملائكة .

---

١ ــ سورة النحل : ٣٣ .

وقيل : معناه : ما ينظـــرون إلا أن يأتيهـــم قهر الله وعذابه في ظلل من الغمام .

فإن قلت : لم كان إتيان العذاب في الغمام ؟ .

قلت : لأن الغمام مظنة الرحمة ، ومنه ينزل المطر ، فإذا نزل منه العذاب كان أعظم وأفظع .

وقيل : إن نزول الغمام علامة لظهور القيامة وأهوالها » <١> .

وأما إتيان بعض آيات ربك .

فقال جُمهور المفسرين : هو طلوع الشمس من مغربها <٢> .

ويدل على ذلك ما ورد في الأحاديث الصحيحة .

فقد أخرج الشيخان بسنديهمـــا عن أبى هريـــرة رضـــى اللـــه عنـــه قـــال : قـــال رســـول اللّـــه ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا تقـوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا رآها الناس آمـــن من عليهـــا ، فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل » .

وأخرجا أيضاً عنه قـــال : قال رســـول الله ـ صلى الله عليه وسلـــم ـ « لا تقـــوم الساعـــة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها ، ثم قرأ الآية » <٣> .

---

١ ـ لباب التأويل في معانى التنزيل (١ / ١٦٦ ، ١٦٧) .

٢ ـ انظر : تفسير الطبرى : (١٢ / ٢٤٥) ، وكذلك تفسير الخازن : (٢ / ١٦٧) .

٣ ـ صحيح البخارى (كتاب التفسير ، باب سورة الأنعام ، ٦ / ٧٣) .

وصحيح مسلم (كتاب الإيمان ، باب الزمن الذى لا يقبل فيه إيمان ، ١ / ١٣٧) واللفظ للبخارى .

وأخرج الإمام مسلم بسنده عن عبد الله بن عمرو ، قال : حفظت من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حديثاً لم أنسَهُ بَعْدُ . سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « إن أول الآيات خروجاً ، طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضُحى ، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها ، فالأخرى على إثرها قريباً » ‹١›
وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا ، طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ودابة الأرض ‹٢› .

وقد وردت روايات كثيرة في الآيات التي ستظهر قبل يوم القيامة أوصلها بعضهم إلى عشرة .

فعن حُذيفة بن أَسِيدٍ الغِفَارىّ ‹٣› قال : اطلع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ علينا ونحن نتذاكر فقال : « ما تذاكرون ؟ »

---

١ ـ صحيح مسلم (كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض ... الخ ، ٤ / ٢٢٦٠) .

٢ ـ صحيح مسلم (كتاب الإيمان ، باب الزمن الذى لا يقبل فيه إيمان ، ١ / ١٣٨) .

و« دابة الأرض » قيل : إنها حيوان بخلاف ما نعرفه ، يختص خروجها بحين القيامة (مفردات الراغب ـ دبب) .

وخروج الدابة غيب من الغيوب ، فيجب علينا الوقوف عندما أخبر به القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، ولم يأت فيهما سوى أنه دابة ستخرج وتكلم الناس وذلك من أمارات الساعة .

قال عز من قائل : « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » ، سورة النمل : ٨٢ .

٣ ـ حذيفة بن أسِيد الغِفَارى أبو سُرَيْحَة . شهد الحديبية وقيل : إنه بايع تحت الشجرة ، وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعلى ، وأبى ذر ، توفى سنة ٤٢هـ . انظر : الثقات للعجلى (١١١) والجرح والتعديل (٣/٢٥٦) والثقات لابن حبان (٣/٨١) والإصابة (١/٣١٧) والتهذيب (٢ / ٢١٩) .

قالوا : نذكر الساعة قال : « إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات » فذكر الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى ابن مريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف ، خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب . وآخر ذلك « نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم » <١> .

ونختار ما اختاره الإمام الخـــازن في أن أصـــح الأقـــوال فـــي ذلك ما تظاهـــرت عليـــه الأحاديـــث الصحيحـــة ، وثبـــت عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه طلوع الشمس من مغربها .

وقوله تعالى : « **يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل** » : يعني لا ينفع من كان مشركاً إيمانه ، ولا تقبل توبة فاسق عند ظهور هذه الآية العظيمة التي تضطرهم إلى الإيمان والتوبة .

« **أو كسبت في إيمانها خيراً** » يعني : أو عملت قبل ظهور هذه الآية خيراً من عمل صالح وتصديق .

---

١ ـ صحيح مسلم (كتاب الفتن وأشرط الساعة ـباب الآيات التي تكون قبل الساعة،٤ / ٢٢٢٥ ، ٢٢٢٦) .

و« يأجوج ومأجوج » قد اختلف العلماء في تعيينهم وفي وصفهم ، والذى يعنينا من أمرهم أن يأجوج أمة من الناس ، وكذلك مأجوج ، يخرجهم الله في آخـــر الزمن ، كمـــا أخبر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم عنهم ، وخروجهم علامة من علامات الساعة . قال تعالى عنهم : « حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكاد يفقهون قولاً . قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً . قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما . آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتونى أفرغ عليه قطراً . فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً . قال هذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقاً » ، سورة الكهف : ٩٢ ـ ٩٨ . وقال تعالى : « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون . واقترب الوعد الحق فإذا هى شاخصة أبصار النين كفروا ياويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين » ، سورة الأنبياء : ٩٦، ٩٧.

قال الضحاك : من أدركه بعض الآيات وهو على عمل صالح مع إيمانه قبل الله منه العمل الصالح بعد نزول الآية كما قبل منه قبل ذلك ، فأما من آمن من مشرك أو تاب من معصية عند ظهور هذه الآية فلا يقبل منه ، لأنها حالة اضطرار ، كما لو أرسل الله عذاباً على أمة فآمنوا وصدقوا ، فإنهم لا ينفعهم إيمانهم ذلك لمعاينتهم الأهوال والشدائد التي تضطرهم إلى الإيمان والتوبة <١> .

وقال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية الكريمة : « **لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل**» :(أي إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه ، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك ،فإن كان مصلحاً فهو بخير عظيم ،وإن لم يكن مصلحاً فأحدث توبة فحينئذٍ لم تقبل منه توبته كما دلت عليه الأحاديث .

وعليه يحمل قوله تعالى : « **أو كسبت في إيمانها خيراً** » : أي ولا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك) <٢> .

والله سبحانه وتعالى بين لنا حقيقة ذلك حين آمن فرعون لَمَّا أدركه الغرق فلم يكن ينفعه إيمانه هذا ، حيث إنه آمن إيماناً اضطرارياً .

قال عز من قائل عنه :

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ <٣>

---

١ ـ تفسير الخازن : (٢ / ١٦٨) .

٢ ـ تفسير القرآن العظيم : (٣ / ١٣٤) .

٣ ـ سورة يونس : (٩٠ ـ ٩٢ .

وفي أحاديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يثبت ذلك ويوضحه :

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال :قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه » <١> .

وروى الإمام الترمذى بسنده عن زرٍّ بن حُبَيْشٍ <٢> قال : « أتيت صفوان بن عَسَّالٍ المُرَادِيَّ <٣> أسأله عن المسح على الخفين فقال : ما جاء بك يازرُّ ؟ فقلت : ابتغاءُ العلم » ـ ثم ذكر له مسائل كثيرة في العلم ـ .

« فما زال يحدثنا حتى ذكر باباً من قِبَل المغرب مسيرة عرضه أو يصير الراكب في عرضه أربعين أو سبعين عاماً قال سفيان : قِبَلَ الشام خلقه الله يوم خلق السموات والأرض مفتوحاً ، يعنى للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه » .

كما روى عن زرٍّ بن حُبَيْشٍ قال : أتيت صفوان بن عسال المرادى فقال : ما جاء بك ؟ ، قلت : إبتغاء العلم ، قال : بلغنى أن الملائكة ـ تضع اجنحتها لطالب العلم رضا بما يفعل » ـ ثم ذكر له مسائل كثيرة في العلم ـ .

---

١ ـ صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء والتوبة ، باب استحباب الاستغفار ، ٤ / ٢٧٠٦) .
وقوله : « تاب الله عليه » . معناه : قبل الله توبته ورضى بها .

٢ ـ زر بن حبيش بن حُباشة بن أوس بن بلال الاسدي ، أبو مريم الكوفى ، تابعى مخضرم ثقة جليل ، كان عالماً بالقرآن والعَربيَّة قارئا فاضلاً ، مات سنة ٨١هـ أو بعدها وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة .
طبقات ابن سعد (٦ / ١٠٤) والثقات للعجلى (١٦٥) والجرح والتعديل (٣ / ٦٢٢) وسير أعلام النبلاء (٤ / ١٦٦) والتذكرة (١ / ٥٧) والتهذيب (٣ / ٣٢١) .

٣ ـ صفوان بن عسال المرادى الجملى ، صحابى مشهور ، غزا مع النبى صلى الله عليه وسلم اثنتى عشرة غزوة . نزل الكوفة .
الاستيعاب (٢ / ٧٢٤) وأسد الغابة (٣ / ٢٧) والإصابة (٤ / ١٨٩) والتهذيب (٤ / ٤٢٨) والتقريب (١ / ٣٨٦) .

« قال زرٌّ : فما برح يحدثني حتى حدثني أن الله عز وجل جعل بالمغرب باباً عرضه مسيرة سبعين عاماً للتوبة ، لا يُغلق حتى تطلع الشمس من قبله ، وذلك قول الله تبارك وتعالى :

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾ الآية‹١›.

وروى الإمام أحمد في مسنده :

عن ابن السَّعْدِي ‹٢› : أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « لا تنقطع الهجرة ما دام العدوُّ يقاتل ، فقال معاوية ‹٣› وعبد الرحمن بن عوف ‹٤› وعبد الله بن عمرو بن العاص : إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن الهجرة خصلتان ، أن تهجر السيآت ، والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله ، ولا تقطع الهجرة ما تقبلت التوبةُ ، ولا تزال التوبة مقبولة

---

١ ـ سنن الترمذى (أبواب الدعوات ، باب ما جاء في فضل التوبة والاستغفار ، ٥ / ٢٠٤ ، ٢٠٥) .
وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح في كل من الحديثين وأخرجه أيضاً الإمام أحمد في مسنده (٤ / ٢٤٠) . والآية من سورة الأنعام : ١٨٥ .

٢ ـ ابن السعدى : هو عبد الله بن السعدى قيل له السعدى لأنه كان استرضع في بنى سعد بن بكر ، واسمه وقدان . روى عن النبى صلى الله عليه وسلم حديث (لا تنقطع الهجرة) قال أبو زرعة الدمشقى : حديث صحيح متقن ، رواه الأثبات عنه ونزل ابن السعدى الأردن ومات سنة ٥٧هـ .
انظر : أسد الغابة (٣ / ٢٦١) والأصابة (٢ / ٣١٨) واللباب (٢ / ١١٧) والتهذيب (٥ / ٢٣٥) والتقريب (١ / ٤١٩) .

٣ ـ معاوية بن أبى سفيان بن صخر بن حرب بن أُميّة ، الأموى أبو عبد الرحمن ، أسلم يوم الفتح . وقيل : قبل ذلك ، وكتب الوحى ، ولاّه عمر الشام وأقرّه عثمان مدة ولايته . ثم ولى الخلافة بعد صلحه مع الحسن بن على رضى الله عنه ، فكان أميراً عشرين سنة ، وخليفة عشرين سنة ، مات سنة ستين ، وقد قارب الثمانين .
طبقات ابن سعد (٣ / ٣٢) والاستيعاب (٣ / ١٤١٦) وأسد الغابة (٥ / ٢٠٩) والإصابة (٣ / ٤٣٣) وسير أعلام النبلاء (٣ / ١١٩) والتهذيب (١٠ / ٢٠٧) .

٤ ـ عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة أبو محمد القرشى الزهرى . أحد العشرة ، أسلم قديماً ، وهاجر الهجرتين ، وشهد المشاهد كلها . كان جواداً كريماً . مات سنة ٣٢هـ .
الاستيعاب (٢ / ٨٤٤) وأسد الغابة (٣ / ٤٨٠) والإصابة (٢ / ٤١٦) وسير أعلام النبلاء (١ / ٦٨) والتهذيب (٦ / ٢٤٤) .

حتى تطلع الشمس من المغرب ، فإذا طلعت طُبِع على كل قلب بما فيه ، وكُفِي الناسُ العمل » <١> .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني :

(فالذى يترجح من مجموع الأخبار أن خروج الدجال أول الآيات العظام المؤذنة بتغيير الأحوال العامة في معظم الأرض ، وينتهى عند ذلك بموت عيسى ابن مريم ، وأن طلوع الشمس من المغرب هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغيير أحوال العالم العلوى ، وينتهى ذلك بقيام الساعة ، ولعل خروج الدابة يقع في ذلك اليوم الذى تطلع فيه الشمس من المغرب) <٢> .

وقوله تعالى : « **قل انتظروا** » يعنى : ما وُعدتم به من مجىء الآية ، ففيه وعيد وتهديد .

وقوله تعالى : « **إنا منتظرون** » يعنى : ما وَعدكم ربكم من العذاب يوم القيامة ، أو قبله في الدنيا .

قال بعض المفسرين : وهذا إنما ينتظره من تأخر في الوجود من المشركين والمكذبين لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ذلك الوقت .

والمراد بهذا : أن المشركين يُمهلون قدرَ مدة الدنيا ، فإذا ماتوا وظهرت الآيات لم ينفعهم الإيمان ، وحلت بهم العقوبة اللازمة أبداً <٣> .

---

١ ـ مسند الإمام أحمد بتحقيق أحمد محمد شاكر (٢ / ١٣٣) وقال المحقق : إسناده صحيح .

٢ ـ فتح البارى شرح صحيح البخارى (كتاب الرقاق ، باب طلوع الشمس من مغربها ، ١١ / ٣٥٣) .

٣ ـ تفسير الخازن : (٢ / ١٦٨ ، ١٦٩) .

وقال ابن كثير أيضاً في تفسير هـــذه الآيـة : « تهديد شديد للكافرين ، ووعيد أكيد لمن سوَّف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك ، وإنما كان هذا الحكم عند طلوع الشمس من مغربها ، لاقتراب الساعة ، وظهور أشراطها .

كما قال الحق سبحانه وتعالى :

فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا
فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ ‹١›

وكما قال عز وجل :

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ
مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ
اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ ‹٢›

وفي هذا من التهديد والوعيد لهم ما لا يخفى ، وهو كقول الحق تعالى :

وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾
وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ ‹٣›

---

١ ــ سورة محمد : ١٨ .

٢ ــ سورة غافر : ٨٤ ، ٨٥ .

وانظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير : (٣ / ١٣٤) .

٣ ــ سورة هود : ١٢١ ، ١٢٢ .

المبحث الثاني

كيفية الجزاء على الأعمال

ويشتمل على ما يأتي :

* **معنى الحسنة والسيئة والجزاء عليهما .**
* **تضعيف الحسنات والسيئات .**
* **السيئات كبيرها وصغيرها .**
* **المكفرات للصغائر وبعض أمثلتها .**

بعد أن يبعث الله تعالى الناس أحياء يحشرهم إليه ، ويجمعهم لديه ، ليحاسب كل فرد على ما عمل من خير أو شر ، ليجازي كلاً منهم على عمله .

وقد ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، من الآيات والأحاديث ما يبين لنا كيفية هذا الحساب الدقيق العادل .

فمنها أن الأرض تشهد بما حدث عليها ، ومنها أن الألسنة والأيدي والأرجل والجلود تشهد على الناس ، ومنها أنه يجاء بالكتب التي دونت فيها الأعمال ، وتوزع على أصحابها ، فمنهم من يأخذ كتابه بيمينه ، فيكون ذلك بشرى سارة لأصحابها ، ومنهم من يأخذ كتابه بشماله ، أو من وراء ظهره ، فيكون ذلك علامة على شقائه وسوء حسابه .

وتبلغ الدقة في الحساب منتهى ما يمكن أن يتصوره العقل البشري ، حتى إن كل إنسان يأخذ جزاء ما عمل من خير أو شر ، سواء أكان ذلك عملاً مارسه بالفعل ، أم عملاً نواه ، فتقام لذلك موازين القسط ، حتى يتحقق العدل الإلهي على أكمل صورة .

* معنى الحسنة والسيئة والجزاء عليهما :

يقول الحق سبحانه وتعالى :

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ‹١›

معانى الكلمات :

« **الحسنة** » في معناها اللغوي : هـــى كل ما يَسُرُّ من نعمة تنال الإنسان في نفسه أو بدنه أو حاله .

و« **السيئة** » : ضدّها ، وهـــى كل ما يســوء الإنســـان في نفسه أو بدنه أو حاله . وهما من الألفاظ المشتركة ، كالحيوان الواقع على أنواع مختلفة ، كالفرس ، والبعير والإنسان وغيرها .

قال تعالى :

وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ‹٢›

أي خصب وسعة وظفر .

وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ‹٣›

أي جدب وضيق وخيبة .

وقوله تعالى :

مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ‹٤›

---

١ ـ سورة الأنعام : ١٦٠ .

٢ ـ سورة النساء : ٧٨ .

٣ ـ سورة النساء : ٧٨ .

٤ ـ سورة النساء : ٧٩ .

فالمراد بالحسنة هنا الثواب ، وبالسيئة العقاب ‹١› .

« **من جاء بالحسنة** » فالمقصود بالحسنة في الآية التي معنا : كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من قول أو فعل أو نية أو اعتقاد .

« **فله عشر أمثالها** » : أي يجازي المحسن على إحسانه بعشر أمثال الحسنة التي فعلها .

« **ومن جاء بالسيئة** » : فالمقصود بالسيئة : كل أنواع المعاصي التي حرمها الله تعالى من قول أو فعل أو نية أو اعتقاد .

« **فلا يجزى إلا مثلها** » :أي يجازي المسيء على فعل السيئة بمثلها فقط .

فالحسنة والسيئة صفتان لموصوف محذوف ، والتقدير : بالفعلة الحسنة ، والفعلة السيئة .

« **وهم لا يظلمون** » : أي لا ينقص الله تعالى أحداً من العاملين حقه .

المعنى الإجمالي للآية :

في هذه الآية الكريمة يبين الحق سبحانه وتعالى لنا فيها فضله وكرمه على عباده ، وعدله في الحكم عليهم ، فمن ذلك الفضل العظيم أنه يضاعف أجر الحسنات إلى عشر أمثالها ، إلى أضعاف كثيرة .

وهذا غاية في الكرم والفضل والعطاء .

وأما السيئات فإنها لا تضاعف ، إلا ما استثنى كسيئة الحرم ونساء النبى صلى اللّه عليه وسلم وهذا أيضاً عدل منه ورحمة ، ودليل ساطع على أنه تعالى مُنزه عن الظلم ، لا يظلم أحداً بل كل عامل ينال جزاء ما عمل من خيرٍ أو شرٍ .

---

١ ـ مفردات الراغب (حسن) .

فأنت ترى أنه في جانب الحسنات يضاعف الله الأجر ، فضلاً منه ، وترغيباً في عملها ، وفي جانب السيئات يجازي الله عليها بمثلها فقط ، تحقيقاً للعدل الإلهي ، وتأكيداً لأن الله لا يظلم أحداً ، بل يستوفي كل واحد حقه كاملاً .

التوضيح للآية الكريمة :

قوله تعالى : « **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** » .

في هذه الآية يبين الحق سبحانه وتعالى ، أن من جاء يوم القيامة ، وهو يوم الجزاء والحساب ، بالأفعال الحسنة من الطاعات والعبادات ، وهي تشمل الأيمان والنطق بكلمة التوحيد وجميع ما شرع الله من الطاعات ، من قولٍ أو فعل أو نية أو اعتقاد .

مثال القول : لا إله إلا الله .

ومثال الفعل : إماطة الأذى عن الطريق .

كما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الإيمان بضع وَستُّونَ شعبة ، والحياء شعبة من الإيمان » <١> .

ولقد جاء هذا الحديث في صحيح مسلم أيضاً : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الإيمان بضع وَسَبْعُونَ ، أو بضع وَستُّونَ شعبة ، فأفضلها لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . والحياء شعبة من الإيمان » <٢> .

---

١ ـ صحيح البخاري (كتاب الإيمان ـ باب أمور الإيمان وقول الله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم ... » ، ١ / ٩) .

٢ ـ صحيح مسلم (كتاب الإيمان ـ باب عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها ... ، ١ / ٦٣) .

ومثال النية : من نوى أن يعمل عملاً صالحاً ، كما جاء في حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم :

حدثنا أبو الجويرية ‹١› أن معن بن يزيد ‹٢› رضي الله عنه حدثه قال : بايعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنا وأبي ‹٣› وجدي ‹٤› ، وخطب عليَّ فانكحني وخاصمت إليه ، وكان أبي يزيد أخرج دنانير يتصدق بها فوضعها عند رجل في المسجد فجئت فأخذتها فأتيته بها ، فقال : والله ما إياك أردت ، فخاصمته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :« لك ما نويت يا يزيد ، ولك ما أخذت يا معن » ‹٥› .

---

١ ـ أبو الجويرية : هو حطان بن خُفَاف بن زهير بن عبد الله بن رمح الجرمي ، وهو كوفي ثقة ، قال ابن عبد البرّ : أجمعوا على أنه ثقة . روى له البخاري وأبو داود والنسائي .
انظر : الجرح والتعديل (٣/ ٣٠٤) والتهذيب (٢ / ٣٩٦) والتقريب (١ / ١٨٥) .

٢ ـ معن بن يزيد بن الأخنس بن حبيب السُلمي ، أبو يزيد المدني ، له ولأبيه ولجدّه صحبة . شهد معن فتح دمشق وله بها دار ، وشهد صفين مع معاوية ، ونزل الكوفة ثم مصر ثم الشام ، وقتل بمرج راهط سنة أربع وستين . ومرج راهط كما في معجم البلدان لياقوت الحموى (٥ / ١٠١) بنواحى دمشق وهو أشهر المروج في الشعر فإذا قالوه مفرداً فإياه يعنون .
انظر : طبقات ابن سعد (٦ / ٣٦) وأسد الغابة (٥ / ٢٣٩) والاستيعاب (٤ / ١٤٤) والإصابة (٣ / ٤٥٠) والتهذيب (١٠ / ٢٥٣) والتقريب (٢ / ٢٦٨) .

٣ ـ وأبي : هو يزيد بن الأخنس بن حبيب السُلمي شامي له صحبة يقال : إنه شهد بدراً هو وأبوه وابنه معن . قال ابن عبد البر : ولا أعرفهم في البدريين وإنما هم فيمن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي الإصابة أنه لما أسلم أسلم معه جميع أهله إلا امرأة واحدة ، فأنزل الله تعالى على رسوله : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » سورة الممتحنة : ١٠ .
الاستيعاب (٤ / ١٥٧٠) وأسد الغابة (٥ / ٤٧٤) والإصابة (٣ / ٦٥١) .

٤ ـ وجدي : هو الأخنس بن حبيب ، وقيل : خباب بن جُرّة (بضم الجيم وبالراء المشددة وآخرها هاء) ابن زعبْ بن مالك بن خفاف السلمي .جد معن بن يزيد صحابي بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ابنه وابن ابنه .
انظر : الاستيعاب (٤ / ١٤٢٢) ذكره في ترجمة معن بن يزيد ، وأسد الغابة (١ / ٧٠) الإصابة (١ / ٢٥) .

٥ ـ صحيح البخاري (كتاب الجمعة ـ باب إذا تصدق على ابنه وهو لا يشعر ، ٢ / ١٣٨) .

ومثال الاعتقاد بوحدانية الله تعالى ، وبإرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام ، والإيمان باليوم الآخر ، ما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : عن أبي هريـــــرة رضي الله عنه قـال : « سئل النبي صلى الله عليه وسلم : أيُّ الأعمال أفضل ؟ قال : « إيمـــان بالله ورسوله » ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : « جهاد في سبيل الله » ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : « حج مبرور » ‹١› .

فهذه الطاعات التي إذا فعلها الإنسان فإن الله يجازي عليها ، فيجعل الحسنة بعشر حسنات وهي أقل ما يجازي به المحسن ، كما نصت الآية الكريمة .

وقد جاءت نصوص أخرى تبين أن الله تعالى يضاعف الحسنات أضعافاً مضاعفة .

كما قال عز من قائل :

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾

‹٢›

وقال جل ثناؤه :

قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

‹٣›

---

١ ـ أخرجه البخاري في (كتاب الإيمان ، باب من قال إن الإيمان هو العمل ، ١ / ١٣) وفـــي كتـــاب (الحج ، باب فضل الحج المبرور ، ٢ / ١٦٤) ، ومسلم في (كتاب الإيمان ، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ، ١ / ٨٨) .

٢ ـ سورة البقرة : ٢٦١ .

٣ ـ سورة الزمر : ١٠ .

وكما جاء في ثواب الصيام في الحديث :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الصيام جُنة ، فلا يرفث ولا يجهل ، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم مرتين ، والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك ، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي ، الصيام لي ، وأنا أجزي به ، والحسنة بعشر أمثالها » <١> .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة عشرُ أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله عز وجل : « إلا الصومَ فإنه لي وأنا أجزي به ، يدع شهوته وطعامه من أجلي ، للصائم فرحتان : فرحة عند فطره ، وفرحة عند لقاء ربه ، ولخلوف فيه أطيبُ عند الله من ريح المسك » <٢> .

فالحق سبحانه وتعالى أسند جزاء الصوم إليه ، لأنه سر بين الصائم وربه جل ثناؤه ، والله يكافيء عليه مكافأة لا يعلمها أحد غيره .

وإنما يكون هذا التفاوت في الجزاء بحسب النية والقصد والإخلاص .

وقوله تعالى : « **ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلَهَا** » .

لقد قلنا سابقاً : إن السيئة هي المعاصي التي حرمها الله من القول والفعل والنية والاعتقاد .

مثال القول : النطق بكلمة الكفر أو سبُّ الدين .

---

١ ـ صحيح البخاري (كتاب الصوم ، باب فضل الصوم ، ٣ / ٣١) .

٢ ـ صحيح مسلم (كتاب الصيام ، باب فضل الصيام ، ٢ / ٨٠٧) .

ومثال الفعل : ترك ما أمر الله به ، وفعل ما نهى الله عنه ، كشرب الخمر والسرقة ... إلخ .

ومثال النية : إضمار السوء للناس ، وإساءة الظن بهم .

ومثـــال الاعتقاد : اعتقاد الكفر ، واعتقاد أن للـــه ولداً ، فاليهود قالت : عزير ابن الله ، والنصارى قالت : المسيح ابن الله .

قال تعالى عن قولهم هذا :

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى
ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ
يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ
ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ‹١›

وقوله تعالى « **فلا يجزى إلا مثلها** » هذا عدل من الله ورحمة بأن يضاعف الحسنات ، ولا يضاعف السيئات .

ثم ختم الحق سبحانه الآية بقوله:« **وهم لا يظلمون** » أي أنه سبحانه وتعالى منزه عن الظلم ، فلا ينقص أحداً من أعماله التي عملها من خير أو شر ، فكلٌ يجازى بحسب عمله ونيته واعتقاده لقوله تعالى :

مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ‹٢›

ولقوله أيضاً :

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾
وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ
إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

‹٣›

---

١ ــ سورة التوبة : ٣٠ .

٢ ــ سورة فصلت : ٤٦ .

٣ ــ سورة النمل : ٨٩ ، ٩٠ .

ولقوله عز وجل :

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا
يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ‹١›

وقوله تعالى :

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ
وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

‹٢›

---

١ ـ سورة القصص : ٨٤ .

٢ ـ سورة غافـر : ٤٠ .

* تضعيف الحسنات والسيئات :

وقد وردت نصوص من الكتاب والسنة تبين لنا مضاعفة أجر الحسنات ، وجزاء السيئات .

فقد أخرج الشيخان بسنديهما : عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل قال : « قال إن الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك ، فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة . ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة » (١) .

وأخرج الإمام مسلم بسنده : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم (فذكر أحاديث منها) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل : إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعمل ، فإذا عملها فأنا أكتبها بعشر أمثالها . وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها ، فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قالت الملائكة : رَبِّ ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة (وهو أبصر به) فقال : ارقبوه . فإن عملها فاكتبوها له بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة . إنما تركها من جرَّاي » (٢) .

---

١ ـ صحيح البخاري (كتاب الرقاق ، باب من هم بحسنة ، ٨ / ١٢٨) .
وصحيح مسلم (كتاب الإيمان ، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب ، ١ / ١١٨) واللفظ للبخاري .

٢ ـ صحيح مسلم (كتاب الإيمان ، باب إذا هم العبد بحسنة ... ، ١ / ١١٧ ، ١١٨) .
وقوله : « من جرَّاي » : أي من أجلي .
ورواه أيضاً الإمام أحمد في مسنده (٢ / ٣١٥) .

وجاء في صحيح البخاري : « قال مالك أخبر زيد بن أسلم أن عطاء بن يسار أخبره أن أبا سعيد الخدري أخبره أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إذا أسلم العبد فحسن إسلامه يكفر الله عنه كل سيئة كان زَلَّفَهَا ، وكان بعد ذلك القصاص ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والسيئة بمثلها إلا أن يتجاوز الله عنها » (١) .

وأخرج البخاري ومسلم : عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها » .

وزاد في روايته عند مسلم : « حتى يلقى الله » (٢) .

هذا ما قررته الآية الكريمة بالنسبة للعمل ، سواء أكان هذا العمل من أعمال القلوب أم من الأعمال الظاهرة .

وأما ما يتصل بالهَمِّ فقد أشارت الأحاديث السابقة إلى أن الله تعالى يجازي من همَّ بالحسنة ولم يعملها بحسنة مثلها .

وأما السيئة إذا همَّ بها ولم يعملها فإنه يجازى عليها بحسنة إذا تركها لله تعالى أما إذا تركها بسبب عجزه عن فعلها أو بسبب خارج عن إرادته فإنه يجازى عليها بمثلها .

---

١ ـ صحيح البخاري (كتاب الإيمان ، باب حسن إسلام المرء ، ١ / ١٧) .
والنسائي (كتاب الإيمان ، باب حسن إسلام المرء ، ٨ / ١٠٦) إلا أنه قال : « أزلفها » : أي أسلفها وقدّمها ، والأصل فيه القرب والتقدم ، كما في النهاية لابن الأثير (٢ / ٣٠٩) .

٢ ـ صحيح البخاري (كتاب الإيمان ، باب حسن إسلام المرء ، ١ / ١٧) .
وصحيح مسلم (كتاب الإيمان ، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب ، ١ / ١١٨) .

فقد جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يثبت ذلك .

فعن الأحنف بن قيس ‹١› قال : ذهبت لأنصر هذا الرجل فلقيني أبو بكرة ‹٢› فقال : أين تريد ؟ قلت : أنصر هذا الرجل ، قال : ارجع فإنني سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » . فقلت : يا رسول الله ، هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : « إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » ‹٣› .

وهذا فيما يتعلق بالهمّ .

أما ما يسبق الهمّ ، من حديث النفس الذي لم يبلغ درجة الهمّ ، فإن الله يتجاوز عنه ، لما جاء في حديث المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم .

---

١ ـ الأحنف بن قيس بن معاوية بن حسين التميمي السعدي أبو بحر البصري ، ثقة فاضل مخضرم . قال الحسن : ما رأيت شريف قوم أفضل من الأحنف ، وحلمه يضرب به المثل . وقال مصعب ابن الزبير يوم موته : ذهب اليوم الحزم والرأي . مات سنة (٧٢ هـ) .
انظر : طبقات ابن سعد (٧ / ٩٣) والاستيعاب (١ / ١٤٤) وأسد الغابة (١ / ٦٨) والإصابة (١ / ١٠٠) والعبر (١ / ٥٨) والتهذيب (١ / ١٩١) .

٢ ـ أبو بكرة : هو نفيع بن الحارث الثقفي ، كناه رسول الله صلى الله عليه وسلم « بأبي بكرة » لأنه تعلق ببكرة من حصن الطائف فنزل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم ، وسكن البصرة ، توفي سنة (٥٢ هـ) .
انظر : طبقات ابن سعد (٧ / ١٥) والاستيعاب (٤ / ١٦١٤) وأسد الغابة (٥ / ٣٥٤) والإصابة (٣ / ٥٧١) وكنى مسلم (١٧٨) وكنى الدولابي (١/ ١٨) والاستغناء (١ / ١١٨) والعبر (١ / ٤١) والتهذيب (١٠ / ٤٦٩) .

٣ ـ أخرجه البخاري في (كتاب الإيمان ، باب وإن طائفتان من المؤمنين ... ، ١ / ١٤ ، ١٥) وفي (كتاب الديات ، باب قوله : « ومن أحياها » ، ٩ / ٥) ومسلم في (كتاب الفتن ، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ، ٤ / ٢٢١٣) واللفظ للبخاري .

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم » ‹١› .

وقد تتضاعف الحسنات والسيئات بحسب حال الشخص ، وبحسب المكان والزمان والأعمال .

فقد قال الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

‹٢›

ومضاعفة العذاب للرسول صلى الله عليه وسلم نظراً لمكانته من الله عز وجل وعظمته ـ صلى الله عليه وسلم .

وأيضاً يضاعف العذاب لنساء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمكانتهن عند الله تعالى ، ومنزلتهن من الإسلام ، لأنهن زوجات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمهات المؤمنين ـ رضي الله عنهن .

قال الحق سبحانه وتعالى فيهن : يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

‹٣›

---

١ ـ صحيح البخاري (كتاب الطلاق ، باب الطلاق في الإغلاق ... ، ٧ / ٥٩) ، وصحيح مسلم (كتاب الإيمان ، باب تجاوز الله عن حديث النفس ، ١ / ١١٦) واللفظ للبخاري .

٢ ـ سورة الإسراء : ٧٣ ـ ٧٥ .

وفي هذه الآيات الكريمة يبين الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه لولا أنه جل ثناؤه ثبته على الحق بالعصمة لقارب أن يميل إليهم ، وذلك لشدة احتيالهم وإلحاحهم ، وهو صريح في أنه صلى الله عليه وسلم لم يركن ولا قارب ذلك . ولو ركن إليهم لأذاقه الله ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات ، أي مثلي ما يعذب به غيره في الدنيا والآخرة ، وذلك لمكانته صلى الله عليه وسلم .

٣ ـ سورة الأحزاب : ٣٠ ، ٣١ .

أى ويضاعف لهن الأجر مرتين حيث أثرن الله ورسـوله والدار الآخرة وقبلن أن يعشن معه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مـع حالة الزهـد والتقشـف والبعد عن شهوات الدنيا وملذات الحياة .

كما أن التعرض لأصحاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإتخاذهم غرضاً ، مما يترتب عليه مضاعفة العذاب لأنهم ليسوا كغيرهم من الناس .

جاء في حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يبين ذلك فقد روى البخارى ومسلم بسنديهما : عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا تسبوا أصحابى ، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه » ‹١› .

وفي رواية أخرى : أقسم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ذلك .

فعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا تسبوا أصحابى فوالذي نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه ‹٢› .

---

١ ـ صحيح البخارى (كتاب بدء الخلق ، باب فضائل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ٥ : ١٠) ، وصحيح مسلم (كتاب فضائل الصحابة ، باب تحريم سب الصحابة رضى الله عنهم ، ٤ / ١٩٦٧) واللفظ للبخاري .

٢ ـ أخرجه أحمد فى مسنده (٣ / ٥٤) وأبو داود فى (كتاب السنة ، باب فى النهى عن سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ٥ / ٤٥) والترمذي في (أبواب المناقب ، باب فيمن سب أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ٥ / ٣٥٧) وقال : حسن صحيح . وابن ماجه فى المقدمة فى آخر فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم) (١ / ٣١) .

قال الخطابى : « النصيف » بمعنى « النصف » والمعنى : أن جهد المقل منهم واليسير من النفقة الذى أنفقوه فى سبيل الله مع شدة العيش والضيق الذى كانوا فيه أوفى عند الله وأزكى من الكثير الذى ينفقه من بعدهم . معالم السنن (٥ / ٤٥) .

وفى صحيح مسلم (كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رضى الله عنهم ، ٤ / ١٩٦٧) .

وعن عبد الله بن مُغَفَّل ‹١› قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدى ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » ‹٢› .

وكذلك لا يتساوى من أنفق وقاتل قبل الفتح بمن أنفق وقاتل بعد الفتح ، وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى :

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ
وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ
وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا
الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

‹٣›

والإنسان قد يعجز عن العمل لسبب خارج عن إرادته ، ويعطى أجر من فعل هذا العمل إذا كان ناوياً هذا العمل متى قدرَ عليه ، وفي حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يبين هذا ويوضحه .

---

١ ـ هو عبد الله بن مُغَفَّل بن عبيد بن نَهْم ، أبو عبد الرحمن المدني ، صحابي ، بايع تحت الشجرة ونزل البصرة ، وهو أول من تسوَّر (تُسْتَر) وقت فتحها ، توفي سنة (٥٧ هـ) .
الاستيعاب (٣ / ٩٩٦) وأسد الغابة (٣ / ٣٩٨) والإصابة (٢ / ٣٧٢) والتهذيب (٦ / ٤٢) والتقريب (١ / ٤٥٣) .

٢ ـ أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤ / ٨٧) و (٥ / ٤٥ و ٤٧) والترمذي في (أبواب المناقب ، باب سب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم) (٥ / ٥٨) وقال حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

٣ ـ سورة الحديد : ١٠ ، ١١ .

فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان في غزاة فقال : « إن أقواماً بالمدينة خلفنا ، ما سلكنا شِعْباً ولا وادياً إلا وهم معنا فيه حبسهم العذر » <١> .

وفي رواية عنه ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجع من غزوة تَبُوك فدنا من المدينة فقال : « إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم » قالوا : يا رسول الله ، وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة ، حبسهم العذر » <٢> .

وعن جابر قال : كنا مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في غزاة ، فقال : « إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً ، إلا كانوا معكم ، حبسهم المرض » .

وفي رواية أخرى « إلاّ شركوكم في الأجر » <٣> .

أي شاركوا الصحابة رضوان الله عليهم في الأجر بنيتهم الطيبة ، وعجزهم عن الخروج معهم .

ومن نوى الصلاة وقيام الليل ثم نام عنها ، كان له من الأجر والثواب مثلما لو قام الليل .

---

١ ـ صحيح البخاري (كتاب الجهاد والسير ، باب من حبسه العذر عن الغزو ، ٤ / ٣١) .

٢ ـ صحيح البخاري (كتاب بدء الخلق ، باب غزوة تبوك ، نزول النبي صلى الله عليه وسلم الحجر ، ٦ / ٩ ، ١٠) .

٣ ـ صحيح مسلم (كتاب الإمارة ، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر ، ٣ / ١٥١٨) .

فهذا من فضل الله سبحانه وتعالى على العبد المؤمن به ، وقد جاء فى حديث المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يوضح ذلك ويثبته ، فعن سعيد ابن جبير عن الأسود بن يزيد ‹١› ، أخبره أن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أخبرته أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :« ما من امرىء تكون له صلاة بليل فغلبه عليها النوم إلا كَتَبَ الله له أجر صلاته وكان نومه صدقة عليه » ‹٢› .

ومن صلى وهو قاعد لعجزه عن القيام بسبب المرض فله أجر الصلاة كاملة كما لو صلى وهو صحيح .

فعن أبى موسى ‹٣› قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً » ‹٤› .

---

١ ـ الأسود بن يزيد بن قيس أبو عمرو النخعى ، الفقيه الزاهد العابد ،عالم الكوفة وابن أخى عالمها علقمة ، وخال إبراهيم النخعى الفقيه ، وكان من العبادة والحجّ على أمر كبير،حجّ مع أبى بكر وعمر وعثمان ، ثقة مكثر مخضرم ، مات سنة (٧٥ هـ) .

طبقات ابن سعد (٦ / ٧٠) والثقات للعجلى (٦٧) والثقات لابن حبان (٤ / ٣١) والتذكرة (١ / ٥٠) والعبر (١ / ٦٣) والتهذيب (١ / ٣٤٢) .

٢ ـ أخرجه أبو داود فى (كتاب الصلاة ، باب من نوى القيام فنام ، ٢ / ٣٤) والنسائى فى (كتاب الصلاة ، باب من كان له صلاة بالليل فغلبه عليها النوم ، ٣ / ٢٥٧) . وفي مختصر سنن أبى داود (٢ / ٩٣) وأيضاً عن عائشة رضى الله عنها (١ / ٣٤٢) فالحديث صحيح رواه الحاكم في المستدرك (١ / ٣١٢) وقال : صحيح ووافقه الذهبى . وقال المنذرى في الترغيب والترهيب (١ / ٢٠٨) إسناده جيد . كما أخرجه ابن خزيمه في صحيحه ومالك في الموطأ (١ / ١١٧) انظر إرواء الغليل (٢ / ٢٠٤ ، ٢٠٥) .

٣ ـ أبو موسى الأشعرى : هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضّار بن حرب . صحابى مشهور ، استعمله النبى صلى الله عليه وسلم على زبيد وعدن ، وأمّره عمر على البصرة ، وعثمان على الكوفة ، وكان أحد فقهاء الصحابة ، وهو أحد الحكمين بصفّين ، توفى سنة (٤٤ هـ) .

طبقات ابن سعد (٦ / ١٦) والاستيعاب (٢ / ٩٧٩) و (٤ / ١٧٦٢) وأسد الغابة (٦ / ٣٠٦) والإصابة (٢ / ٣٥٩) وكُنى الدولابى (١ / ٥٧) والاستغناء (١ / ٢١١) وسير أعلام النبلاء (٢ / ٣٨٠) والعبر (٣٧/١) والتهذيب (٥ / ٣٦٢) .

٤ ـ صحيح البخارى (كتاب الجهاد ، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل فى الإقامة ، ٤ / ٧٠) .

والذى يعمل الحسنات أو السيئات فى مكة يُضعّف له الجزاء من خير أو شر .

قال عز من قائل :

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ
وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

‹١›

والمقصود بالإلحاد فى هذه الآية الكريمة المعاصى ، ومنها احتكار الطعام ، وقتل الصيد ، وقطع الشجر ، وكل ما نهى الشارع عنه من قول أو فعل .

قال الخازن فى تفسيره لقوله تعالى « **ومن يرد فيه** » (أى فى المسجد الحرام .

« **بإلحاد بظلم** » أى يميل إلى الظلم .

قيل : الإلحاد : هو الشرك وعبادة غير الله .

وقيل : هو كل شىء كان منهياً عنه من قول أو فعل حتى شتم الخادم .

وقيل ارتكاب شىء من محظورات الحرم ، من قتل صيد وقطع شجر .

وقيل احتكار الطعام بمكة) ‹٢› .

وقد جاء فى أحاديث المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يثبت ذلك .

---

١ ـ الحج : ٢٥ .

٢ ـ تفسير الخازن (٥ / ١٠) .

فعن موسى بن باذان <١> قال :أتيت يعلى بن أمية <٢> فقال: « إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « احتكار الطعام فى الحرم إلحاد فيه »<٣> .

وأخرج الإمام أحمد بسنده : عن عبد الله بن عمرو قال : أشهد بالله لسمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « يُحِلُّها وَيُحلُّ به رجل من قريش لو وزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها » <٤> .

---

١ ـ موسى بن باذان ، حجازى ، ويحتمل أن يكون جد عثمان بن الأسود بن موسى بن باذان . روى عن عليّ ويعلى بن أمية . قال ابن أبى حاتم : سماه البخارى « مسلم بن باذان » ، فقال أبى وأبو زرعة : أخطأ فى هذا . وهو موسى بن باذان . وقال ابن القطان : لا يعرف .

انظر : الجرح والتعديل (٨ / ١٣٨) والتهذيب (١٠ / ٣٣٧) والتقريب (٢ / ٢٨١) .

٢ ـ يعلى بن أمية بن أبى عبيدة بن همام التميمى ، أبو صفوان . صحابى مشهور ، شهد الطائف وحنيناً وتبوك مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان عامل عمر على نجران ، مات سنة بضع وأربعين .

انظر : الاستيعاب (٤ / ١٥٨٥) وأسد الغابة (٥ / ٥٢٣) والإصابة (٣ / ٦٦٨) والتهذيب (١١ / ٣٩٩) .

٣ ـ أخرجه أبو داود فى (كتاب المناسك ، باب تحريم حرمة مكة ، ٢ / ٢١٢ ، ٢١٣) والبخارى فى التاريخ الكبير (٤ / ١ / ٢٥٥) عن يعلى بن أمية أنه سمع عمر بن الخطاب يقول : « احتكار الطعام بمكة إلحاد » قال المنذرى : ويشبه أن يكون البخارى علّل المسند بهذا .

انظر : مختصر سنن أبى داوود للحافظ المنذرى (٢ / ٤٣٨) بتحقيق محمد حامد الفقى . وفي الفتح الربانى ونصه « سيلحد فيه » (٢٣ / ٢٤٤) أورده الهيثمى قال البنا قال بعض شراح المسند : إسناده صحيح على علة فيه .

٥ ـ مسند الإمام أحمد (٢ / ١٩٦ ، ٢١٩) وفي مجمع الزوائد (٣ / ٢٨٤) قال الهيثمى رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

ومعنى « يُحلُّها » : أى يستبيح حرمتها .

« ويحل به » : أى وينزل به .

وفى رواية أخرى قال : أتى عبد الله بن عمر عبـد اللـه بن الزبير ‹١› فقال : يا ابن الزبير إياك والإلحاد فى حرم الله تبارك وتعالى فإنى سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « إنه سيلحد فيه رجل من قريش لو وزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت » . قال : فانظر لا تكونه ‹٢› .

قال مجاهد : تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات ‹٣› .

وسئل الإمام أحمد هل تكتب السيئة أكثر من واحدة ؟ فقال : لا . إلا بمكة لتعظيم البلد ‹٤› .

وجاء فى أحاديث المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يثبت ذلك .

روى الشيخان بسنديهمـا عن أبـى هريرة رضى اللـه عنه ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » ‹٥› .

---

١ ـ عبد الله بن الزبير بن العوام القرشى الأسدى ، أبو بكر أمير المؤمنين ، كان أول مولود ولد فى الإسلام بالمدينة ، وكان نهاية فى الشجاعة ، غاية فـى العبادة ، ولى الخلافة تسع سنين ، وقتله الحجاج فى ذى الحجة سنة ثلاث وسبعين فى أيام عبد الملك بن مروان . قتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر ، فيا له من فارس مقدام .

انظر : الاستيعاب (٣ / ٩٠٥) وأسـد الغابـة (٣ / ٢٤٢) والإصابـة (٢ / ٣٠٩) وسير أعلام النبلاء (٣ / ٣٦٣) والعبر (١ / ٦٠) والتهذيب (٥ / ٢١٣) .

٢ ـ مسند الإمام أحمد (٢ / ١٣٦) . وفي مجمع الزوائد (٣ / ٢٨٥) قال الهيثمى : رواه أحمد ورجاله ثقات .

٣ ـ انظر : تفسير الخازن (٥ / ١٠) .

٤ ـ انظر : تفسير ابن كثير (٣ / ٢١٤ ، ٢١٥) وفقـه السنة للشيخ سيد سابق ، النهى عن الإلحاد فى الحرم (٥ / ٧٦٢) .

٥ ـ صحيح البخارى (كتاب الجمعة ، باب فضل الصلاة فى مكة والمدينة ، ٢ / ٧٦) ، وصحيـح مسلـم (كتاب الحج ، باب فضل الصلاة فى مسجدى مكة والمدينة ، ٢ / ١٠١٢) ، واللفظ للبخارى .

وعنه رضى الله عنـــه ـ عـــن النبى ـ صلـــى الله عليـــه وسلـــم ـ قال : « لا تُشَدُّ الرحالُ إلا إلـــى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسجد الأقصى » <١> .

وقد ورد أن الصلاة فـــى المسجد الحـــرام بمائة ألف صلاة ، وأن الصلاة فى المسـجد النبوى بألف صـلاة ، وأن الصـلاة فـــى المسـجد الأقـصى بخمسمائة صلاة .

فعن جابر بن عبد الله قـال : قال رسول الله ـ صلـــى الله عليه وسلم ـ : « صلاة فى مسجـــدى هـــذا أفضـــل من ألف صلاة فيمـــا ســـواه إلا المسجد الحرام ، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه » <٢> .

وعن أبى الدرداء <٣> قال : قال رســـول الله ـ صلـــى الله عليه وسلم ـ : « الصلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة والصلاة فى مسجدى بألف صلاة ، والصلاة فى بيت المقدس بخمسمائة صلاة » <٤> .

---

١ ـ صحيح البخارى (كتاب الجمعة ، باب فضل الصلاة فى مسجدى مكة والمدينة ، ٢ / ٧٦) ، وصحيح مسلم (كتاب الحج ، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث مساجد ، ٢ / ١٠١٤) .

٢ ـ أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣ / ٢٩٧) وابن ماجه فى (كتاب إقامة الصلاة ـ باب ما جاء فى فضل الصلاة فى المسجد الحرام (١ / ٢٥٧) ، بتحقيق محمد مصطفى الأعظمى . قال المحقق : قال البوصيرى فى الزوائد : إسناد حديث جابر صحيح ورجاله ثقات .

٣ ـ أبو الدرداء : هو عويمر بن عامر بن مالك بن قيس الخزرجى ، مشهور بكنيته ، صحابى جليل ، أسلم بعد بدر وشهد أحداً وما بعدها ، ولى قضاء دمشق لعمر ، وكان عابداً ، مات فى آخر خلافة عثمان رضى الله عنهما .

الاستيعاب (٤ / ١٦٤٦) ، وأسد الغابـة (٦ / ٩٧) والإصابـــة (٣ / ٤٥) وســـير أعلام النبلاء (٢ / ٣٣٥) والعبر (١ / ٢٤) والتهذيب (٨ / ١٧٥) والتقريب (٢ / ٩١) .

٤ ـ رواه الطبرانى فى الكبير (لعله فى الأجزاء المفقودة) والبزار ، كما فى كشف الأستار (١ / ٢١٢ ، ٢١٣) وقال : لا نعلمه يروى بهذا اللفظ مرفوعاً إلا بهذا الإسناد ».

وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٤ / ٧) وقال : رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله ثقات وفى بعضهم كلام وهو حديث حسن . ولم يعزه إلى البزار .

وانظر : أيضاً فيض القدير شرح الجامع الصغير (٤ / ٢٢٨) فقد عزاه للطبرانى والبزار .

وقد يضاعف الله الأجر فى بعض الأوقات ، كما ورد ذلك فى فضل رمضان ، وفضل العشر الأواخر منه ، وليلة القدر ، والأيام العشر من ذى الحجة ، وفضل صوم يوم عرفة ، والأشهر الحرم ، وقيام الثلث الأخير من الليل ، وفضل العمل فى وقت السحر ، ونحو ذلك مما جاءت به الأحاديث الكثيرة التى يرجع إليها فى مظانها .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » (١) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا دخل العشر أحيا الليل ، وأيقظ أهله ، وجد وشد المئزر » (٢) .

وأما الأعمال الصالحة فى العشر الأوائل من ذى الحجة فهى أحب إلى الله تعالى وذلك لفضيلة هذه الأيام .

وفى حديث المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يثبت ذلك ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « ما العمل فى أيام العشر أفضل من العمل فى هذه ، قالوا : ولا الجهاد ؟ قال : ولا الجهاد إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشىء (٣) .

---

١ ـ صحيح البخارى (كتاب الصوم ، باب فضل ليلة القدر ... ، ٢ / ٥٩) .

٢ ـ صحيح البخارى (كتاب الصوم ، باب العمل فى العشر الأواخر من رمضان ، ٢ / ٦١) .

وصحيح مسلم (كتاب الاعتكاف ، باب الاجتهاد فى العشر الأواخر من شهر رمضان ، ٢ / ٨٣٢) واللفظ للبخارى .

قوله : « وشد المئزر » : المئزر الإزار ، وكنى بشده عن اعتزال النساء . وقيل : أراد تشميره للعبادة . يقال : شددت لهذا الأمر مئزرى أى تشمرت له . (اللسان أزر) .

٣ ـ صحيح البخارى (كتاب العيدين ، باب فضل العمل فى أيام التشريق ، ٢ / ٢٥) .

وكذلك الأشهر الحرم ، المعصية فيها عقوبتها أشدُّ كما أن الأجر فيها أكثر .

قال تعالى :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ‹١›

وقد رغب ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الطاعة فى الأشهر الحرم ، فعن مُجيبة الباهلية ‹٢› عن أبيها أو عمها ،أنه أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ثم انطلق فأتاه بعد سنة وقد تغيرت حالته وهيئته ، فقال : يا رسول الله ، أما تعرفنى ؟ قال : « ومن أنت ؟ قال : أنا الباهلى ‹٣› الذى جئتك عام الأول ، قال : « فما غيّرك ، وقد كنت حسن الهيئة ؟ قال : ما أكلت طعاماً إلا بليل منذ فارقتك ‹٤› ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لم عذبت نفسك » ؟ ثم قال « صم شهر الصبر ويوماً من كل شهر » ، قال : زدنى فإن بى قوة ، قال : « صم يومين » قال :« صم ثلاثة أيام » قال زدنى ،

---

١ ـ سورة التوبة : ٣٦ .

٢ ـ مجيبة الباهلية ، ويقال الباهلى ، وقيل : أبو مجيبة الباهلى وقيل : هى امرأة من الصحابة . بحديث فى الصوم أخرجه النسائى .

انظر : التهذيب (١٠ / ٤٩) و (١٢ / ٤٥١) والتقريب (٢ / ٢٣٠) .

٣ ـ الباهلى : هو عبد الله بن الحارث الباهلى ، أبو مجيبة ، كذا ذكر البغوى كما فى التهذيب (١٠/ ٤٩) وقال الحافظ ابن حجر : هو عبد الله ابن الحارث الأنصارى الباهلى أبو جهم .

انظر : الإصابة (٢ / ٢٩٣) والتهذيب (٥ / ١٨٣) والتقريب (١ / ٤٠٨) وقال ابن الأثير فى أسد الغابة (٣ / ٢٠٣) .

وذكر أبو عبد الله بن على بن بحر البلخى فى مفردات الأسماء ان اسمه : عبد الله بن الحارث ، وذكره ابن مندة وغيره فيمن لا يعرف اسمه .

« أو عمه » واسم عمه غير معروف ، ولا تضرّ جهالة اسم الصحابى فإنهم عدول بإجماع أهل العلم .

٤ ـ قوله : « إلا بليل منذ فارقتك » وفى نسخة « ما أكلت طعاماً منذ فارقتك إلا بليل » .

قال:« صم من الحرم واترك ، صم من الحرم واترك ، صم من الحرم واترك » وقال : بأصابعه الثلاثة فضمها ثم أرسلها » <١> .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال:قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل » <٢> .

وأخرج الإمام مسلم بسنده : عن قتادة الأنصارى <٣> رضى الله عنه ، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سئل عن صومه ، قال : فغضب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فقال عمر رضى الله عنه : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً ، وببيعتنا بيعة .

---

١ ـ أخرجه الإمام أبو داود فى كتاب الصوم ـ باب فى صوم أشهر الحرم ، ٢ / ٣٢٣) وكذا قال ابن الأثير فى أسد الغابة (٦ / ٢٥٠) وقال عقب الحديث أخرجه ابن مندة وأبو نعيم هكذا . ورواه ابن أبى عاصم فقال : أبو أبى مجيبة الباهلى .

وأورد هذا الحديث ابن ماجه فى (كتاب الصيام ، باب صيام أشهر الحج ، ١ / ٣١٩) فقال : عن أبى مجيبة عن أبيه أو عن عمه ، وقد أشير إلى هذا فى التهذيب (١٠ / ٤٩) ورواه الطبرانى فى الكبير (٢٢ / ٣٥٨) والبيهقى فى السنن الكبرى (٤ / ٢٩١ ، ٢٩٢) .

« والحرم » أربعة أشهر وهى التى ذكرها الله فى كتابه العزيز فقال « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق الله السموات والأرض منها أربعة حرم » ، سورة التوبة : ٣٦ وهى شهر رجب وذى القعدة وذى الحجة والمحرم .

٢ ـ صحيح مسلم (كتاب الصيام ، باب فضل صوم المحرم ، ٢ / ٨٢١) .

٣ ـ أبو قتادة الإنصارى : فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اختلف فى اسمه ، والمشهور « الحارث بن ربعى بن بلدمة السلمى » شهد أحداً وما بعدها . مات سنة أربع وخمسين وهو ابن سبعين .

انظر : طبقات ابن سعد (٦ / ١٥) والاستيعاب (٤ / ١٧٣١) وأسد الغابة (٦ / ٢٥٠) والإصابة (٤ / ١٥٨) وكنى الدولابى (١ / ٤٩) والاستغناء (١ / ٩٥) وسير أعلام النبلاء (٢ / ٣٢١) والتهذيب (١٢ / ٢٠٤) .

قال فسئل عن صيام الدهر ، فقال : (« لا صام ولا أفطر » أو « ما صام وما أفطر ») . قال : فسئل عن صوم يومين وإفطار يوم ، قال : « ومن يطيق ذلك ؟ » قال : وسئل عن صوم يوم وإفطار يومين ، قال : « ليت أن الله قوّانا لذلك » قال : وسئل عن صوم يوم وإفطار يوم ، قال : « ذلك صوم أخي داود - عليه السلام - » . قال : وسئل عن صوم يوم الاثنين ، قال : « ذاك يوم ولدت فيه ، ويوم بعثت (أو أنزل عليَّ فيه) . قال : فقال : « صوم ثلاثة من كل شهر ، ورمضان إلى رمضان صوم الدهر » . قال : وسئل عن صوم يوم عرفة ، فقال : « يكفر السنة الماضية والباقية » . قال : وسئل عن صوم يوم عاشوراء ، فقال : « يكفر السنة الماضية » . ‹١›

وفى وقت كثرة الفساد يضاعف الحق سبحانه وتعالى على الطاعة الأجر والثواب .

فعن أبى أمية الشعبانى ‹٢› قال : أتيت أبا ثعلبة الخشنى ‹٣› فقلت له : كيف تصنع فى هذه الآية ؟ قال : أية آية ؟ قلت : قوله تعالى :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ ‹٤›

---

١ - صحيح مسلم(كتاب الصيام باب استحباب صيام ثلاثة أيام كل شهر وصوم يوم عرفه ....٢/٨١٩).

٢ - أبو أميّة الشعبانى الدمشقى ، اسمه (يُحمد) بضم الياء وكسر الميم ، وقيل : بفتح أوله والميم . وقيل : اسمه عبد الله بن أخامر . روى عن معاذ بن جبل وأبى ثعلبة الخشنى وكعب الأحبار . ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال أبو حاتم : أدرك الجاهلية .

التهذيب (١٢ / ١٥) والتقريب (٢ / ٣٩٢) واللباب لابن الأثير (٢ / ١٩٨) .

٣ - أبو ثعلبة الخشنى ، صحابى مشهور بكنيته ، وكان ممن بايع تحت الشجرة بالحديبية ، واختلف فى اسمه واسم أبيه اختلافاً كثيرا ، فذكر فى اسمه ثمانية عشر قولاً ، واسم أبيه أربعة عشر قولاً ، مات بعد الأربعين .

انظر : طبقات ابن سعد (١ / ٣٢٩) والاستيعاب (٤ / ١٦١٨) وأسد الغابة (٦ / ٤٤) والإصابة (٤ / ٢٩) وكُنى مسلم (١٧١) وكُنى الدولابى (١ / ٢١) والاستغناء لابن عبد البر (١ / ١٢٤) واللباب (١ / ٤٤٦) والتهذيب (١٢ / ٤٩) .

٤ - سورة المائدة : ١٠٥ .

قال : « أما والله لقد سألت عنها خبيراً ، سألت عنها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « بل ائْتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودُنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام ، فإن من ورائكم أياماً الصبرُ فيهن مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم » .

قال عبد الله بن المبارك : وزادنى غير عتبه (١) . قيل : يا رسول الله أجر خمسين رجلاً منّا أو منهم ؟ قال : « لا . بل أجر خمسين رجلاً منكم » (٢) .

وقد يرضى الله تعالى عن الشخص فى عمل حسنة من الحسنات ، وقد يغضب عليه من عمل سيئة من السيئات ، وفى هذا لفت النظر إلى أن الإنسان لا ينبغى له أن يستقل حسنة ، أو يستهين بسيئة ، بل ينبغى على

---

١ ـ هو عتبة بن أبى حكيم الهمدانى الشامى أحد رواة الحديث .

٢ ـ أخرجه أبو داود فى (كتاب الملاحم ، باب الأمر بالمعروف والنهى ، ٤ / ١٢٣) .

والترمذى فى (أبواب التفسير ، تفسير سورة المائدة ، ٤ / ٣٢٣) وقال : هذا حديث حسن غريب ، واخرجه ابن ماجه فى (كتاب الفتن ـ باب قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم » (٢ / ١٣٣٠ ، ١٣٣١) وابن جرير فى تفسيره (١٢٨٦٣) وابن حبان كما فى موارد الظمآن (٤٥٧ ، ٤٥٨) والحاكم فى المستدرك (٤ / ٣٢٢) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى ، والبغوى فى شرح السنة (١٤ / ٣٤٧) كلهم من حديث أبى ثعلبة الخشنى مثله . واللفظ للترمذى .

وجاء فى تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى قوله : « فقلت له كيف تصنع فى هذه الآية » وفى رواية أبى داود : « كيف تقول فى هذه الآية » يعنى : ما معنى هذه الآية وما تقول فيها . « سألت عنها خبيراً » أى عارفاً وعالماً بمعنى هذه الآية .

ومعنى قوله : « ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر » أى امتثلوا ، والمعنى : ليأمر بعضكم بعضاً بالمعروف ، وتنهى طائفة منكم طائفة عن المنكر .

قوله « شحاً مطاعاً » هو أشد البخل ، بأن أطاعته نفسك وطاوعه غيرك . .

قوله « وهوى متبعاً » أى وهوى للنفس متبوعاً ، حاصله أن كلاً يتبع هواه .

قوله : « دنيا مؤثرة » أى بالمال ونحوه من الشهوات ، مقدّمة على أمور الدين .

قوله : « وإعجاب كل ذى رأى برأيه » : أى من غير نظر إلى الكتاب والسنة والإعجاب بكسر الهمزة : هو وجدان الشيء حسنٌ ، ورؤيته مستحسناً بحيث يصير صاحبه به معجباً ، وعن قبول كلام الغير مجنباً ، وإن كان قبيحاً فى نفس الأمر .

الإنسان المكلف أن يعمل بقدر ما يستطيع من الحسنات حيث يتيسر له ذلك ، ويتقى ما يمكن اتقاؤه من السيئات ، فقد يأتى بحسنة من الحسنات فى وقت من الأوقات تكون سبباً فى نجاته .

فقد جاء عـــن المصطفـــى ـ صلى الله عليه وسلـــم ـ ما يثبـــت ذلـــك ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه ،عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « غُفِرَ لإمـرأة مومسـة مرت بكلب على رأس ركىٍّ يلهث ، قال : كاد يقتله العطش ،فنزعت خفها فأوثقته بخمارها فنزعت له من الماء فغُفِر لها ذلك »<١>.

وعنه رضى الله عنه ، عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أن امرأة بغيًا رأت كلباً فى يوم حار يطيف ببئر ، قد أدلع لسانه من العطش . فنزعت له بموقها فغفر لها » <٢> .

قوله : فعليك نفسك » أى الزمها واحفظها من المعاصى .

قوله : « ودع العوام » : أى أترك عامة الناس الخارجين عن طريق الخواص .

قوله : « فإن من ورائكم أياماً » أى قدامكم من الأزمان الآتية .

قوله : « الصبر فيهن مثل القبض على الجمر » يعنى يلحقه المشقة بالصبر فى تلك الأيام كمشقة الصابر على قبض الجمر بيده .

فقوله : « يعملون مثل عملكم » وفى رواية أبى داود وابن ماجه والحاكم « ويعملون مثل عمله » أى من غير زمانه .

وقوله : « قال : لا بل أجر خمسين رجلاً منكم » وهذا دليل على فضل هؤلاء ، وأن أجرهم أعظم من أجر الصحابة رضى الله عنهم فى هذه الناحية ، لأنهم يجدون من المشقة أكثر مما كان يجد الصحابة رضوان الله عليهم لكثرة المنكر وقلة الأعوان .

قوله : « هذا حديث حسن غريب » وأخرجه أبو داود وابن ماجه و ابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم والبيهقى فى شعب الإيمان » .

انظر : تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى (٨ / ٤٢٤ ـ ٤٢٦) .

١ ـ صحيح البخارى (كتاب بدء الخلق ، باب إذا وقع الذباب فى شراب أحدكم ... ، ٤ / ١٥٨) .

٢ ـ صحيح مسلم (كتاب السلام ، باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها ،٤ / ١٧٦١) .

قوله : « ركى » الركى : هو البئر كما فسرته الروايات الأخرى .

قوله « بموقها » : الموق هو الخف ، فارسى معرب ، ومعنى « نزعت له بموقها » : أى استقت . (شرح النووى على صحيح مسلم كتاب السلام ، باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها ، ١٤ / ٢٤٢) .

وعنه رضى الله عنه أيضاً قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « بينما كلب يطيف بركية قد كاد يقتله العطش إذ رأته بغيٌ من بغايا بنى إسرائيل فنزعت موقها فاستقت له به ، فسقته إياه ، فغُفر لها به » .

وعنه رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً ، فنزل فيها فشرب ، ثم خرج ، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان قد بلغ منى ، فنزل البئر فملأ خُفَّه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى ، فسقى الكلب فشكر الله له ، فغفر له » قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا فى هذه البهائم لأجراً ؟ فقال : « فى كل كبدٍ رطبة أجرٌ » ‹١› .

فالواجب ألا يستقل الإنسان أى طاعة يعملها ، فقد يكون فيها رضى الله تعالى وإن كانت صغيرة ، وإن كان ذنب الإنسان كبيراً .

وقد يفعل الإنسان سيئة من السيئات وهو مستهتر بها ، مستصغر لها ، فتكون سبباً فى هلاكه وغضب الله عليه .

وجاء فى حديث المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يشير إلى ذلك ، فعن عبد الله أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « عُذِّبت امرأة فى هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار ، لا هى أطعمتها وسقتها إذ حبستها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » ‹٢› .

---

١ ـ صحيح مسلم (كتاب السلام ، باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها ، ٤ / ١٧٦١) ، وقد سبق أن ذكر هذه الأحاديث عند تفسير قوله تعالى : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ... » (الآية من سورة الأنعام : ٣٨) .

٢ ـ صحيح مسلم (كتاب الإسلام ، باب تحريم قتل الهرة ، ٤ / ١٧٦٠) .

قوله (فدخلت فيها النار) أى بسببها .

وقوله (خشاش الأرض) بفتح الخاء المعجمة وكسرها وضمها والفتح أشهر وهى هوام الأرض وحشراتها .

والصحابى (عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما كما في فهرس صحيح مسلم ، ٥ / ٣٢٥) .

بل إن مجرد الإقبال على الله عز وجل بقلب خالص خائف من عذابه ، راجٍ رحمته يكون سبباً من أسباب نجاته ولو لم يفعل شيئاً مَن الخير ، مع ما كان عليه من المعاصى والذنوب .

فقد جاء فى حديث المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يوضح ذلك ، فقد أخرج الإمام البخارى بسنده : عن حذيفة <١> عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « كان رجل ممن كان قبلكم يُسيءُ الظن بعمله ، فقال لأهله : إذا أنا مت فخذونى فَذَرُّونى فى البحر فى يوم صائف ، ففعلوا به ، فجمعه الله ثم قال : ما حملك على الذى صنعت ؟ قال : ما حملنى إلا مخافتك ، فغفر له » <٢> .

هذه إحدى روايات البخارى ، وقد ذكر مسلم روايات أخرى بمعناها <٣> .

---

١ ـ هو حذيفة بن اليمان بن جابر العبسى ، أبو عبد الله ، له ولأبيه صحبة ، أراد شهود بدر فصدّه المشركون ، وشهد أحداً ، وهو معروف فى الصحابة بصاحب سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عمر يسأله عن المنافقين وينظر عند موت من مات منهم ، فإن لم يشهد جنازته حذيفة لم يشهدها عمر ، واستعمله عمر على المدائن ، مات سنة ٣٦ هـ .

طبقات ابن سعد (٧ / ٣١٧) والاستيعاب (١ / ٣٣٤ ، ٤٦٨) والإصابة (١ / ٣١٧) وسير أعلام النبلاء (٢ / ٣٦١) والتهذيب (٢ / ٢١٩) .

٢ ـ صحيح البخارى (كتاب الرقاق ، باب الخوف من الله ، ٨ / ١٢٦) .

٣ ـ صحيح مسلم (كتاب التوبة ، باب سعة رحمة الله وأنها تسبق غضبه ، ٤ / ٢١٠٩ ـ ٢١١١) .

ومعنى قوله : « فَذَرُّونِى » : بالتخفيف بمعنى الترك وبالتشديد بمعنى التفريق (انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى ، كتاب الرقاق ، باب الخوف من الله ، ١١ / ٣١٣) .

وقد يكون للإنسان من الحسنات والأعمال الصالحة ما يتضاءل أمامها بعض السيئات التي يكون قد اقترفها ، روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الرحمن بن سَمُرة (١) قال : جاء عثمان بن عفان (٢) إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جيش العسرة . قال : فصبّها في حجر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فجعل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقلبها بيده ويقول : ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم ، يرددها مراراً » (٣) .

وروى الحاكم بسنده عن عبد الرحمن بن سَمُرة قال : جاء عثمان رضي الله عنه إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بألف دينار حين جهز جيش العسرة ، ففرغّها عثمان في حجر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : فجعل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقلبها ويقول :« ما ضر عثمان ما عمل بعد هذا اليوم ، قالها مراراً » (٤) .

---

١ ـ عبد الرحمن بن سمره بن حبيب ، أبو سعيد القرشي ، أسلم يوم الفتح ، وكان أحد الأشراف ، نزل البصرة ، وغزا سجستان أميراً على الجيش ، مات بالبصرة سنة خمسين أو بعدها .
طبقات ابن سعد (٧ / ١٥) والاستيعاب (٢ / ٨٣٥) وأسد الغابة (٣ / ٤٥٤) والإصابة (٢ / ٤٠٠) وسير أعلام النبلاء (٢ / ٥٧١) والتهذيب (٦ / ١٩٠) والشذرات (١ / ٥٣) .

٢ ـ عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أميّة القرشي الأموي ، صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنتيه ، وثالث الخلفاء الراشدين ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، استشهد في مدينة الرسول وهو يقرأ القرآن صبيحة عيد الأضحى سنة ٣٥ هـ وله نيف وثمانون سنة ، وكان غنياً شريفاً في الجاهلية والإسلام .
الاستيعاب (٣ / ١٠٧٣) وأسد الغابة (٣ / ٥٨٤) والإصابة (٢ / ٤٦٢) والتذكرة (١ / ٨) .

٣ ـ مسند الإمام أحمد (٥ / ٦٣) والترمذي في (أبواب المناقب ، باب مناقب عثمان ، ٥ / ٦٢٦) وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

٤ ـ المستدرك على الصحيحين (كتاب معرفة الصحابة ، باب تجهيز عثمان جيش العسرة ، ٣ / ١٠٢) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي .

ومثال ذلك ما قاله الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أهل بدر : « لعل الله اطلع عليهم فقال : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » وأصل هذا الحديث رواه مسلم بسنده عن الحسن بن محمد <١> أخبرني عبيد الله بن أبى رافع <٢> ، وهو كاتب علىّ <٣> ، قال : سمعت علياً رضى الله عنه وهو يقول : بعثنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنا والزبير <٤> والمقداد <٥> فقال : ائتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب ، فخذوه منها » .

---

١ ـ الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب الهاشمى ، وأبوه يعرف « بابن الحنفيّة » كان من ظرفاء بنى هاشم وأهل الفضل منهم . وهو أول من تكلم فى الإرجاء ، والمراد به غير الإرجاء الذى يعيبه أهل السنة المتعلق بالإيمان ، وهو عدم القطع على إحدى الطائفتين المقتتلتين فى الفتنة بكون مخطئاً أو مصيباً ، وكان يرى أنه يُرجىء الأمر فيهما . توفى فى خلافة عمر بن عبد العزيز .

انظر : طبقات ابن سعد (٥ / ٣٢٨) وتهذيب التهذيب (٢ / ٣٢٠) والتقريب (١ / ١٧١) .

٢ ـ عبيد الله بن أبى رافع المدنى ، مولى النبى صلى الله عليه وسلم ، كان كاتب على رضى الله عنه، ثقة ، روى له الجماعة .

انظر : طبقات ابن سعد (٥ / ٢٨٢) والثقات للعجلى (٣١٦) والثقات لابن حبان (٥ / ٦٨) وتاريخ ابن معين (٢ / ٣٨٢) والتهذيب (٧ / ١٠) .

٣ ـ علىّ بن أبى طالب بن عبد المطلب ، أبو الحسن الهاشمى ، أمير المؤمنين ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزوج ابنته ، من السابقين الأولين ، ورابع الخلفاء الراشدين وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، استشهد ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان سنة أربعين وهو يومئذ أفضل الأحياء من بنى آدم بإجماع أهل السنة .

انظر : الاستيعاب (٣ / ١٠٨٩) وأسد الغابة (٤ / ٩١) والإصابة (٢ / ٥٠٧) والتذكرة (١ / ١٠) والتهذيب (٧ / ٣٣٤) .

٤ ـ الزبير بن العوام بن خويلد الأسدى ، أبو عبد الله ، حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن عمته صفية ، وأحد العشرة المبشرين ، شهد بدراً وما بعدها ، وهاجر الهجرتين ، وهو أول من سلّ سيفاً فى سبيل الله ، وكان قتله يوم الجمل سنة (٣٦ هـ) .

انظر : الاستيعاب (٢ / ٥١٠) وأسد الغابة (٢ / ٢٤٩) والإصابة (١ / ٥٤٥) وسير أعلام النبلاء (١ / ٤١) والتهذيب (٣ / ٣١٨) .

٥ ـ المقداد بن عمر بن ثعلبة بن مالك الكندى ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحد السابقين الأولين ويقال له المقداد بن الأسود ، لأنه ربِّى فى حجر الأسود بن عبد يغوث الزهرى فتبناه . شهد بدراً والمشاهد ، عاش نحواً من سبعين سنة ـ مات سنة (٣٣ هـ) وصلى عليه عثمان بن عفان وقبره بالبقيع ـ رضى الله عنه .

فانطلقنا تعادى بنا خيلنا ، فإذا نحن بالمرأة ، فقلنا : أخرجى الكتاب . فقالت : ما معى كتاب . فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب فأخرجته من عقاصها .

فأتينا به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فإذا فيه : « من حاطب ابن أبى بلتعة <١> إلى ناس من المشركين من أهل مكة » يخبرهم ببعض أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يا حاطب ما هذا ؟ » قال : لا تعجل علىَّ يا رسول الله ، إنى كنت امرأً ملصقاً فى قريش (قال سفيان : كان حليفاً لهم ، ولم يكن من أنفُسِهَا) وكان ممن كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم ، فأحببت ، إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتى ، ولم أفعله كفراً ولا ارتداداً عن دينى ، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام ، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « صدق » فقال عمر :

= انظر : طبقات ابن سعد (٣ / ١٦١) والاستيعاب (١٠ / ٢٦٢) وأسد الغابة (٥ / ٢٥١) والإصابة (٣ / ٤٥٤) وحلية الأولياء (١ / ١٧٢) وسير أعلام النبلاء (١ / ٣٨٥) والتهذيب (١٠ / ٢٨٥) والشذرات (١ / ٣٩) .

قوله « روضة خاخ » خاخ : (بعد الألف خاء معجمة أيضاً) موضع بين الحرمين ويقال له « روضة خاخ » بقرب حمراء الأسد من المدينة ، وهى من أحماء المدينة التى حماها النبى صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدون من بعده (معجم البلدان ٢ / ٣٣٥) .

١ ـ حاطب بن أبى بلتعة اللخمى ، صحابى شهد الوقائع كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من أشد الرماة فى الصحابة ، وكانت له تجارة واسعة ، بعثه صلى الله عليه وسلم بكتابه إلى المقوقس صاحب الاسكندرية ، ومات فى المدينة سنة (٣٠ هـ) وكان أحد فرسان قريش وشعرائها فى الجاهلية .

انظر : أسد الغابة (١ / ٤٣١) والإصابة (١ / ٣٠٠) والأعلام (٢ / ١٥٩) .

« قال سفيان » هو سفيان بن عيينة أحد رواة الحديث .

دعنى يا رسول الله أضرب عنق هـــذا المنافق . فقال : « إنه قد شهد بدراً . وما يدريك لعل الله اطّلَع على أهل بدر فقـال : اعملوا ما شئـتم فقــد غفرت لكم » <١> .

فأهـــل بدر لهــم أعمـــال كبيرة والرســول ـ صلى اللــه عليه وسلم ـ أشار إليها فى الحديث السابق والأمر فى هذا كما قيل :

فإن يكـن الفعـل الـذى سـاء واحـداً

فأفعـالـه الـلاتى ســـررن ألـــوف <٢>

١ ـ صحيح مسلم (كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أهل بدر ... ، ٤ / ١٩٤١) .

قوله : « فإن بها ظعينة » الظعينة : هى المرأة المسافرة .

وقوله : « تعادى » : أى تجرى .

وقوله : « عقاصها » : أى شعرها المضفور : جمع عقيصة .

٢ ـ ديوان المتنبى (قصيدة كريم ألوف ـ ٢٥٥) دار بيروت للطباعة والنشر .

* السيئات كبيرها وصغيرها :

السيئات منها كبائر ، ومنها صغائر .

أما الكبـــائر :

فهي جمع كبيرة ، وهي كل معصية نَصَّ الشارع على أنها كبيرة ، أو تَوَعَّد فاعلَها بالنار ، أو لعن فاعلَها ، أو جعل عقوبتها حَدّاً ، أو أخبر أن فعلها يغضب الله <١> . ومن أمثلتها : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والربا ، والزنا ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، والغيبة ، والنميمة ، وأكل أموال الناس بالباطل .

وفى أحاديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يشير إلى ذلك . فقد أخرج الشيخان بسنديهما ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسِّحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولِّى يوم الزَّحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » <٢> .

---

١ ـ انظر : كتاب الكبائر للإمام محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى .
وكذلك كتاب الكبائر للإمام ابن حجر الهيثمى .
وقد اختلف العلماء فى عدد الكبائر ، وأوصلها بعضهم إلى سبعة ، وإلى سبعين ، وإلى سبعمائة . ومنهم من ألف من ذلك كتاباً ، مثل : الذهبى فى كتابه « الكبائر » وابن حجر الهيثمى « الزواجر عن ارتكاب الكبائر » .

٢ ـ صحيح البخارى (كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة ، باب رمى المحصنات « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء » ، ٨ / ٢١٨) .
وصحيح مسلم (كتاب الإيمان ـ باب بيان الكبائر وأكبرها ، ١ / ٩٢) واللفظ للبخارى .

وعن عبد الرحمن بن أبى بَكْرة <١> ، عن أبيه رضى الله عنه قال : قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أكبر الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزُّور ثلاثاً ، أو قول الزور ، فمازال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » <٢> .

وعن جابر قال : « لعن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ آكل الربا ، ومُوكِلَه وكاتبه ، وشاهدَيْه ، وقال : هم سواء » <٣> .

وعن عبد الله رضى الله عنه : «لعن الله الواشمات والمُسْتَوْشِمات والمُتَنمِّصات والمُتَفَلِّجاتِ المغيِّرات خلقَ الله ، ما لى لا ألعن من لعن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهو فى كتاب الله » <٤> .

---

١ ـ عبد الرحمن بن أبى بكرة الثقفى ، أبو بحر ، ولد زمن عمر ، وكان ثقة ، كبير القدر ، مقرئاً عالماً ، جواداً مُمَدَّحاً ، توفى سنة ست وتسعين .

طبقات ابن سعد (٧ / ١٩٠) وتاريخ البخارى (٥ / ٢٦٠) وتهذيب الأسماء واللغات (١ / ٢٩٥) وسير اعلام النبلاء (٤ / ٣١٩) والعبر (١ / ١٢٣) والإصابة (٣ / ١٤٧) والتهذيب (٦ / ١٤٨) والشذرات (١ / ١٢٢) .

٢ ـ صحيح البخارى (كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم ، باب إثم من أشرك ، ٩ / ١٧) . وصحيح مسلم (كتاب الإيمان ، باب بيان الكبائر وأكبرها ، ١ / ٩٢ واللفظ للبخارى .

٣ ـ صحيح مسلم (كتاب المساقاة ، باب لعن آكل الربا ومؤكله ، ٣ / ١٢١٩) .

٤ ـ صحيح البخارى (كتاب اللباس ، باب المستوشمة ، ٧ / ٢١٤) .

« الواشمات » : جمع واشمة بالشين المعجمة وهي التى تشم ، والمستوشمات » جمع مستوشمة وهي التى تطلب الوشم .

قال أهل اللغة : الوشم بفتح ثم سكون أن يغرز في العضو إبرة أو نحوها حتى يسيل الدم ثم يحشى بنورة أو بغيرها فيخضر .

وقال أبو داود في السنن : الواشمة التى تجعل في وجهها الكحل أو المداد ، والمستوشمة المعمول بها ، (فتح الباري شرح صحيح البخارى ، كتاب اللباس ، باب المتفلجات .. ، ١٠ / ٣٧٢) .

ومعنى « المتنمصات » : جمع متنمصة والمتنمصة هي التى تطلب النماص ، والنامصة التي تفعلة ، والنماص إزالة شعر الوجه بالمنقاش . ويسمى المنقاش منماصاً لذلك . ويقال إن النماص يختص بازالة شعر الحاجبين لترفيعهما أو تسويتهما . قال أبو داود في السنن : النامصة التي تنقش الحاجب حتى ترقه . (فتح البارى شرح صحيح البخارى ، كتاب اللباس ، باب المتنمِّصات ، ١٠ / ٣٧٧) .

ومعنى « المتفلجات » : المتفلجات جمع متفلجة ، وهى التى تطلب الفلج أو تصنعه والفلج بالفاء واللام والجيم انفراج ما بين الثنيتين ، والتفليج أن يفرج بين المتلاصقين بالمبرد ونحوه ، وهو مختص عادة بالثنايا والرباعيات . (فتح البارى شرح صحيح البخارى ، كتاب اللباس ، باب المتفلجات للحسن ، ١٠ / ٣٧٢) .

والكبائر لا تكفرُ إلا بالتوبة النصوح ، أو بإقامة الحد فيما جعل الله له حداً .

مثل حد الزنـــا ، وحـــــد القذف ، وحد الردة عن الإسلام ، وحد السرقة ، وحد شرب الخمر ، وحد قُطاع الطريق .

والتوبة النصوح قد أمر الله سبحانه وتعالى بها فى قوله عز من قائل :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ
أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَهُ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا
أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾

‹١›

قال العلماء للتوبة شروط :

١ ـ أن يقلع عن المعصية .

٢ ـ أن يندم على فعلها .

٣ ـ وأن يعزم عزماً جازماً على أن لا يعود إلى مثلها أبداً .

فإن كانت المعصية فيها حق لإنسان ، فلها شرط رابع وهو :

٤ ـ رد المظلمة إلى صاحبها أو تحصيل البراء منه .

يقول تعالى :

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

‹٢›

---

١ ـ سورة التحريم : ٨ .

٢ ـ سورة الشورى : ٢٥ .

وفى الحديث الشريف الذى رواه الشيخان عـن أنـس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اللَّهُ أفرح بتوبه عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله بأرض فلاة » <١> .

وفى رواية أخرى لمسلم ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لَلَّهُ أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه ، من أحدكم ، كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منهـا ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها . قد أيس من راحلته ، فبينما هـو كذلك إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : « اللهم أنت عبدى وأنا ربك . أخطأ من شدة الفرح » <٢> .

وعن أبى هريرة قال : سمعت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن عبداً أصاب ذنباً ـ وربما قال : أذنب ذنباً ـ فقال : ربِّ أذنبت ، وربما قال : أصبت فاغفر لى ـ فقال ربه : أعَلِمَ عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به غفرت لعبدى ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ذنباً أو أذنب ذنباً ، فقال : ربِّ أذنبت أو أصبت آخر فاغفره ، فقال : أعَلِمَ عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به غفرت لعبدى ، ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنباً ـ وربما قال أصاب ذنباً ـ قال : قال : رب أصبت ـ أو أذنبت ـ آخر فاغفره لى، فقال : أعَلِمَ عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به غفرت لعبدى ثلاثاً فليعمل ما شاء » . <٣> .

ومهما أسرف الإنسـان على نفسه فإن الله يقبل توبته متى تاب ورجع إليه جل ثناؤه فإنه يتوب عليه ويغفر ذنوبه .

---

١ ـ صحيح البخارى (كتاب الدعوات ، باب التوبة ، ٨ / ٨٤) وصحيح مسلم (كتاب التوبة ، باب فى الحض على التوبة والفرح بها ، ٤ / ٢١٠٥) واللفظ للبخارى .

٢ ـ صحيح مسلم (كتاب التوبة ، باب الحض على التوبة والفرح بها ، ٤ / ٢١٠٤ ـ ٢١٠٥) .

٣ ـ صحيح البخارى (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : يريدون أن يبدلوا كلام الله) (٩ / ١٧٨) وصحيح مسلم (كتاب التوبة ، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة ، ٤ / ٢١١٢) واللفظ للبخارى .

قال تعالى :

قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ

‹١›

وقال عز من قائل :

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ‹٢›

وقال جل ثناؤه :

وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾

‹٣›

وفى أحاديث المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يؤكد ذلك .

---

١ ـ سورة الزمر : ٥٣ .

٢ ـ سورة الأنفال : ٣٨ .

٣ ـ سورة آل عمران : ١٣٥ ، ١٣٦ .

فعن أبى موسى رضى الله عنه ، عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » (١) .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « كان فى بنى إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنساناً ، ثم خرج يسأل ، فأتى راهباً فسأله فقال له : هل من توبة ؟ قال : لا ، فقتله ، فجعل يسأل ، فقال له رجل : أئت قرية كذا وكذا ، فأدركه الموت فناء بصدره نحوها ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فأوحى الله إلى هذه أن تَقَرَّبى ، وأوحى الله إلى هذه أن تباعدى ، وقال : قيسوا ما بينهما فَوجد إلى هذه أقرب بشبر فَغُفر له » (٢) .

وجاء فى رواية مسلم عن أبى سعيد الخدرى ، أن نبى الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على راهب فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله فكَمَّلَ به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على رجل عالم فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا نَصف الطريق أتاه الموتُ ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مُقبلاً بقلبه إلى الله ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قَطُّ . فأتاهم مَلَك فى صورة آدمى فجعلوه بينهم فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة » .

---

١ ـ صحيح مسلم (كتاب التوبة ، باب قبول التوبة من المذنب ... ، ٤ / ٢١١٣) .

٢ ـ صحيح البخارى (كتاب بدء الخلق ، باب ما ذكر عن بنى اسرائيل ، ٤ / ٢١١ ، ٢١٢) .

وورد بزيادة « ثم جعل يسأل ، ثم خرج من قرية إلى قرية فيها قوم صالحون ، فلما كان فى بعض الطريق أدركه الموت ، فنأى بصدره ، ثم مات . فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر ، فجعل من أهلها » ‹١› .

إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التى تحث على التوبة النصوح والرجوع إلى الله تعالى .

حكم من ارتكب كبيرة ومات دون أن يتوب أو يقام عليه الحد :

وهنا نتساءل : ما حكم الإنسان الذى ارتكب إحدى الكبائر ، ثم مات قبل أن يتوب أو يقام عليه الحد ؟

الجواب عن ذلك :

أن هذا الإنسان توزن حسناته وسيئاته :

١ ـ فإن رجحت حسناته على سيئاته فهو من أهل الجنة .

٢ ـ وإن رجحت سيئاته على حسناته فهو فى النار يعذب بقدر السيئات التى ارتكبها .

قال الحق سبحانه وتعالى :

وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ‹٢›

---

١ ـ صحيح مسلم (كتاب التوبة ، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله ، ٤ / ٢١١٨ ، ٢١١٩) .

٢ ـ سورة الأعراف : ٨ ، ٩ .

وقال جل ثناؤه :

فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ
﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ
﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ‹١›

فهو يعذب فى النار بقدر هذه السيئات التى ارتكبها إلا أن يتداركه الله سبحانه وتعالى بعفوه ورحمته ، لما جاء فى أحاديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

فعن عبادة بن الصامت ‹٢› رضى الله عنه قال : كنا عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مجلس فقال : « بايعونى أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا وقرأ هذه الآية كلها .

فمن وَفىَّ منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه إن شاء غفر له وإن شاء عذبه » ‹٣› .

---

١ ـ سورة القارعة : ٦ ـ ١١ .

٢ ـ عبادة بن الصامت بن قيس بن اصرم الخزرجى ، الإمام القدوة أبو الوليد الأنصارى أحد النقباء ليلة العقبة ، ومن أعيان البدريين ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مات بالرملة سنة اربع وثلاثين ، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة .

انظر : طبقات ابن سعد (٣ / ٥٤٦) والاستيعاب (٢ / ٨٠٧) وأسد الغابة (٣ / ١٦٠) والإصابة (٢ / ٢٦٨) وسير أعلام النبلاء (٢ / ٥) والتهذيب (٥ / ١١) وتهذيب تاريخ دمشق (٧ / ٢٠٩) .

٣ ـ حديث صحيح متفق على صحته ، أخرجه البخارى فى (كتاب الإيمان ، باب علامات الإيمان حب الأنصار ، ١ / ١١) وفى (كتاب فضائل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ـ باب وفود الأنصار إلى النبى صلى الله عليه وسلم بمكة وبيعة العقبة) (٥ / ٧٠) وفى (كتاب التفسير فى باب تفسير سورة الممتحنة) (٦ / ١٨٦ ـ ١٨٧) وفى (كتاب الحدود ، باب الحدود كفارة ، ٨ / ١٩٨) ، وأخرجه مسلم فى (كتاب الحدود ـ باب الحدود كفارة لأهلها) ، والنسائى فى (كتاب البيعة ، باب البيعة على الجهاد ، ٧ / ١٤١ / ١٤٢) والبغوى فى شرح السنة (١ / ٦٠) .

وقوله : (قرأ هذه الآية كلها) أى آية المبايعة التى فى سورة الممتحنة : ١٢ .

٣ ـ وأما إن تساوت حسناته وسيئاته فهو من أهل الأعراف ، وقد ذكرهم الله تعالى فى كتابه العزيز فى سورة « الأعراف » فذكر أصحاب الجنة . وما وجدوه فيها من النعيم العظيم ، وأصحاب النار وما وجدوه فيها من العذاب الأليم ، ثم ذكر أصحاب الأعراف .

فقال عز من قائل :

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ
رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ
أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَنَادَى أَصْحَابُ
الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ
وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ
اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ

<١>

وأهل الأعراف يدخلون الجنة بعفو الله تعالى ورحمته .

---

١ ـ سورة الأعراف : ٤٦ ـ ٤٩ .

والأعراف : جمع عُرْف ، وهو السور المضروب بين الجنة والنار ، وقد ذكره الله تعالى فى قوله : « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب » (سورة الحديد : ١٣) . أى فعلى هذا السور أو فوق هذا السور أهل الأعراف ، فهم يعرفون كلاً من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم ، أى بعلاماتهم التى ميزهم الله بها .

قال قتادة : يعرفون أهل النار بسواد وجوههم ، وأهل الجنة ببياض وجوههم .

انظر : تفسير الطبرى (١٢ / ٤٦٣) .

فعن حذيفة أنه سُئل عن أصحاب الأعراف فقال : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة وتخلفت بهم حسناتهم عن النار ، فوقفوا هنالك على السور حتى يقضى الله تعالى فيهم .

قال بعضهم : إنما جُعلوا على الأعراف لأنها درجة متوسطة بين الجنة والنار ، فهم لا من أهل الجنة ولا من أهل النار <١> .

وعن أبى زرعة بن عمرو بن جرير قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اصحاب الأعراف فقال : « هم آخر من يفصل بينهم من العباد ، وإذا فرغ رب العالمين من فصله بين العباد قال : انتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ، ولم تدخلكم الجنة ، وانتم عتقائى ، فارعوا من الجنة حيث شئتم » .

وعن ابن عباس : « **وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم** » قال : أنزلهم الله بتلك المنزلة ، ليعرفوا من فى الجنة ومن فى النار ، وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه ويتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين ، وهم فى ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام ، لم يدخلوها ، وهم يطمعون أن يدخلوها ، وهم داخلوها إن شاء الله » <٢> .

وقد يصادف الإقبال على الله وقتاً من الأوقات التى تتجلى فيها رحمة الله الواسعة ، فيغفر سبحانه وتعالى الزلات ، ويعفو عن السيئات .

---

١ ـ تفسير الطبرى (١٢ / ٤٥٣) ، وانظر : تفسير الخازن (٢ / ١٩٢) .

٢ ـ تفسير الطبرى (١٢ / ٤٦١ ، ٤٦٢) .

وانظر : تفسير ابن كثير (٢ / ١٧٣ ، ١٧٤) ، وخبر أبى زرعه مرسل حسن .

ففى الحديث الشريف :

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « افعلوا الخير دهركم ، وتعرضوا لنفحات رحمة الله ، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده ، وسلوا الله أن يستر عوراتكم ، وأن يؤمن روعاتكم » ‹١› .

وجملة القول أن على الإنسان أن يكون يقظاً ومنتبهاً لكل ما يصدر عنه من قول أو فعل ، ذلك أن الإنسان مراقب من قبل الله ، ومحاسب على كل ما يصدر عنه ، وقد يغفو ضميره فيصدر عنه ما يحاسب عليه الحساب العسير .

فقد جاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

عن أبى هريرة عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ، لا يُلقى لها بالاً يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سَخَط الله لا يُلقى لها بالاً يَهْوِى بها فى جهنم » ‹٢› .

وقال تعالى :

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ
إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾

‹٣›

---

١ ـ رواه الطبرانى فى الكبير (١ / ٢٥٠) حديث (٧٢٠) وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠ / ٢٣١) وعزاه للطبرانى وقال : اسناد رجاله رجال الصحيح غير عيسى بن موسى بن إياس ابن البكير وهو ثقة .

٢ ـ صحيح البخارى (كتاب الدعوات ، باب حفظ اللسان ، ٨ / ١٢٥) .

٣ ـ سورة الإسراء : ٣٦ .

وقوله « ولا تقفُ » معناها : لا تتبع . أى لا تقل : علمت والحال أنك لم تعلم ، ولا رأيت والحال أنك لم تر ، ولا سمعت والحال أنك لم تسمع لأن الإنسان مسئول عن ذلك كله ماذا فعل به .

وأما الصغائر :

فهى ما دون الكبائر ، وتكفر بالأعمال الصالحة وترك الكبائر .

قال الحق سبحانه وتعالى :

إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ
عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ‹١›

وقال عز من قائل :

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا
بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ
إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ
وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ
بِمَنِ اتَّقَى ﴿٣٢﴾

‹٢›

وقال تعالى :

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ
اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ‹٣›

---

١ ـ سورة النساء : ٣١ .

٢ ـ سورة النجم : ٣١ ، ٣٢ .

وقوله : « إلا اللمم » « اللمم » صغائر الذنوب . والمعنى : لكن اللمم يغفر باجتناب الكبائر (انظر تفسير الجلالين : ٤٤٥) .

٣ ـ سورة هود : ١١٤ .

ويستفاد من هذه الآيات الكريمة أن كل عمل صالح يعملة الإنسان المؤمن مكفر لصغائر ذنوبه .

وفى حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ما يدل على ذلك أيضاً .

فعن أبى ذر قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقِ الله حيث ما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » (١) .

---

١ ـ أخرجه الترمذى فى (أبواب البر والصلة ، باب ما جاء فى معاشرة الناس ، ٤ / ٢٣٩) وقال حسن صحيح .

والدارمى فى (كتاب الرقاق ـ باب فى حسن الخلق) (٢ / ٢٣١) .

والإمام أحمد فى مسنده (٥ / ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٦٩ ، ١٧٧ ، ٢٢٨ ٢٣٦) .

* المكفرات للصغائر وبعض أمثلتها :

بين الله تعالى فى القرآن الكريم ، ودلت السنة المطهرة على أن بعض الأعمال الصالحة تكفر الصغائر ، فمن هذه الأعمال :

أ - الوضوء :

فقد جاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يوضح ذلك :

« عن حمران مولى عثمان (١) قال : أتيت عثمان بن عفان بوضوء فتوضأ ثم قال : إن أناساً يتحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث لا أدرى ما هى ؟ إلا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ مثل و ضوئى هذا ثم قال : « من توضأ هكذا غفر له ما تقدم من ذنبه ، وكانت صلاته ومشيه إلى المسجد نافلة » (٢) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا توضأ العبد المسلم - أو المؤمن - فغسل وجهه ، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء - أو مع آخر قطر الماء - فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء - أو مع آخر قَطْرِ الماء - فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء - أو مع آخر قطر الماء - حتى يخرج نقياً من الذنوب » (٣) .

---

١ - حُمران (بضم أوله) بن أبان الفارسى الفقيه مولى أمير المؤمنين عثمان . قال قتادة : كان حمران يصلى خلف عثمان فإذا أخطأ فتح عليه ، وعن الزهرى أن حمران كان يأذن على عثمان . وقيل : كان كاتب عثمان . وكان وافر الحرمة عند عبد الملك . مات سنة ٧٥ هـ .

طبقات ابن سعد (٥ / ٢٨٣) وتاريخ البخارى (٣ / ٨٠) وسير أعلام النبلاء (٤ / ١٨٢) وتهذيب تاريخ دمشق (٤/٤٣٨) والتهذيب (٣ /٢٤) والتقريب (١/١٩٨) والإصابة (١ / ٣٨٠) .

٢ - صحيح مسلم (كتاب الطهارة - باب فضل الوضوء والصلاة عقبه) (١ / ٢٠٧) .

٣ - صحيح مسلم (كتاب الطهارة - باب خروج الخطايا مع الوضوء) (١ / ٢١٥) .

وقوله : « بطشتها يداه » معناه : إكتسبتها .

وقوله : « مشتها رجلاه » معناه : أى مشت لها أو فيها رجلاه .

ب ـ الصلاة :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ » قالوا بلى يا رسول الله . قال « إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط فذلكم الرباط » <١> .

وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تطهر فى بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ، ليقضى فريضة من فرائض الله ، كانت خطوتاه : إحداهما تَحُطُّ خطيئة والأخرى ترفع درجة » <٢> .

وأخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ما تقول ذلك يُبْقى من درنه ؟ » قالوا : لا يُبقى من درنه شيئاً ، قال : « فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا » <٣> .

---

١ ـ صحيح مسلم (كتاب الطهارة ، باب اسباغ الوضوء على المكاره ، ١ / ٢١٩) .

قوله : « اسباغ الوضوء على المكاره » اسباغ الوضوء معناه : تمامه . والمكاره جمع مكره وهو ما يكرهه الإنسان ويشق عليه ، والكره بالضم والفتح : المشقة : والمعنى أن يتوضأ مع البرد الشديد والعلل التى يتأذى معها بمس الماء .

وقوله : « فذلكم الرباط » : أى الرباط المرغب فيه ، وأصل الرباط الحبس على الشىء كأنه حبس نفسه على هذه الطاعة .

انظر : شرح النووى على صحيح مسلم (٣ / ١٤١) .

٢ ـ صحيح مسلم (كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب المشى إلى الصلاة تمحى بها الخطايا وترفع بها الدرجات ، ١ / ٤٦٢) .

٣ ـ صحيح البخارى (كتاب مواقيت الصلاة وفضلها ، باب الصلوات الخمس كفارة ، ١ / ١٤١) .

وصحيح مسلم (كتاب المساجد ، باب المشى إلى الصلاة تمحى بها الخطايا ، ١ / ٤٦٢ ، ٤٦٣) .

وقوله : « من درنه » الدرن : الوسخ .

وعن عثمـــان بن عفان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها ، إلاَّ كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ، ما لم يؤت كبيرة ، وذلك الدهر كله » <١> .

وأخـــرج البخـارى ومسلـــم ، عن أبـــى هريرة رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلاة الرجل فى جماعة تُضَعَّفُ على صلاته فى بيته وفى سوقه خمساً وعشرين ضِعفاً ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خــرج إلى المسجد لا يخرجه إلا للصلاة ، لم يَخْطُ خُطْوة إلا رفعت له بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مصلاه ، اللّهم صلى عليه اللّهم ارحمه ، ولا يزال أحدكم فى صلاة ما انتظر الصلاة » <٢> .

وفى رواية مسلـم عنه أيضاً ــ رضـــى الله عنه قال : قال رسول الله صلـــى الله عليه وسلــم : « صلاة الرجل فى جماعة تزيد على صلاته فى بيته ، وصلاته فى سوقه بضعاً وعشرين درجة ، وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم أتى المسجد ، لا ينهزه إلا الصلاة ، لا يريد إلا الصلاة ، فلـم يخـط خطوة إلا رفـع لـــه بهـا درجـــة ، وحُط عنه بها خطيئة ، حـــتى يدخل المسجـد ، فـإذا دخـل المسجـد

١ ــ صحيح مسلم (كتاب الطهارة ، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه ، ١ / ٢٠٦) .

قوله " « مالم يؤت كبيره » معناه : أن الذنـــوب كلهـا تغفر إلا الكبائر فإنها لا تغفر إلا بتوبة أو بحد أو بعفو الله تعالى .

قال القاضى عياض : هذا المذكور فى الحديث ، من غفران الذنوب مالم يؤت كبيرة ، هـــو مذهـب أهل السنة .

وإن الكبائر إنما تكفرها التوبة . أو رحمة الله تعالى وفضله . والله أعلم .

وقوله : « وذلك الدهر كله » أى ذلـــك مستمر فى جميع الأزمـان . شـــرح النووى على صحيح مسلم ، (كتاب الطهارة ، باب فضل الوضوء ... ، ٣ / ١١٣) .

٢ ــ صحيح البخارى (كتاب مواقيت الصلاة ، باب فضل صلاة الجماعة ، ١ / ١٦٦) .

كان فى الصلاة ما كانت الصلاة هى تحبسه ، والملائكة يصلون على أحدكم ما دام فى مجلسه الذى صلّى فيه ، يقولون : اللهم ارحمه ، اللهم اغفر له ، اللهم تب عليه ، ما لم يؤذ فيه ، ما لم يُحدث فيه » <١> .

جـ ـ صلاة الجمعة :

روى الإمام البخارى بسنده عن سلمان الفارسى <٢> قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يغتسل رجل يوم الجمعة ، ويتطهر ما استطاع من طُهْرٍ ، ويدهن من دهنه ، أو يمس من طيب بيته ، ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ، ثم يصلى ما كتب له ، ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى » <٣> .

وروى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من اغتسل ثم أتى الجمعة ، فصلى ما قُدِّرَ له ، ثم أنصت حتى يفرغ من خطبته ، ثم يصلى معه ، غُفِرَ له ما بينه وبين الجمعة الأخرى وفضل ثلاثة أيام » <٤> .

وفى رواية أخرى عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة فاستمع وانصت غفر له ما بينه وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام ومن مس الحصى فقد لغا » <٥> .

---

١ ـ صحيح مسلم (كتاب المساجد ، باب فضل صلاة الجماعة ، ١ / ٤٥٩) .
وقوله : « لا ينهزه إلا الصلاة » أى لا تنهضه وتقيمه .
وقوله : « خطوة » بضم الخاء : ما بين القدمين ، وبفتح الخاء : المرة الواحدة .

٢ ـ سلمان الفارسى : أبو عبد الله ، يقال له : سلمان الخير ، أصله من أصبهان ، من نجباء الصحابة ، وهو الذى أشار بحفر الخندق ، وكان فاضلاً عالماً زاهداً متقشفاً ، توفى بالمدائن فى خلافة عثمان . انظر : الاستيعاب (٢ / ٦٣٤) وأسد الغابة (٢ / ٤١٧) والإصابة (٢ / ٦٢) وصفة الصفوة لابن الجوزى (١ / ٢١٠) والتهذيب (٤ / ١٣٧) والتقريب (١ / ٣١٥) .

٣ ـ صحيح البخارى (كتاب الجمعة ، باب الدهن للجمعة ، ٢ / ٤ ، ٩) .

٤ ـ صحيح مسلم (كتاب الجمعة ، باب فضل من أستمع وانصت فى الخطبة ، ٢ / ٥٨٧) .

٥ ـ صحيح مسلم (كتاب الجمعة ، باب فضل من أستمع وانصت فى الخطبة ، ٢ / ٥٨٨) .
وسنن الترمذى فى(أبواب الصلاة، باب ما جاء فى الوضوء يوم الجمعة،٢/٣٧١) وقال:حسن صحيح .

د ـ الدعاء بعد الصلاة والتسبيح والتحميد :

فقد جاء فضل ذلك فى أحاديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سبح الله فى دُبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين ، وحمد الله ثلاثاً وثلاثين ، وكبر الله ثلاثاً وثلاثين فتلك تسعة وتسعون ، وقال تمام المائة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر » <١> .

هـ ـ الحج والعمرة :

أخرج البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من حج لله ولم يرفث ولم يفسق رجع كيومَ ولدته أمه » <٢> .

وعنه رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» <٣>.

---

١ ـ صحيح مسلم (كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته) (١ / ٤١٨) .

وقوله : « وإن كانت مثل زبد البحر » أى من الكثرة والعظمة ، « وزبد البحر » ما يعلو على وجهه عند هيجانه وتموجه .

٢ ـ صحيح البخارى (كتاب الحج ، باب فضل الحج المبرور ، ٢ / ١٦٤) .

وصحيح مسلم (كتاب الحج ، باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة ، ٢ / ٩٨٣) .

٣ ـ صحيح البخارى (كتاب الحج ، باب العمرة ، وجوب العمرة وفضلها ، ٣ / ٢) . وصحيح مسلم (كتاب الحج ، باب فضل العمرة ... ، ٢ / ٩٨٣) .

و ـ الجهاد فى سبيل الله تعالى :

فقد جاء فى الحديث الشريف ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

« مر رجـل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بشعب فيه عيينة من ماء عذبة ، فأعجبته لطيبها ، فقال : لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشعب ، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « لا تفعل فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاماً ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، ويدخلكم الجنة ؟ اغزوا فى سبيل الله ، من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة » (١) .

عن عبد الله بـن أبـى قتـادة ، عن أبـى قتـادة ، أنه سمعه يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قام فيهم فذكر لهم :

« أن الجهاد فى سبيل الله ، والإيمان بالله أفضل الأعمال » فقام رجل فقال : يا رسول الله أرأيت إن قُتِلْتُ فى سبيل الله تكفر عني خطاياى ؟ فقـال لـه رسول الله صلـى الله عليه وسلم : « نعـم ، إن قُتِلتَ فى

---

١ ـ أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢ / ٥٢٤) والترمذى فى (أبواب فضل الجهاد ، باب فى فضل الغدو والرواح فى سبيل الله ، ٤ / ١٨١) وقال : هذا حديث حسن . وله شاهد من حديث معاذ بن جبل بمعناه أخرجه أبو داود فى (كتاب الجهاد ، باب فيمن سأل الله تعالى الشهادة ، ٢ / ٤٦) والترمذى فى (أبواب الجهاد ، باب فيمن يكلم فـى سبيـل الله ، ٤ / ١٨٥) و النسائـى فـى (كتاب الجهاد ، باب ثواب من قاتل فى سبيل اللـه ، ٦ / ٢٥) وابن ماجه فى (كتاب الجهاد ، باب القتال فى سبيل الله ، ٢ / ١٢٥) والدارمى فى (الجهاد ، بـاب من قاتـل فى سبيـل اللـه فواق ناقة ، ٢ / ٢٢١) .

والفُواق والفَواق : ما بين الحلبتين « الوقت » لأنها تحلب ثـم تترك سويـعة يرضعها الفصيـل لتدرّ ثم تحلب (اللسان : فوق) .

سبيل الله ، وأنت صابر محتسب ، مقبل غير مدبر » ثم قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : « كيف قلت ؟ » قال : أرأيت إن قُتلتُ فى سبيل الله أتكفر عنى خطاياى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم . وأنــت صابر محتسـب ، مقبــل غير مدبـــر ، إلا الدَّيْن فإن جبريل ـ عليه السلام ـ قال لى ذلك ‹١› .

ز ـ حُسن الخُلق :

إن حسن الخلق والسماحة ، وبشاشة الوجه ، والصفح عن الإساءة ، كل ذلك مكفر للذنوب ، وقد جاءت الأحاديث الشريفة توضح ذلك ، وترغب فى كل ما فيه خير المجتمع وصلاحه ، فعن البراء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غُفر لهما قبل أن يفترقا » ‹٢› .

وأخرج البخارى بسنده ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع ، وإذا اشترى ، وأذا اقتضى » ‹٣› .

---

١ ـ صحيح مسلم (كتاب الإمارة ، باب من قُتل فى سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين ، ٣ / ١٥٠١) .

وقوله : « محتسب » : أى طالباً لوجه الله وثوابه ، والاحتساب من الأعمال الصالحة ، وعند المكروهات هو البدار إلى طلب الأجر وتحصيله بالتسليم والصبر ، أو باستعمال أنواع البرّ والقيام بها على الوجه المرسوم فيها طلباً للثواب المرجو منها (النهاية فى غريب الحديث) (١ / ٣٨٢) .

وقوله : « إلا الدين » فيه تنبيه على جميع حقوق الآدميين ، وان الجهاد وغيرها من أعمال البرّ لا يكفر حقوق الآدميين وإنما يكفر حقوق الله تعالى .

انظر : النهاية فى غريب الحديث (١ / ٣٨٢) .

٢ ـ أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤ / ٢٨٩ ، ٣٠٣) وأبو داود فى (كتاب الأدب ، باب فى المصافحة ، ٥ / ٣٨٨) والترمــذى فــى (الإستئذان والأدب ، بــاب ما جــاء فــى المصافحة ، ٤ / ١٧٣ ، ١٧٤) وقال حسن غريب . من حديث أبى إسحاق عن البراء ، ويروى هذا الحديث من غير وجه عن البراء .

وابن ماجه فى (كتاب الأدب ، باب المصافحة ، ٢ / ٣١٥) .

٣ ـ صحيح البخارى (كتاب البيوع ، باب السهولة والسماحة فى الشراء والبيع ، ٣ / ٧٥) .

وقـال : حـدثنا منصـور <١> أن ربْعيّ بن حِرَاش <٢> حـدثه أن حـذيفـة حَدَّثه قـال : قـال النبى صلى الله عليـه وسلمَ : « تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم فقالوا : أعملت من الخير شيئاً ؟ قال : كنت آمر فتيانى أن ينظروا ويتجاوزوا عن الموسر ، قال : « فتجاوزوا عنه » <٣> .

وفى رواية أخـرى ، عن أبـى هريرة رضـى الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كان رجل يداين الناس فكان يقول لفتاه : إذا أتيت مُعسِراً فتجاوز عنه » <٤> .

وعن حذيفة رضـى الله عنه قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « مـات رجل فقيل له : ما كنت تقول ؟ قال : كنت أبايع الناس فأتجوَّز عن الموسر وأخفف عن المعسر ، فغفر له » .

قال أبو مسعود سمعته عن النبى صلى الله عليه وسلم <٥> .

---

١ ـ منصور : هو ابن المعتمـر بن عبد الله السلمـى أبو عتّاب الكوفى ، ثقة ثبت ، قال أبو داود : كان لا يروى إلا عن ثقة ، وكان من أثبت أهل الكوفة ، ومن أئمتها . مات سنة ١٣٢ هـ .
انظر : الثقـات للعجلى (٤٤٠) والجـرح والتـعـديل (٨ / ١٧٧) والثـقـات لابن حبـان (٧ / ٤٧٣) والتهذيب (١٠ / ٣١٢) .

٢ ـ ربْعىّ بن حِرَاش (بكسر الحاء المهملة) بن جحش بن عمرو بن عبد الله العبسى ، أبو مريم الكوفى ، ثقة ، شهد خطبة عمر بالجابية ، وكان مـن عبـاد أهل الكوفة لم يكذب كذبة قطّ . مات سنة إحدى ومائة .
انظر : طبقات ابن سعد (٦ / ١٢٧) والثقات للعجلى (١٥٢) وأسـد الغابـة (٢ / ١٦٢) وسير أعلام النبلاء (٤ / ٣٥٩) والعبر (١ / ٩١) والتهذيب (٣ / ٢٣٦) والتقريب (١ / ٢٤٣) .

٣ ـ صحيح البخارى (كتاب البيوع ، باب من انظر موسر ، ٣ / ٧٥) .

٤ ـ صحيح البخارى (كتاب بدء الخلق ، باب ما ذكر عن بنى اسرائيل ، ٤ / ٢١٤) .

٥ ـ صحيح البخارى (كتاب الإستقراض ، باب حسن التقاضى ، ٣ / ١٥٣) .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا
وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ‹١›

ويقول عز من قائل :

وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ
وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ
بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا
وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ
عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ

‹٢›

ح ـ الآلام التى تصيب الإنسان إذا صبر عليها :

فكل ما يصيب المسلم من ألم فهو طهر له من السيئات وعلو فى الدرجات .

قال الحق سبحانه وتعالى :

وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ
وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ
﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ
﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ‹٣›

---

١ ـ سورة الشورى : ٤٠ .

٢ ـ سورة الرعد : ٢٢ ـ ٢٤ .

٣ ـ سورة البقرة : ١٥٥ ـ ١٥٧ .

وقد جاءت أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم تبشر بذلك وتبينه .

أخرج البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه ـ عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصَبَ ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه » <١> .

وعن عبد الله بن مسعود قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوعك فقلت : يا رسول الله إنك توعك وعكاً شديداً . قال : « أجل ، إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم ، قلت : ذلك أن لك أجرين ؟ قال : « أجل ، ذلك كذلك ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها» <٢> .

وفى رواية أخرى :

« ما من مسلم يصيبه أذى ، مرضٌ فما سواه ، إلا حَطَّ الله له سيئاته ، كما تَحُطُّ الشجرةُ ورقها » <٣> .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة » <٤> .

---

١ ـ صحيح البخارى (كتاب الطب ، باب ما جاء فى كفارة المرضى ، ٧ / ١٤٨) وصحيح مسلم (كتاب البر والصلة والآداب ، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه ... ، ٤ / ١٩٩٢) واللفظ للبخارى .

ومعنى « وصب » الوصب المرض اللازم (انظر فتح البارى شرح صحيح البخاري ، كتاب المرضى ، باب ما جاء في كفارة المرض ... ١٠ / ١٠٦) .

٢ ـ صحيح البخارى (كتاب الطب ، باب أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأول فالأول ، ٧ / ١٥٠) .

٣ ـ صحيح البخارى (كتاب الطب ، باب وضع اليد على المريض ، ٧ / ١٥٣) . وصحيح مسلم (كتاب البر والصلة والآداب ، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه ... ، ٤ / ١٩٩١) .

٤ ـ سنن الترمذى (أبواب الزهد ، باب فى الصبر على البلاء ، ٤ / ٢٨) .

وقال الترمذى : هذا الحديث حسن صحيح .

وهنا سؤال وهو :

هل يثاب المسلم على المعصية باعتبار كونها مصيبة من المصائب التى تصيب الإنسان فى دينه ؟

الجواب عن ذلك : نعم ، إن المسلم يثاب على المعصية إذا استوفت شروطها من التوبة والعمل الصالح .

يقول الله تعالى :

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ
الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ
أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ
مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا
فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ (١)

ط ـ كفارة المجلس :

لقد وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلم إلى ما فيه خيره وصلاحه فى دنياه وأخراه ، فكثيراً ما يلغو الإنسان فى حديثه ، ويخرج به عما هو خير له ، ولكن إذا ختم كلامه فى مجلسه هذا بذكر الله سبحانه وتعالى فذلك كفارة له .

---

١ ـ سورة الفرقان : ٦٨ ـ ٧٠ .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من جلس فى مجلس فكثر فيه لَغَطُه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، إلا غفر له ما كان فى مجلسه ذلك » <١> .

ى ـ **ملازمة الاستغفار :**

الاستغفار : هو طلب المغفرة من الله جل ثناؤه لما اقترفه الإنسان من الإثم أو قصر فيه من العمل .

فمتى ما كان الاستغفار مصحوباً بتوبة نصوح كان سبباً للقبول ، وفتحاً لأبواب الرزق .

قال الحق سبحانه وتعالى :

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾
يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ
وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ <٢>

---

١ ـ أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢ / ٤٩٤) ، وقال أحمد شاكر اسناده صحيح ، مسند الإمام أحمد « المحقق » ١٩ / ١٠٤١٨ ، رقم الحديث ١٠٤٢٠) ، وأخرجه أبو داود فى (كتاب الأدب ، باب فى كفارة المجلس ، ٥ / ١٨٢) والترمذى فى (أبواب الدعوات، باب إذا قام من مجلسه ، ٥ / ١٥٨) وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه . والنسائى فى (عمل اليوم والليلة) (٣٠٨ ، ٣٠٩) وابن السنى فى عمل اليوم والليلة برقم (٤٤٩) من طريقه .
والحاكم فى المستدرك (١ / ٥٣٦) وقال : صحيح على شرط مسلم ، وقال الذهبى (على شرط مسلم) ولكن علله البخارى بحديث وهيب عن ابن عقبة عن سهل عن أبيه عن كعب قوله : وله شواهد (داود بن قيس ، عن نافع بن جبير عن أبيه مرفوعاً) المستدرك (١ / ٥٣٧) ، وابن حبان فى صحيحه كما فى موارد الظمآن (٥٨٨) .
٢ ـ سورة نوح : ١٠ ـ ١٢ .

ولقد حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاستغفار والاستكثار منه وملازمته .

فعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ، ومن كل هم فرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » ‹١› .

والاستغفار والتوبة أمانان من عذاب الله سبحانه وتعالى ، قال عز من قائل :

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾
‹٢›

وأخرج الحاكم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان فيكم أمانان مضت إحداهما وبقيت الأخرى « **وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون** » ‹٣› .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : أمانان كانا فى الأرض ، فرفع أحدهما وبقى الآخر « **وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون** » ‹٤› .

---

١ ـ أخرجه أبو داود فى (كتاب الصلاة ، باب فى الاستغفار ، ٢ / ١٧٩) وابن ماجه فى (كتاب الأدب ، باب الاستغفار ، ٢ / ٢٣٩) وأحمد فى مسنده حديث (٢٢٣٤) وقال الشيخ أحمد شاكر : اسناده صحيح .

٢ ـ سورة الأنفال : ٣٣ .

٣ ـ المستدرك على الصحيحين (كتاب الدعاء ، ١ / ٥٤٢) . وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وقد اتفقا على أن تفسير الصحابى حديث مسند . ووافقه الذهبى .

٤ ـ المستدرك على الصحيحين (كتاب الدعاء ، ١ : ٥٤٢) . وسكت عنه الذهبى .

وقال ابن عباس : كان فيهما أمانان : النبى صلى الله عليه وسلم والاستغفار ، فذهب النبى صلى الله عليه وسلم ، وبقى الاستغفار ‹١› .

وكان من هدى النبى صلى الله عليه وسلم كثرة الاستغفار وحث أمته عليه .

قال أبو هريرة رضى الله عنه ـ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم سبعين مرة » ‹٢› .

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن إبليس قال لربه : بعزتك وجلالك لا أبرح أُغْوى بنى آدم ما دامت الأرواح فيهم، فقال الله : فبعزتى وجلالى لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى ‹٣› .

وأخرج الحاكم بسنده أيضاً عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الشيطان قال : وعزتك يارب لا أبرح أغوى عبادك ما دامت أرواحهم فى أجسادهم ، فقال الرب تبارك وتعالى : « وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى » ‹٤› .

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه ، عن الأغر المزنى ‹٥› وكانت له صحبة :أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنه ليغان على قلبى ، وإنى لاستغفر الله فى اليوم مائة مرة » .

---

١ ـ تفسير ابن كثير (٢ / ٣١١) .

٢ ـ صحيح البخارى (كتاب الدعوات ، باب استغفار النبى فى اليوم والليلة ، ٨ / ٨٣) .

٣ ـ مسند الإمام أحمد (٣ / ٢٩) . قال الهيثمى في مجمع الزوائد (١٠ / ٢٠٧) : رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه وقال : « لا أبرح أغوى عباد ك ، والطبرانى في الأوسط وأحد إسنادى أحمد رجاله رجال الصحيح وكذلك أحد إسنادى أبى يعلى .

٤ ـ المستدرك على الصحيحين (كتاب التوبة والإنابة ، ٤ / ٢٦١) .

وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ووافقه الذهبى وقال صحيح .

٥ ـ الأغرّ بن يسار المزنى ، ويقال : الجهنى ، صحابى روى عن النبى صلى الله عليه وسلم . « انه ليغان على قلبى » وروى عن أبى بكر وعنه أبو بردة أبى موسى الأشعرى ومعاوية بن قرة ، روى له أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى .

انظر : طبقات ابن سعد (٦ / ٤٩) وأسد الغابة ((١ / ١٢٤) والإصابة (١ / ٥٥) والتهذيب (١ / ٣٦٥) والتقريب (١ / ٨٢) .

وعنه رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس توبوا إلى الله ، فإنى أتوب فى اليوم إليه مائة مرة»<١> .

وكان صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه سيد الاستغفار .

فعن بُشَيْر بن كعب العدوى <٢> قال : حدثنى شداد بن أوس <٣> رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم :

« سيد الاستغفار أن تقول : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىَّ وأبوء بذنبى ، فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

---

١ ـ صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء والاستغفار ، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ، ٤ / ٢٠٧٥) .

قوله صلى الله عليه وسلم : « إنه ليغان على قلبى » قال أهل اللغة : الغين بالغين المعجمة والغيم بمعنى ، والمراد هنا : ما يتغشى القلب .

قال القاضى عياض : قيل : المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذى كان شأنه الدوام عليه ، فإذا فتر أو غفل عد ذلك ذنباً واستغفر منه (شرح النووى على صحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء والاستغفار ... ، ١٧ / ٢٣) .

٢ ـ بشير بن كعب بن أبىّ الفقيه ، أبو أيوب الحميرى العدوىّ البصرى ، قيل : إن أبا عبيدة ابن الجراح استعمله على بعض الأمور ، حدث عن أبى ذرّ وأبى الدرداء وأبى هريرة . وكان أحد القراء الزهاد رحمه الله .

انظر : طبقات ابن سعد (٧ / ٢٢٣) وتاريخ البخارى (٢ / ١٣٢) والمعرفة والتاريخ للفسوى (٢ / ٩٣) والإصابة (١ / ١٨١) والتهذيب (١ / ٤٧١) والتقريب (١ / ١٠٤) وتهذيب تاريخ دمشق (٣ / ٢٧٤) وسير أعلام النبلاء (٤ / ٣٥١) .

٣ ـ شداد بن أوس بن ثابت الأنصارى ، أبو يعلى المدنى ، صحابى مات بالشام قبل الستين أو بعدها . وقبره ببيت القدس . وهو ابن أخى حسان بن ثابت .

انظر : طبقات ابن سعد (٧ / ٤٠١) والإصابة (٢ / ١٣٩) وسير أعلام النبلاء (٢ / ٤٦٠) والعبر (١ / ٤٥) والتهذيب (٤ / ٣١٥) والتقريب (١ / ٣٤٧) .

قال : « ومن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها ، فمات قبل أن يصبح ، فهو من أهل الجنة » <١> .

ك ـ التسبيح والتحميد :

فقد جاء فضل ذلك فى أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قال : سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة حُطَّت خطاياه وإن كانت مثلَ زبد البحر » <٢> .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، فى يوم مائة مرة ، كانت له عِدْلَ عشر رقاب ، وكُتب له مائة حسنة ، ومُحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حِرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عَمِلَ أكثر منه » <٣> .

---

١ ـ صحيح البخارى (كتاب الدعوات ، باب أفضل الاستغفار ، ٨ / ٨٣) .

٢ ـ صحيح البخارى (كتاب الدعوات ، باب فضل التسبيح ، ٨ / ١٠٧) . وصحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب فضل التسبيح والتحميد والتهليل ، ٤ / ٢٠٧١) واللفظ للبخارى .

٣ ـ صحيح البخارى (كتاب الدعوات ، باب فضل التهليل ، ٨ / ١٠٦) . وصحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل التهليل والتسبيح ، ٤ / ٢٠٧١) واللفظ للبخارى .

وعن مُصعب بن سعد ‹١› ، حدثني أبي قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أيعجز أحدكم أن يكسبَ ، كل يوم ألف حسنة ؟ » فسأله سائل من جلسائه : كيف يكسب أحدنا ألف حسنة ؟ قال : « يسبح مائة تسبيحة ، فيكتب له ألف حسنة أو يحط عنه ألف سيئة » ‹٢› .

---

١ ـ مصعب بن سعد بن أبي وقاص الزهري ، أبو زرارة المدني كان ثقة كثير الحديث روى عن أبيه وعلى وطلحة وعكرمة وعدي وغيرهم ، مات سنة (١٠٣ هـ) خرّجوا له في الكتب الستة .
طبقات ابن سعد (٥ / ١٦٩) و (٦ / ٢٢٢) وتاريخ البخاري (٧ / ٣٥٠) وتهذيب الأسماء واللغات (٢ / ٩٥) وسير أعلام النبلاء (٤ / ٣٥٠) والعبر (١ / ١٢٥) والتهذيب (١٠ / ١٦٠) والشذرات (١ / ١٢٥) .

٢ ـ صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل التهليل والتسبيح ، ٤ / ٢٠٧٣ / ٢٦٩٨) .
قال النووي : « وقد يقال : إذا كفر الوضوء فماذا تكفر الصلاة ؟ وإذا كفرت الصلاة فماذا تكفر الجمعات ورمضان ، وكذلك صوم يوم عرفة كفارة سنتين ، ويوم عاشوراء كفارة سنة ، وإذا وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه ؟ .
والجواب : ما أجابه العلماء :
« أن كل واحد من هذه المذكورات صالح للتكفير ، فإن وجد ما يكفره من الصغائر كفره ، وإن لم يصادف صغيرة ولا كبيرة كتبت به حسنات ، ورفعت به درجات ، وإن صادفت كبيرة أو كبائر ولم يصادف صغيرة رجونا أن يخفف من الكبائر . والله أعلم » .
شرح النووي على صحيح مسلم (كتاب الطهارة ، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه ، ٣ / ١١٣) .

المبحث الثالث

عدالة الجزاء

ويشتمل على ما يأتي :

* تقرير أن الرب سبحانه وتعالى هو المستحق للعبادة وحده .
* إيفاء كل إنسان حقه من الجزاء الكامل .
* إلحاق ذرية الصالحين بآبائهم في المنزلة فضلاً من الله تعالى .
* إنتفاع المؤمن بعمل غيره .
* مسئولية الإنسان عن عمله وعدم مسئوليتة عن عمل غيره .
* تقرير رجوع العباد إلى الله ومحاسبة كل إنسان على عمله من خيرٍ أو شرٍ .

قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ ‹١›

معاني الكلمات :

« **قل أغير الله ابغي رباً** » : أي لا أطلب رباً غيره .

« **وهو رب كل شيء** » : أي وهو سيد كل شيء ومالكه ، لا يشاركه فيه أحد .

والرب :يطلق في اللغة على المالك والسيدُ ، والمدبّر، والمربى ، والقِّيم والمنعم .

ولا يطلق غير مضاف إلاَّ على الله عز وجل ، وإذا أطلق على غيره أضيف فقيل : ربُّ كذا .

فالرب هو الله عز وجل ، وهو رب كل شىء ، أى مالكه ، وله الرُّبُوبيَّة على جميع الخلق لا شريك له ، وهو رب الأرباب ، ومالك الملوك والأملاك ‹٢› .

« **ولا تكسب كل نفس إلا عليها** » : أى ولا تكسب كل نفس من الآثام إلا ارتد عليها فإثم الجانى عليه لا على غيره .

والكسب : الطلب والسعي في طلب الرزق والمعيشة ، يقال : كسب يكسب كسباً ، وتكسَّب واكتسب ‹٣› .

وقد ورد الكَسْبُ فى القرآن فى فعل الصالحات والسيئات .

---

١ ـ سورة الأنعام : ١٦٤ .

٢ ـ لسان العرب (ربب) .

٣ ـ المرجع السابق (كسب) .

فمن استعماله فى الصالحات قوله تعالى :

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ‹١›

ومن استعماله فى السيئات قوله تعالى : وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ‹٢›

وقد يستعمل الكسب فى الصالحات والسيئات معاً ، ومن استعماله فيهما قوله تعالى :

وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ‹٣›

وقوله تعالى :

وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ ‹٤›

---

١ ــ سورة الأنعام : ١٥٨ .

٢ ــ سورة الأنعام : ٧٠ .

٣ ــ سورة البقرة : ٢٨١ .

٤ ــ سورة آل عمران : ١٦١ .

وقد ورد الاكتساب أيضاً في القرآن في الصالحات والسيئات ، فمن استعماله في الصالحات قوله تعالى :

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ ‹١›

ومن استعماله في السيئات قوله تعالى : لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ‹٢›

وقوله : « **ولا تزر وازرة وزر أخرى** » : أي ولا تؤاخذ نفس آثمة بإثم أخرى ، ولا يؤخذ أحد بذنب آخر .

« **ثم إلى ربكم مرجعكم** » أي يوم القيامة .

« **فينبئكم بم كنتم فيه تختلفون** » أي يخبركم ويعلمكم بما كنتم تختلفون فيه ، أي في الدنيا من الملل والأديان ‹٣› .

---

١ ـ سورة النساء : ٣٢ .

٢ ـ سورة البقرة : ٢٨٦ .

٣ ـ تفسير الخازن (٢ / ١٧١) ، وكذلك انظر : تفسير النسفي (٢ / ٤٣) ، وحاشية الصاوي (٢ / ٩١) .

المعنى الإجمالى للآية :

يبين الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية أنه تعالى هو الرب السيد المالك المربى ، فهو رب كل شيء وخالقه ومالكه ، وهو المستحق للعبادة وحده دون سواه ، فلا ينبغى لأى إنسان أن يتخذ غيره إلهاً ومعبوداً ، فهو رب العالمين .

كما يبين عز وجل أن الأعمال التى يعملها الإنسان من السيئات يرجع شرها عليه وحده دون غيره ، وكذلك القول فى حسناته فهي له وحده .

بل أن كل إنسان يتحمل مسئولية عمله ، فلا أحد يأخذ من حسنات غيره ، ولا يعطيه منها ، ولا يحمل عنه من سيئاته إلابحق .

ولقد أعطى الله للإنسان الوسائل التى يستطيع بها أن يحقق التكاليف التى كلفه الله بها ، وبمقتضاها يكون الثواب والعقاب .

ثم بين الله سبحانه وتعالى أن مصير الخلائق إليه جميعاً ، فحينئذٍ ينبئهم بنتيجة أعمالهم التى عملوها فى حياتهم الدنيا إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

التوضيح للآيه :

تتضمن هذه الآيه الكريه المعانى الآتية :

١ ـ تقرير أن الرب سبحانه وتعالى هو المستحق للعبادة وحده .

٢ ـ إيفاء كل إنسان حقه من الجزاء كاملاً .

٣ ـ إلحاق ذرية الصالحين بآبائهم فى المنزله فضلاً من الله .

٤ ـ إنتفاع المؤمن بعمل غيره .

٥ ـ مسئولية الإنسان عن عمله وعدم مسئوليته عن عمل غيره .

٦ ـ تقرير رجوع العباد إلى الله ومحاسبة كل إنسان على عمله من خيرٍ أو شر .

* **تقرير أن الرب سبحانه وتعالى هو المستحق للعبادة وحده :**

فقوله تعالى : « قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء » .

في هــذه الآية الكريمة يقرر الحق تعالى قضية الربوبية لله وحده ، فهو رب كل شيء وخالقه ومدبر أمره .

فهو سبحانه وتعالى خلق الإنسان ، فأوجده من العدم ، وأمده بالسمع والبصر والفؤاد ، من أجل المحافظة على نموه العقلي الذى هو سبب تمييزه عن غيره من المخلوقات قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢)

كما أمده أيضاً بالنعم التي تحفظ وجوده مدى الحياة .

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢ ﴾ (٣)

---

١ ــ سورة السجدة : ٧ ــ ٩ .

٢ ــ سورة النحل : ٧٨ .

٣ ــ سورة البقرة : ٢١ ، ٢٢ .

وقال تعالى :

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا
(٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨)
وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَاعًا لَّكُمْ
وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢) ﴾

‹١›

فهو سبحانه وتعالى تولى تربية الإنسان من البداية إلى النهاية ، وهذه التربية ليست خاصة بالإنسان ، وإنما تعم جميع الأشياء من حيوان ونبات . وكلُّ عوالم السموات والأرض من خلقه وتدبيره ، فهو رب العالمين ، وإذا كان ذلك كذلك فهو الرب الواحد الأحد الذى يستحق العبادة وحده .

فالله تعالى ينكر على من يتخذ معبوداً آخر غير الرب الذى هو رب كل شىء .

ويكون المعنى : قل يا محمد : لا أبغى رباً إلا هذا الرب لأنه لا يوجد له مثيل فى خلقه وتربيته وتدبيره .

فهو الذى رَبىَّ الخلائق جميعاً وهو الذى يسودهم، ويمن عليهم برزقه وفضله .

ذلك أن التدبير الإلهى موجود فى كل شىء ، فهو الذى رَبىَّ الكائنات ، ودبر كل ما فى السموات والأرض من المخلوقات ، وخلق الليل والنهار ، فهو وحده المستحق لخلوص القلب والعبادة . بكل ما تحمله العبادة من معنى وأبعاد ، فلا أحد يشاركه فى هذا .

---

١ ـ سورة عبس : ٢٤ ـ ٣٢ .

وقوله : « قضبا » هو القت الرطب .

« وحدائق غلباً » أى البساتين الكثيرة الأشجار الملتفة .

« وأباً » أى ما ترعاه البهائم ، وقيل : التبن . انظر : تفسير الجلالين .

فقضية الربوبية فى هـذه الآية الكريمة قضية دليلها معها ، وهى تقرير للتوحيد . والآية الكريمة تنكر على كل من ا تخذ رباً آخر غير الله الواحد الأحد ، لأنه ليس من أحد فى الوجود شارك الله سبحانه وتعالى فى هذا .

يقول ابن كثير فى تفسيره لهذة الآية : (يقول تعالى : « **قل** » يا محمد لهؤلاء المشركين بالله فى إخلاص العبادة له والتوكل عليه .

« **أغير الله أبغى رباً** » أى لا أطلبُ رباً سواه . « **وهو رب كل شىء** » يربينى ويحفظنى ويكلؤنى ويدبر أمرى ، أى لا أتوكل إلا عليه ، ولا أنيب إلا إليه ، لأنه ربُّ كُلِّ شىء ومليكه ، وله الخلق والأمر ، ففى هذه الآية الأمر بإخلاص التوكل ، كما تضمنت التى قبلها إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له .

وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيراً فى القرآن كقوله تعالى مرشداً لعباده أن يقولوا له :

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ‹١›

وقوله تعالى :

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ
فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ‹٢›

وقوله تعالى :

قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ ‹٣›

---

١ ـ سورة الفاتحة : ٥ .

٢ ـ سورة هود : ١٢٣ .

٣ ـ سورة الملك : ٢٩ .

وقوله تعالى :

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ ‹١›

وأشباه ذلك من الآيات) ‹٢› .

فقوله تعالى : « **أغير الله ابغى رباً** » استفهام إنكارى بمعنى النفى ، أى لا أبغى رباً غير الله . وهو جواب على المشركين لما دعوه صلى الله عليه وسلم إلى عبادة غير الله .

أى كيف أبغى غير الله رباً مستقلاً وأترك عبادة الله تعالى ، أو شريكاً لله فأعبدهما معاً ، والحال أنه ربُّ كلّ شىء ، والذى تدعوننى إلى عبادته هو من جملة من هو مربوب له ، مخلوق مثلى ، لا يقدر على نفع ولا ضر . وفى هذا الكلام من التقريع والتوبيخ لهم ما لا يقادر قدره ‹٣› .

---

١ ـ سورة المزمل : ٩ .

٢ ـ تفسير ابن كثير (٢ / ١٤١) .

٣ ـ فتح القدير (٢ / ١٨٦) .

* إيفاء كل إنسان حقه من الجزاء كاملاً :

يقرر الحق تعالى فى هذه الآية قضية الجزاء والعدالة الإلهية ، فبما أن الإنسان حيوان عاقل ، أعطاه الله العقل ، وأعطاه القدرة على العمل ، مع الإرادة الحرة في اختيار المسار الذى يريد أن يسير عليه في حياته ، وأرسل إليه الرسل مبشرين ومنذرين يبلغونه رسالات ربه وكتبه .

وبعد هذا لا تكون له حجة يحتج بها ، فهو حر في اختيار طريقه ، إما طريق الخير وإما طريق الشر ، وبهذا يحدَّد عملُ الإنسان ، إما له وإما عليه .

قال عز وجل : « **ولا تكسب كل نفس إلا عليها** » .

قال الشوكانى في تفسيره لهذه الآية : أى لا تؤاخذ بما أتت من الذنب وارتكبت من المعصية سواها ، فكل كسبها للشر عليها ، ولا يتعداها إلى غيرها .

وهذا مثل قوله تعالى : لَا يُكَلِّفُ
ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ
رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ
عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا
تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ
أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

<١>

وقوله تعالى :

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ <٢>

---

١ ـ سورة البقرة : ٢٨٦ .

٢ ـ سورة طه : ١٥ ، وانظر : فتح القدير (٢ / ١٨٦) .

وهنا يتبادر للذهن سؤال وهو :

لِمَ لَمْ يذكر الحق سبحانه وتعالى كسبَ النفس فيما لها ، وذكر كسب النفس فيما عليها ؟ .

الجواب عن ذلك :

أنه اكتفى بذكر الشيء ، وضده مفهوم ؛ أى لا تكسب كل نفس إلا عليها وتكسب أيضاً ما لها ، لأنه ما دام عليها الشر فيكون لها الخير .

لقوله تعالى :

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٥١﴾ ‹١›

ولقوله تعالى : ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝١٧﴾ ‹٢›

ولقوله تعالى :

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٢﴾ ‹٣›

ولقوله تعالى :

﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩﴾ ‹٤›

ولقوله تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ ‹٥›

---

١ ـ سورة ابراهيم : ٥١ .

٢ ـ سورة غافر : ١٧ .

٣ ـ سورة الجاثية : ٢٢ .

٤ ـ سورة المدثر : ٣٨ ، ٣٩ .

٥ ـ سورة الزلزلة : ٦ ـ ٨ .

قال الخازن في تفسيره : « قال ابن عباس رضى اللّٰه عنهما : كان الوليد بن المغيرة ‹١› يقول : اتبعوا سبيلى أحمل عنكم أوزاركم ، فقال اللّٰه عز وجل رداً عليه : « **ولا تكسب كل نفس إلا عليها** » يعنى أن إثم الجانى عليه لا على غيره ‹٢› .

---

١ ـ الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، أبو عبد شمس ، من قضاه العرب في الجاهلية ومن زعماء قريش وأدرك الاسلام وهو شيخ هرم ، فعاداه وقاوم دعوته ، وهلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر دفن بالحجون .
الكامل لابن الأثير (٢ / ٧١) دار صادر .
والأعلام (٨ / ١٢٢) .

٢ ـ لباب التأويل في معانى التنزيل تفسير الخازن (٢ / ١٧١) .

*** إلحاق ذرية الصالحين بآبائهم في المنزلة فضلاً من الله تعالى :**

وهنا يظهر هذا السؤال وهو :

هل الصالحون ينفعون أقرباءهم يوم القيامة ؟ .

الجواب عن ذلك :

أنه ليس هناك مانع من أن ينفع الرجل الصالح غيره من أقربائه ما دام أنهم اشتركوا في أصل الإيمان ، بل إن النصوص جاءت مصرحة بأن الإنسان ينتفع بأقربائه الصالحين .

قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ ‹١›

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية الكريمة :

(أى ألحقنا بهم ذريتهم في المنزلة الرفيعة في الجنة وإن لم يكونوا قد شاركوهم في الأعمال ، بل في أصل الإيمان .

« **وما ألتناهم** » أى نقصنا أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئاً حتى ساويناهم وهؤلاء الذين هم أنقص منهم منزلة ، بل رفعهم الله تعالى إلى منزلة الآباء ببركة أعمالهم بفضله ومنته) ‹٢› .

---

١ ـ سورة الطور : ٢١ .

٢ ـ تفسير ابن كثير (٣ / ١٤١) .

* انتفاع المؤمن بعمل غيره :

وهنا سؤال آخر وهو :

هل ينتفع المؤمن بعمل غيره له ؟ .

الجواب عن ذلك :

نعم إن المؤمن ينتفع بعمل غيره له ، فمن المعلوم المتفق عليه أن الميت ينتفع بما كان سبباً فيه من أعمال البر في حياته ، وذلك لما جاء في أحاديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

فقد روى الإمام مسلم وأصحاب السنن : عن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » (١) .

وروى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن مما يلحق المؤمن من حسناته بعد موته علماً عَلَّمه ونشره ، وولداً صالحاً تركه ، ومصحفاً وَرَّثه ، أو مسجداً بناه ، أو بيتاً

---

١ ـ حديث صحيح وأخرجه مسلم في (كتاب الوصية ، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ، ٣ / ١٢٥٥) وأحمد في مسنده (٢ / ٣٧٢) وأبو داود في (كتاب الوصايا ، باب ما جاء في الصدقة عن الميت ، ٣ / ٣٠٠) والنسائى في (الوصايا ، باب فضل الصدقة عن الميت ، ٦ / ٢٥١) والبيهقى في السنن الكبرى (٦ / ٢٧٨) والبغوى في (شرح السنة ، ١ / ٣٠٠) .

قال العلماء : معنى الحديث : أن عمل الميت ينقطع بموته وينقطع تجدد الثواب له ، إلا في هذه الإشياء الثلاثة . لكونه كان سببها .

فإن الولد من كسبه ، وكذلك العلم الذى خلفه من تعليم أو تصنيف وكذلك الصدقة الجارية وهى الوقف .

انظر (شرح النووى على صحيح مسلم ، كتاب الوصية ، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ، ١١ / ٨٥) .

لابن السبيل بناه ، أو نهراً أجراه ، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته يلحقه من بعد موته » (١) .

وروى مسلم :عن جرير بن عبد الله : أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من سن في الإسلام سنة حسنة فَعُمِلَ بها بعده كُتب له مثل أجْرِ من عمل بها ولا يَنْقُصُ من أجورهم شيء ، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة ، فَعُمِل بها بعده كُتب عليه مثل وزر من عمل بها ، ولا يَنْقُصُ من أوزارهم شيء» (٢)

أما ما ينتفع به المؤمن من أعمال البر الصادرة عن غيره فبيانها فيما يلي :

الدعاء والإستغفار له :

وهذا مجمع عليه لقوله عز وجل :

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (٣)

ولنا في رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسوة حسنة في ذلك ، فقد حفظ من دعاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يدل على ذلك ما أخرجه الإمام أحمد بسنده ، عن أبي قتادة عن أبيه أنه شهد النبي

---

١ ـ أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٤ / ١٢١) بتحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي وقال : إسناده حسن لغيره لشواهده .

كما أخرجه ابن ماجة في (المقدمة ، باب ثواب معلّم الناس الخير ، ١ / ٨٩) بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي . ونقل عن ابن المنذر إنه قال : إسناده حسن ، وفي الزوائد : إسناده غريب . مرزوق بن الهذيل (أحد رواته) مختلف فيه . واللفظ لابن ماجه . ورواية ابن خزيمه ليس فيها « ومصحفاً ورثه » .

٢ ـ صحيح مسلم (كتاب العلم ، باب من سن سنة حسنه أو سيئة ... الخ ، ٤ / ٢٠٥٩ ، ٢٠٦٠) .

٣ ـ سورة الحشر : ١٠ .

ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلى على ميت فسمعه يقول : « اللهم اغفر لحينا وميتنا وشاهدنا وغائبنا وصغيرنا وكبيرنا وذكرنا وأنثانا » ، وزاد أبو سلمة « من أحييته منا فاحيه على الإسلام ، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان » ‹١› .

وما زال السلف والخلف يدعون للأموات المؤمنين ، ويسألون لهم الرحمة والغفران دون إنكار من أحد .

الصدقة :

وقد حكى النووى ‹٢› الإجماع على أنها تقع عن الميت ، ويصله ثوابها سواء كانت من ولد أو غيره ‹٣› .

روى الإمام مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رجلاً قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن أبى مات وترك مالاً ولم يوص ، فهل يكفر عنه أن اتصدق عنه ؟ . قال : « نعم » ‹٤› .

ولا يشرع إخراجها عند المقابر ، ويكره إخراجها مع الجنازة .

---

١ ـ مسند الإمام أحمد (٤ / ١٧٠) وقال الهيثمى : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (٣ / ٣٣) .

٢ ـ هو : يحى بن شرف بن الحسن بن الحسين الحزامى الحورانى النووى الشافعى .

أبو زكريا محى الدين (٦٣١ ـ ٦٧٦هـ) علامة بالفقة والحديث ، مولده ووفاته في « نوا » من قرى حوران بسورية وإليها نسبته . من كتبه : تهذيب الأسماء واللغات ، ومنهاج الطالبين ، والمنهاج في شرح مسلم ، والأذكار .

انظر : البداية والنهاية (١٣ / ٢٧٨) وتذكرة الحفاظ (٤ / ١٤٧٠) والدارس في أخبار المدارس (١ / ٢٤) وطبقات الشافعية للسبكى (٨ / ٣٩٥) والنجوم الزاهرة (٧ / ٢٧٨) والشذرات (٥ / ٣٥٤) والأعلام (٨ / ١٤٩) .

٣ ـ شرح النوى على صحيح مسلم (كتاب الزكاة ، باب وصول ثواب الصدقة عن الميت ، ٧ / ٩٠) وانظر : فقه السنة للشيخ سيد سابق (٥ / ٥٦٨) .

٤ ـ صحيح مسلم (كتاب الوصية ، باب وصول ثواب الصدقات للميت ، ٣ / ١٢٥٤) .

الصوم :

لما روى الشيخان ، عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يارسول الله ، إن أمي ماتت وعليها صوم شهر أفأقضيه عنها ؟ ، قال : « لو كان على أمك دين أكنت قاضيه عنها » ؟ قال : نعم ، قال « فدين الله أحق أن يقضى » ‹١› .

الحج :

لما روى البخارى ، عن ابن عباس : أن امرأة جاءت إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقالت : إن أمي نذرت أن تحج فماتت قبل أن تحج ، أفأحج عنها ؟ قال : « نعم . حُجِّي عنها ، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ » قالت : نعم ، فقال : « فاقضوا الذى له فإن الله أحق بالوفاء » ‹٢› .

الصلاة عليهما :

فعن أبى أُسيد مالك بن ربيعة ‹٣› قال : بينما نحن عند النبى - صلى الله عليه وسلم - إذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال : يارسول الله أبقى من برّ أبوىّ شىء أبرُّهما به من بعد موتهما ؟ قال : « نعم ، الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإيفاء بعهودهما من بعد موتهما واكرام صديقهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما » .

---

١ - صحيح البخارى (كتاب الصوم ، باب من مات وعليه صوم ، ٣ / ٤٦) .
وصحيح مسلم (كتاب الصوم ، باب قضاء الصوم عن الميت ، ٢ / ٨٠٤) .

٢ - صحيح البخارى (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب من شبه اصلاً معلوماً باصل مبين قد بين الله حكمهما ليفهم السائل ، ٩ / ١٢٥ ، ١٢٦) .

٣ - أبو أسيد الساعدي هو مالك بن ربيعة بن البدن من كبراء الانصار شهد بدراً والمشاهد وكانت معه راية بني ساعدة يوم الفتح أصيب أبو أسيد ببصره قبل قتل عثمان فقال : الحمد لله الذي لما أراد الفتنه في عباده كف بصري عنها ، مات سنه أربعين وقد عاش ثمانياً وسبعين سنة .
طبقات ابن سعد (٣ / ٥٥٧) والاستيعاب (٣ / ١٥٣١) وأسد الغابة (٥ / ٢٣) والإصابة (٣ / ٣٤٤) وسير أعلام النبلاء (٢ / ٥٣٨) وتهذيب التهذيب (١٠ / ١٥) .

وزاد الإمام أحمد : « فهو الذى بقى لك من برهما بعد موتهما » <١> .

قراءة القرآن :

وهذا الأمر مختلف فيه ، قال النووى : والمشهور في مذهبنا أن قراءة القرآن لا يصله ثوابها .

وقال جماعة من أصحابنا : يصله ثوابها ، وبه قال أحمد بن حنبل <٢> .

والاختيار : أن يقول القارىء بعد فراغه : اللهم أوصل ثواب ما قرأته إلى فلان <٣> .

وفي المغنى لابن قدامة <٤> : وأى قربة فعلها وجعل ثوابها للميت المسلم نفعه إن شاء الله <٥> .

والقائلون بوصول ثواب القراءة إلى الميت يشترطون أن لا يأخذ القارىء أجراً ، فإن أخذ القارىء أجراً فلا ثواب له عليها <٦> .

---

١ ـ أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣ / ٤٩٨) والبخاري في (الأدب المفرد ، باب بر الوالدين بعد موتهما) وابن ماجه في (كتاب الأدب ، باب صل من كان أبوك يصله ، ٢ / ١٢٠٩) ، والحاكم في مستدركه (٤ / ١٥٤ ، ١٥٥) ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى فقال : صحيح . واللفظ لابن ماجه .

٢ ـ شرح النووي على صحيح مسلم (كتاب الزكاة ، باب وصول ثواب الصدقه عن الميت ، ٧ / ٩٠) .

٣ ـ انظر فقه السنه للشيخ سيد سابق (٥ / ٥٦٩) .

٤ ـ ابن قدامة : هو عبد الله بن أحمد بن محمد بن أحمد بن قدامة موفق الدين أبو محمد الجماعيلى الدمشقى الصالحى الحنبلى ، شيخ الإسلام (٥٤١ ـ ٦٢٠ هـ) فقيه من أكابر الحنابلة ، له تصانيف منها : المغنى ، شرح به مختصر الخرقى في الفقه ، وروضة الناظر في أصول الفقه ، والمقنع ، ولد في جماعيل (من قرى نابلس بفلسطين) وتعلم في دمشق ، ورحل إلى بغداد سنة (٥٦١هـ) فأقام نحو أربع سنين ، وعاد إلى دمشق وفيها وفاته .

مرآة الزمان (٨ / ٦٢٧) والبداية والنهاية (١٣ / ٩٩) وشذرات الذهب (٥ / ٨٨) وذيل طبقات الحنابلة (٢ / ١٣٣) والأعلام (٤ / ٦٧) .

٥ ـ المغني لابن قدامة (٢ / ٥٦٧) .

٦ ـ انظر : فقه السنه للشيخ سيد سابق (٥ / ٥٦٩) .

ففى الحديث الشريف :

عن عبد الرحمن بن شبل الأنصارى <١> قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اقرءوا القرآن ولا تغلوا فيه ، ولا تجفوا عنه ، ولا تأكلوا به ، ولا تستكثروا به » <٢> .

قال ابن القيم : والعبادات قسمان :

مالية ، وبدنية ، وقد نبه الشارع على وصول ثواب الصدقة دون وصول سائر العبادات المالية ، كما نبه على وصول ثواب الصوم دون وصول سائر العبادات البدنية .

وأخبر بوصول ثواب الحج المركب من المالية والبدنية ، فالأنواع الثلاثة ثابتة بالنص والاعتبار <٣> .

وهنا سؤال آخر وهو :

كيف ينتفع بعمل غيره مع أن الله تعالى يقول :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ ٣٩ ؟ <٤>

---

١ ـ عبد الرحمن بن شبل بن عمرو بن زيد الأنصارى الأوسى ، أحد النبغاء ، نزيل حمص ، مات في أيام معاوية .

انظر : طبقات ابن سعد (٤ / ٣٧٤) وأسد الغابة (٣ / ٤٥٩) والإصابة (٢ / ٤٠٣) والتهذيب (٦ / ١٩٣) والتقريب (١ / ٤٨٣) .

٢ ـ مسند الإمام أحمد (٣ / ٤٢٨ ، ٤٤٤) .

قال الهيثمى : رواه أبو يعلى باختصار ، والطبرانى في الكبير والأوسط ورجاله ثقات (مجمع الزوائد ، ٤ / ٩٥) .

٣ ـ انظر : فقه السنة للشيخ سيد سابق (١ / ٥٦٩) .

٤ ـ سورة النجم : ٣٩ .

الجواب عن ذلك : نعم . ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾ ‹١› .

إلا إذا كان الإنسان سبباً في العمل الصالح ، فإن ثواب العمل يصل إليه حيث كان سبباً فيه .

وحتى الدعاء للمؤمنين والمؤمنات بالمغفرة والرحمة ينفعهم حيث إنهم اتصفوا بالإيمان ، فيكون الإيمان الذى اتصفوا به ، وهو من كسبهم ، سبباً في قبول الدعاء لهم .

---

١ ـ سورة النجم : ٣٩ .

*** مسئولية الإنسان عن عمله وعدم مسئوليته عن عمل غيره :**

هذه القضية هى قضية المسئولية الفردية فيما عمله الإنسان ، فالله تعالى قد أعطاه الوسائل التي يتحمل بها مسئولية التكاليف التي أشرنا إليها .

وبناءً على ذلك فهو مكلف بما جاءت به الرسل من عند الله تعالى ، وبمقتضى هذا يكون مسئولاً عما كلفه الله به ، ومسئوليته وحده دون أن يشاركه في هذه المسئولية غيره .

فكما أن الإنسان مكلف شخصياً فهو يتحمل جزاء عمله أو مسئوليته ، فلا تحمل نفس وازرة مسئولية نفس أخرى وازرة ، قال عز من قائل : « **ولا تزر وازرة وزر أخرى** » .

فالله تعالى يقرر أنه لا تحمل نفس آثمة إثم أخرى ، فالذى يعمل سيئة هو الذى يتحمل مسئوليتها ، فلا أحد من قرابته ولا غيرهم يتحمل معه شيئاً من إثمه .

فهنا يتقرر لدينا عدالة الله تعالى ومسئولية الإنسان عن عمله .

كما جاء في قوله الحق سبحانه وتعالى :

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن
تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ
إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ
وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ (١)

وقوله تعالى :

مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ
عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ
رَسُولًا ﴿١٥﴾ (٢)

---

١ ـ سورة فاطر : ١٨ .

٢ ـ سورة الإسراء : ١٥ .

وقوله تعالى : ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾ ‹١›

وقوله تعالى :

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ ‹٢›

فالحق جل ثناؤه يوفى كل إنسان عمله من غير ظلم ولا بخس ، لقوله تعالى :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾ ‹٣›

قال الطبرى في تفسيره لهذه الآية « **ولا تزر وازرة وزر أخرى** » يقول : (ولا تأثم نفس آثمة بإثم نفس أخرى غيرها ، ولكنها تأثم بإثمها ، وعليه تعاقب ، دون إثم أخرى غيرها .

وإنما يعنى بذلك المشركين الذين أمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقول هذا القول لهم .

---

١ ـ سورة الزمر : ٠٧.

٢ ـ سورة النجم : ٣٦ ـ ٤١ .

٣ ـ سورة طه : ١١٢ .

يقول : قل لهم : إنا لسنـا مأخـوذين بآثامكم ، وعليكـم عقوبة إجرامكم ، ولنا جزاء أعمالنا وهذا كما أمره الله جل ثناؤه في موضع آخر أن يقول لهم :

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾ ‹١›

وذلك كما قال الربيع ‹٢› : كان في ذلك الزمان لا مخرج للعلمـاء العابدين إلا إحدى خلتَّين : إحداهما أفضل من صاحبتها ، إما أمر ودعاء إلى الحق ، أو الاعتزال . فلا تشارك أهل الباطل في عملهم ، وتؤدى الفرائض فيما بينك وبين ربك ، وتحب لله وتبغض لله ، ولا تشارك أحداً في إثم . قال : وقد أنزل في ذلك آية محكمـة : « **قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شيء** » إلى قوله : « **فيه تختلفون** » ، وفي ذلك قال :

﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝٤ ﴾ ‹٣›

وقال ابن كثير أيضاً في تفسيره لهذه الآية : « إخبار عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله ، أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيراً فخير ، وإن شـراً فشـر ، وأنـه لا يحمـل من خطيئة أحد على أحد ، وهذا من عدله تعالى » ‹٤› .

---

١ ـ سورة الكافرون : ٦ .

٢ ـ الربيع : هو الربيع بن أنس البكرى البصرى الخرسانى ، هرب من البصرة إلى مرو خوفاً من بطش الحجاج بن يوسف الثقفى ، روى عن أنس بن مالك وأبى العالية والحسن البصرى . توفى سنة أربعين أو قبلها .

قال فؤاد سزكين : من آثاره التفسير ، ويرجع أكثر هذا التفسير إلى أبى العالية المتوفى سنه تسعين هجرية ، ويبدو أن نقولاً كثيره من هذا التفسير وردت في التفاسير الأخرى ، وقد دخلت عن طريقها إلى تفسير الطبرى .

انظر : طبقات ابن سعد (٧ / ٣٦٩) والجرح والتعديل للرازى (٣ / ٤٥٤) والثقات لابن حبان (٣ / ٦٤) ومشاهير علماء الأمصار (١٢٦) والمعارف لابن قتيبة (٢٣٦) والأعلام (٦ / ١٦٩) والتهذيب (٣ / ٢٣٨) والتقريب (١ / ٢٤٣) وتاريخ التراث العربى لسزكين (١ / ٧٩ ، ٨٠) .

٣ ـ سورة البينة : ٤ .

وانظر : تفسير الطبرى رقم الأثر (١٤٣٠٧) (١٢ / ٢٨٦) .

٤ ـ تفسير ابن كثير (٣ / ١٤١) .

فلا أحد ينفع أحد بعمله وإنما كل شخص مسئول عن عمله ، وقد جاء في حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يثبت ذلك ويوضحه .

فقد روى البخارى ومسلم بسنديهما أن أبا هريرة قال : قام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين أنزل الله : وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ‹١›

قال : « يا معشر قريش » أو كلمة نحوها ـ « اشتروا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، يابنى عبد مناف ‹٢› لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، ياعباس بن عبد المطلب ‹٣› لا أغنى عنك من الله شيئاً ، وياصفية ‹٤›

---

١ ـ سورة الشعراء : ٢١٤ .

٢ ـ عبد مناف اسمه المغيرة وكنيته أبو عبد شمس بن عبد الدار بن قصيّ ، من بني كلاب بن مرة من قريش من أحفاده النضر بن الحارث بن علقمه بن كلده بن عبد مناف (صحابي استشهد يوم اليرموك) ومصعب بن عمير وآخرون .

الكامل (٢ / ١٨) وجمهرة أنساب العرب (١١٧) ونسب قريش (٢٥٤ ـ ٢٥٦) وتاريخ الطبري (٢ / ٢٥٤) والأعلام (٤ / ١٦٦) .

٣ ـ العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، أبو الفضل من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام وجدّ الخلفاء العباسيين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصفة : أجود قريش كفاً وأوصلها هذا بقية أبائي وهو عم كان محسناً لقومه سديد الرأى واسع العقل مولعاً بإعتاق العبيد وكانت له سقاية الجاج وعمارة المسجد الحرام أسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه وأقام بمكة يكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار المشركين ثم هاجر إلى المدينه وشهد وقعه حنين فكان ممن ثبت حين انهزم الناس وشهد فتح مكة وعمى في آخر عمره وكانت وفاته سنه (٣٢هـ) .

طبقات ابن سعد (٤ / ٥ ـ ٣٣) والاستيعاب (٢ / ٨١٠) وأسد الغابة (٣ / ١٦٤) والإصابة (٢ / ٢٧١) وسير أعلام النبلاء (٢ / ٧٨) وصفة الصفوة (١ / ٢٠٣) وتهذيب تاريخ دمشق (٧ / ٢٢٩) .

٤ ـ صفية بنت عبد المطلب بن هاشم سيدة قرشية ، شاعرة باسلة وهي عمة النبى صلى الله عليه وسلم أسلمت قبل الهجرة وهاجرت إلى المدينة وتزوجها العوام أخو أم المؤمنين خديجة ، فولدت له الزبير وهي من المهاجرات الأول وقد وجدت على مصرع أخيها حمزة وصبرت واحتسبت . وهي التى قتلت يوم الخندق اليهودى بعمود ، توفيت سنة عشرين ودفنت بالبقيع .

طبقات ابن سعد (٨ / ٤١) والاستيعاب (٤ / ١٨٧٣) وأسد الغابة (٧ / ١٧٣) والإصابة (٤ / ٣٤٨) والأعلام (٣ / ٢٠٦) وسير أعلام النبلاء (٢ / ٢٦٩) .

عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة ‹١› بنت محمد صلى الله عليه وسلم سليني ماشئت من مالي لا أغنى عنك من الله شيئاً»‹٢›.

وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال : لما نزلت هذه الآية :

وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ‹٣›

دعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قريشاً ، فاجتمعوا فعمَّ وخصَّ . فقال : « يا بني كعب بن لؤي ‹٤› أنقذوا أنفسكم من النار ، يابني مُرَّة بن كعب ‹٥› أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد شمس ‹٦› أنقذوا أنفسكم من

---

١ ـ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم الهاشمية القرشية ، وأمها خديجة بنت خويلد مولدها قبل المبعث بقليل وتزوجها الإمام علي بعد وقعه بدر فولدت له الحسن والحسين ومحسناً وأم كلثوم وزينب وكانت صابرة دينة خيرّة توفيت بعد النبي صلى الله عليه وسلم بخمسة أشهر أو نحوها وعاشت أربعاً أو خمساً وعشرين سنة .

طبقات ابن سعد (٨ / ١٩) والحلية (٢ / ٣٩) والاستيعاب (٤ / ١٨٩٣) وأسد الغابة (٧ / ٢٢٠) والإصابة (٤ / ٣٧٧) وسير أعلام النبلاء (٢ / ١١٨) .

٢ ـ صحيح البخاري (كتاب التفسير ، باب تفسير سورة الشعراء ، ٦ / ١٤٠) .

صحيح مسلم (كتاب الإيمان ، باب بيان أن من مات على الكفر فهو في النار ولا تناله شفاعة ولا تنفعه قرابة المقربين ، ١ / ١٩٣) .

٣ ـ سورة الشعراء : ٢١٤ .

٤ ـ كعب بن لُؤيّ بن غالب ، من سلسلة النسب النبوي ، وكان عظيم القدر عند العرب ، حتى أرخوا بموته إلى عام الفيل وبينهما (٥٢٠) سنة ، وهو أول من سن الاجتماع يوم الجمعة ، فكانت قريش تجتمع إليه فيه فيخطبهم ويعظهم .

انظر : تاريخ الطبري (٢ / ٢٦١) والكامل لابن الأثير (٢ / ٢٤) والأعلام (٥ / ٢٢٨) .

٥ ـ مرة بن كعب بن لؤي ، من مضر من عدنان ، من سلسلة النسب النبويّ .

يكنى أبا يقظة ، من نسله بنو يقظة وبنو مخزوم ، وبنو تميم .

انظر : تاريخ الطبري (٢ / ٢٦١) والكامل لابن الأثير (٢ / ٢٤) وجمهرة الأنساب (١٢) والأعلام (٧ / ٢٠٦) .

٦ ـ عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ ، من قريش ، من عدنان ، كان له من الولد أمية ، وحبيب ، وعبد أميةّ ، ونوفل ، وربيعة ، وعبد العزى ، وعبد الله ، وكان عبد شمس من أصحاب الإيلاف ، كان متجره إلى الحبشة ومات بمكة .

انظر : جمهرة أنساب العرب (٦٧) ونهاية الأرب (٢٧٩) وتاريخ الطبري (٢ / ٢٥٢) والكامل لابن الأثير (٢ / ١٦) والأعلام (٤ / ١٠) .

النار ، يا بنى عبد مناف ، أنقذو أنفسكم من النار ، يا بنى هاشم <١> ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى عبد المطلب <٢> ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة أنقذى نفسك من النار ، فإنى لا أملك لكم من الله شيئاً . غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها » <٣> .

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : لما نزلت : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الصفا فقال : « يا فاطمة بنت محمد ، يا صفية بنت عبد المطلب ، يا بنى عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئاً سلونى من مالى ما شئتم » <٤> .

---

١ ـ هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة اسمه « عمرو » وغلب عليه لقبه « هاشم » لأنه أول من هشم الثريد لقومه بمكة فى إحدى المجاعات ، وهو أول من سن الرحلتين لقريش للتجارة ، رحلة الشتاء إلى اليمن والحبشة ، ورحلة الصيف إلى غزة وبلاد الشام وربما بلغ أنقره . وهو الذى أخذ الحلف من قيصر لقريش على أن تأتي الشام وتعود منها آمنة ، وكان أحد الأجواد الذين ضرب بهم المثل في الكرم مات في غزة في فلسطين ، وبه يقال لغزة « غزة هاشم » .

انظر : طبقات ابن سعد (١ / ٤٣) وتاريخ الطبرى (٢ / ٢٥١) والكامل لابن الأثير (٢ / ١٦) ونهاية الأرب للنويرى (١٦ / ٣١) والأعلام (٨ / ٦٦) .

٢ ـ عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، أبو الحارث زعيم قريش في الجاهلية ، وجدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قيل : اسمه « شيبة » وعبد المطلب لقب عليه ، وكان أبيض مديد القامة ، عاقلاً ، ذا أناة ونجدة ، فصيح اللسان حاضر القلب ، مات بمكة عن نحو ثمانين عاماً أو أكثر قبل الهجرة بنحو (٤٥) سنة . وتاريخ الطبرى (٢ / ٢٤٦) والكامل (٢ / ١٠) ونهاية الأرب للنويرى (١٦ / ٣٩) عيون الأثر (١ / ٤٠) والأعلام (٤ / ١٥٤) .

٣ ـ صحيح مسلم (كتاب الإيمان ، باب في قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » ، ١ / ١٩٢) .

والآية من سورة الشعراء : ٢١٤ ومعنى قوله « ببَلالها » : بفتح الباء الثانية وكسرها وهما وجهان مشهوران . والبلال الماء ومعنى الحديث سأصلها ، شبهت قطيعة الرحم بالحرارة ووصولها بإطفاء الحرارة ببرودة . ومنه بلُّوا أرحامكم أي صلوها . (شرح النووى على صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب قوله تعالى « وأنذر عشيرتك الأقربين » ، م٢ / ٣ / ٨٠) .

٤ ـ المرجع السابق (صحيح مسلم) .

* تقرير رجوع العباد إلى الله ومحاسبة كل إنسان على عمله من خير أو شر :

يقول تعالى:« **ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون** » .

في هذه الآية الكريمة يقرر الحق سبحانه وتعالى أن مصير الخلائق ومرجعهم إليه في يوم القيامة ، فينبئهم بما عملوا من الأعمال التي كلفوا بها في الدنيا ، ويتولى جزاءهم في ذلك اليوم كل بحسب عمله ، فينكشف ما في النفوس وتظهر الحقائق كما قال عز من قائل في آيات أخرى :

يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ ‹١›

وقال تعالى :

وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا .

‹٢›

وقال عز وجل :

وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ

‹٣›

---

١ ـ سورة الطارق : ٩ ، ١٠ .

٢ ـ سورة الإسراء : ١٣ ، ١٤ ، وقوله : « طائره » : أي عمله يحمله .

٣ ـ سورة الأنبياء : ٤٧ .

وقال سبحانه وتعالى :

وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ
لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟
حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

﴿١﴾

وقال جل ثناؤه :

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا
عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ
مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ
وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم
بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

﴿٢﴾

قال الطبري في تفسيره لقوله تعالى : (« **ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون** » « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قل لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان : كل عامل منا ومنكم فله ثواب عمله ، وعليه وزره ، فاعملوا ما أنتم عاملوه ، « **ثم إلى ربكم** » أيها الناس « **مرجعكم** » يقول : ثم إليه مصيركم ومنقلبكم « **فينبئكم بما كنتم فيه** » في الدنيا

١ ـ سورة الكهف : ٤٩ .

٢ ـ سورة المجادلة : ٦ ، ٧ .

« **تختلفون** » من الأديان والملل ، إذ كان بعضكم يدين باليهودية ، وبعض بالنصرانية ، وبعض بالمجوسية ، وبعض بعبادة الأصنام وادعاء الشركاء مع الله والأنداد ، ثم يجازى جميعكم بما كان يعمل في الدنيا من خير أو شر ، فتعلموا حينئذ من المحسن منًّا والمسيء) ‹١› .

وقال ابن كثير في تفسيره أيضاً : « أى اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه ، فستعرضون ونعرض عليه ، وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم وما كنا نختلف فيه في دار الدنيا .

كقوله تعالى :

﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾

‹٢›

وقال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾

‹٣›

---

١ ـ تفسير الطبرى (١٢ / ٢٨٧) .

٢ ـ سورة سبأ : ٢٥ ، ٢٦ ، وانظر : تفسير ابن كثير (٣ / ١٤١) .

٣ ـ سورة الحج : ١٧ .

وقوله : « والصابئون » هم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين ، وإنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرراً لهم يتبعونه ويقتفونه ، ولهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابى أي أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك .

انظر : تفسير ابن كثير (١ / ١٨٢) ، تفسير سورة البقرة : ٦٢ .

المقصد الثالث

قضية النبوات وموقف المشركين منها

ويشتمل على :

تمهيد وأربعة مباحث :

المبحث الأول :

موقف المشركين من وحى الله والرد على شبهاتهم .

المبحث الثانى :

تسلية الله للنبى صلى الله عليه وسلم وأمره له بالاحتمال والصبر على تكاليف الدعوة .

المبحث الثالث :

مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام وتعليمهم البشر .

المبحث الرابع :

مجادلة إبراهيم عليه الصلاة والسلام للمشركين ودحض حجتهم .

التمهيد

١ ــ تعريف الوحى فى اللغة والشرع .

٢ ــ أنواع الوحى :

أ ــ الرؤيا المنامية .

ب ــ مكالمة الله للإنسان من وراء حجاب .

جـ ــ الإلهام .

د ــ الملك الذى يتمثل فى صورة رجل أو يأتى فى مثل صلصلة الجرس .

٣ ــ تعريف النبوة .

٤ ــ الغرض من بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام .

٥ ــ التعريف بأنبياء الله .

٦ ــ لم تخل أمة من رسول .

٧ ــ صفة الرسل عليهم السلام .

٨ ــ الرسول رجل .

٩ ــ الرسل ــ عليهم السلام ــ يعرض لهم ما يعرض للبشر مع سلامتهم مما ينفر منهم .

١٠ ــ الرسل عليهم السلام ليس لهم القدرة على التأثير فى الأشياء ، ولا علم الغيب . إلا ما يجريه الله على أيديهم من خوارق العادات .

١١ ــ عصمة الأنبياء .

١٢ ــ معجزات الرسل ــ عليهم السلام .

* تعريف الوحى فى اللغة والشرع :

الوحى فى اللغة : هو الإعلام فى خفاء <١> .

وفى الشرع : إعلام الله تعالى ما يريد إعلامَهُ لرسول من رسلـــه أو لنبى من انبيائه بشريعة من الشرائع .

يقول تعالى :

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ <٢>

---

١ ـ وورد الوحى في القرآن الكريم بعدة معاني ، ومن هذه المعانى ما يأتي :

أ ـ الوحى بمعنى الإشارة . قوله تعالى : « فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً » ، سورة مريم : ١١ .

ب ـ الوحى بمعنى الإلهام . قوله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فالقيه فاليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رآدوه إليك وجاعلوه من المرسلين ، سورة القصص : ٧ .

جـ ـ الوحى بمعنى الإلهام الغرزى . قوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون » ، سورة النحل : ٦٨ .

د ـ الوحى بمعنى الوسوسة . قوله تعالى : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » ، سورة الأنعام : ١٢١ .

٢ ـ سورة النساء : ١٦٣ .

* أنواع الوحى :

إن للوحى أنواعاً منها :

أ - الرؤيا المنامية :

فقد جاء في حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها - أنها قالت : أول ما بُدِيء به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الوحى الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مِثْلَ فلق الصبح ... (١) .

وكما حدث لسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام - حينما أمر بذبح إبنه إسماعيل . يقول سبحانه وتعالى :

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ
يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ
يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ (٢)

ب - مكالمة الله للإنسان من وراء حجاب :

كما كلم الله سبحانه وتعالى سيدنا موسى عليه السلام .

قال تعالى :

وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ
وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾

(٣)

---

١ - صحيح البخارى (كتاب الوحى باب كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ١/ ٣) .
وصحيح مسلم (كتاب الإيمان ، باب بدء الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ١/ ١٣٩) واللفظ للبخارى .

٢ - سورة الصافات : ١٠٢ .

٣ - سورة النساء : ١٦٤ .

وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ ‹١›

جـ ـ الإلهام :

فعن أبى أمامة ‹٢› أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إن روح القدس نفث فى روعى أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها ، وتستوعب رزقها ، فاتقوا الله ، وأجملوا فى الطلب ، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله ، فإن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته » ‹٣› .

---

١ ـ سورة الأعراف : ١٤٣ ، ١٤٤ .

٢ ـ أبو أمامة هو صُدَىّ بن عجلان ، أبو أمامة الباهلى صحابى مشهور سكن الشام ، وهو آخر من مات من الصحابة بالشام . كان يوم حجة الوداع ابن ثلاثين سنة ، وكان مع على بصفين . مات سنة ست وثمانين بحمص .

طبقات ابن سعد (٧ / ٤١١) وأسد الغابة (٣ / ١٦) والإصابة (٢ / ١٨٢) والتهذيب (٤ / ٤٢٠) والتقريب (١ / ٣٦٦) .

٣ ـ قال الشيخ العجلونى في كشف الخفاء ومزيل الإلباس (١ / ٢٣١) : حديث « إن روح القدس نفث في روعى لن تمت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله واجملوا في الطلب » رواه الديلمى في مسند الفردوس عن جابر .

ورواه أبو نعيم والطبرانى عن أبى أمامة ، والبزار عن حذيفة . وأخرجه أيضاً ابن أبى الدنيا وصححه الحاكم عن ابن مسعود كذا في فتح البارى شرح صحيح البخارى (كتاب بدء الوحى ، باب حدثنا عبد الله ابن يوسف ، ١ / ٢٠) وسكت عنه الذهبى (٢ / ٤) المستدرك على الصحيحين .

د ـ الملك الذى يتمثل فى صورة رجل أو يأتى فى مثل صلصلة الجرس :

وقد ورد ما يثبت ذلك فى الحديث الشريف الذى أخرجه البخـارى ، عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، أن الحارث بن هشـام ‹١› رضى الله عنه ، سأل رسول الله صلى الله علـه وسلـم ، فقـال : يا رسول الله،كيف يأتيك الوحى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشدُّه عليَّ فَيَفْصِمُ عنيّ وقد وعَيْتُ عنه ما قال،وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول » قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيَفْصِمُ عنه وإن جبينه ليتفصَّد عرقاً » ‹٢› .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ ‹٣›

---

١ ـ الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومى القرشي ، أبو عبد الرحمن ، صحابى ، كان شريفاً في الجاهلية والإسلام . مدحه كعب بن الأشرف ، وشهد بدراً مع المشركين فانهزم ، فعيَّره حسان بن ثابت بأبيات ، فاعتذر بأبيات هى أحسن ما قيل في الاعتذار من الفرار ، وأسلم يوم فتح مكة ، وخرج في أيام عمر بأهله وماله من مكة إلى الشام ، فلم يزل مجاهداً بالشام إلى أن مات في طاعون عمواس ، وقد انتهت إليه سيادة بنى مخزوم ، وكان من المؤلفة قلوبهم ، وهو أخو أبى جهل .

الاستيعاب (١ /٣٠٧) وأسد الغابة (١ / ٤٢٠) والإصابة (١ / ٢٩٣) وتهذيب تاريخ دمشق (٤ / ٨) والأعلام (٢ / ١٥٨) .

٢ ـ صحيح البخارى(كتاب الوحى،باب كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،١٠/١) .

وقوله :« الصلصلة » : صوت الحديد إذا حُرِّك ، ثم أطلق على كل صوت له طنين ، وهو الصوت الشديد .

وقوله : « فَيَفْصِم عنى » : أى يقلع عنى .

وقوله : « ليتفصَّد » بالفاء وتشديد المهملة : مأخوذ من الفَصْد ، وهو قطع العرق لإسالة الدم ، شبه جبينه بالعِرْق المفصود مبالغه في كثرة العرق .

انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى (كتاب بدء الوحى ، بـاب كيف كـان بدء الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ١ / ٢٠) . وكذلك النهاية لابن الأثير (٣ / ٤٦ ، ٤٥٢) .

٣ ـ سورة الشورى : ٥١ .

* تعريف النبــوة :

النبى : هو من أوحى إليه بشريعة ليعمل بها فى نفسه .

والرسول : هو من أوحى إليه بشريعة ليعمل بها فى نفسه وليبلغها لغيره .

قال الحق سبحانه وتعالى :

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ
أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ
ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ‹١›

وجاء فى العقيدة الطحاوية ما يأتى :

" وقد ذكروا فروقاً بين النبى والرسول ، وأحسنها : أن من نَبَّأه الله بخبر السماء إن أمره أن يبلغ غيره فهو نبى رسول ، وإن لم يأمره أن يبلغ غيره فهو نبى وليس برسول ، فالرسول أخص من النبى ، فكل رسول نبى وليس كل نبى رسولاً " ‹٢› .

٤ ـ الغرض من بَعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام :

الغرض من بعثة الرسل عليهم السلام هو الدعوة إلى عبادة الله وإقامة دينه .

قال تعالى :

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ
ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ ‹٣›

---

١ ـ سورة الحج : ٥٢ .

٢ ـ العقيدة الطحاوية (١٦٧) .

٣ ـ سورة الأنبياء : ٧ .

وقال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ‹١›

وقال تعالى :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾

‹٢›

وإقامة الدين ، وعبادة الله ، تشمل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، كما تشمل الأعمال الصالحة التى تزكى النفس الإنسانية وتطهرها ، وتغرس فيها الخير ، لتبلغ الكمال المادى والأدبى فى هذه الحياة ، ولتستعد لكمال أرقى وأبقى .

وهذه التعاليم العالية لا يمكن للبشر أن يصلوا إليها بعقولهم ، وإنما يتعلمونها بوحى الله ‹٣› .

قال تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ ‹٤›

---

١ ـ سورة النحل : ٣٦ .

٢ ـ سورة الشورى : ١٣ .

٣ ـ العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق (١٧٨) .

٤ ـ سورة الجمعة : ٢ .

وبهذا لا تنهض حُجة من أغفل الله قلبه عن ذكره ، واتبع هواه وكان أمره فرطا .

قال تعالى :

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا

(١)

* التعريف بأنبياء الله :

إن الحق سبحانه وتعالى قد أرسل رسله إلى الناس ليخرجهم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الهدى والإيمان ، وقد أوجب الله تعالى على عباده الإيمانَ برسله دون التفريق بينهم .

قال جل ثناؤه :

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾

(٢)

---

١ ـ سورة النساء : ١٦٢ ـ ١٦٥ .

٢ ـ سورة البقرة : ١٣٦ . والأسباط : هم أولاد يعقوب الاثنا عشر ، يوسف وإخوته .

وقد بين الحق سبحانه وتعالى أن هذا هو إيمان المؤمنين ، فقال عز من قائل :

ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ
إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ
وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا
وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ‹١›

وإن الإنسان إذا آمن ببعض الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ولم يؤمن بالبعض الآخر ، وفرق بينهم فى الإيمان فهو كافر .

قال تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ
وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ
أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ
حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾
‹٢›

فى هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى حقيقة هؤلاء الكفار الذين كفروا بالله وبرسله ـ عليهم السلام ـ ويريدون أن يفرقوا بين الإيمان بالله والإيمان برسله عليهم السلام ـ فلا يصح الإيمان بالله والتكذيب ببعض الرسل عليهم الصلاة والسلام ـ ويقولون : نؤمن ببعض الرسل ، ونكفر ببعض منهم ، كاعتقاد اليهود برسالة موسى عليه السلام ، وكفرهم برسالة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام . والنصارى آمنوا برسالة عيسى وموسى عليهما الصلاة والسلام ، وكفروا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام .

ويريدون بذلك أن يتخذوا بين الإيمان والكفر طريقاً ومذهباً يذهبون إليه ، وديناً يدينون به . فهؤلاء هم الكافرون يقيناً . وقد أعد الله وهيأ لهم عذاباً ذا إهانة ، يهانون ويعذبون فيه ، وهو عذاب النار ‹٣› .

---

١ ـ سورة البقرة : ٢٨٥ .

٢ ـ سورة النساء : ١٥٠ ، ١٥١ .

٣ ـ تفسير الجلالين (٨٤) ، وتفسير الخازن (١ / ٥١٢) بتصرف .

وهؤلاء الرسل منهم من قص الله سبحانه وتعالى علينا ، فذكرهم لنا بأسمائهم ، ومنهم من لم يقصص علينا .

قال تعالى : وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ‹١›

وقال تعالى :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ‹٢›

أما الذين ذكرهم الحق سبحانه وتعالى فى القرآن فعددُهم خمسة وعشرون نبياً ورسولاً .

وقد ذكر الله تعالى فى سورة «الأنعام» ثمانية عشر منهم فى قوله جل ثناؤه :

وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ ‹٣›

---

١ ــ سورة النساء : ١٦٤ ، ١٦٥ .

٢ ــ سورة غافر : ٧٨ .

٣ ــ سورة الأنعام : ٨٣ ــ ٨٦ .

فقد جمعت هذه الآيات الكريمة ثمانية عشر رسولاً ، أما بقية الأنبياء والرسل فقد ذكرهم الله فى سور أخرى .

قال تعالى :

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ
وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ (١)

وقال تعالى :

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ (٢)

وقال سبحانه وتعالى :

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ
يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ
وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٣)

وقال جل ثناؤه :

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ
شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ
وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ
وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ (٤)

وقال تعالى :

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ (٥)

---

١ ـ سورة آل عمران : ٣٢ .

٢ ـ سورة الأعراف : ٦٥ .

٣ ـ سورة هود : ٦١ .

٤ ـ سورة هود : ٨٤ .

٥ ـ سورة الأنبياء : ٨٥ .

وقال تعالى :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (٤٠)

<١>

وقد ورد عدد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ـ فى الحديث الشريف الذى أخرجه الإمام أحمد بسنده عن أبـى أمامـة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد جالساً ، وكانوا يظنون أنه ينزل عليه ، فأقصروا عنه ، حتى جاء أبو ذر فأقحم ، فأتى فجلس إليه ، فأقبل عليه النبى صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « يا أبا ذر ، هـل صليت اليوم ؟ قال : لا . قال : قم فصلِّ » فلما صلى أربع ركعات الضحى أقبل عليه فقال :« يا أبا ذر، تعوَّذ من شر شياطين الجن والإنس » . قال : يا نبى الله ، وهل للإنس شياطين ؟ قال : « نعم ، شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً » ، ثم قال:« يا أبا ذر ، ألا أعلمك كلمة من كنز الجنة ؟ » قال : بلى جعلنى الله فداءك . قال : « قل : لا حول ولا قوة إلا بالله » قال : فقلت : لا حول ولا قوة إلا بالله ، قال :ثم سكت عنى فاستبطأت كلامه ، قال : قلت : يا نبى الله،إنا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان ، فبعثك الله رحمة للعالمين ، أرأيت الصلاةَ ماذا هى ؟ قال : « خير موضوع ، من شاء استقل ومن شاء استكثر » ، قال : قلت : يا نبى الله ، أرأيت الصيام ماذا هو ؟ قال : « فرض مجزيء » . قال : قلت : يا نبى الله ، أرأيت الصدقة ماذا ؟ قال : « أضعافٌ ، مضاعفة ، وعند الله المزيد » قال : قلت : يا نبى الله ، فأيُّ الصدقة أفضل ؟ قال : « بِرٌّ إلى فقير ، وجُهد من مُقلٍّ » قال : قلت : يا نبى الله ، إيُّما نزل عليك أعظم ؟ قال : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ آية الكرسى<٢> ، قال : قلت : يا نبى الله ، أى الشهداء أفضل ؟ قال : « من سُفك دمه وعُقِر جواده »

---

١ ـ سورة الأحزاب : ٤٠ .

٢ ـ سورة البقرة : ٢٥٥ .

قال : قلت : يا نبى الله ، فأيٌّ الرقاب أفضل ؟ قال : « أغلاها ثمناً ، وأنفسها عند أهلها » . قال : قلت : يا نبى الله ، فأيٌّ الأنبياء كان أوّل ؟ قال : « آدم عليه السلام » ، قال :قلت :يا نبى الله ، أو نبىّ كان آدم ؟ قال : « نعم ، نَبِيٌّ مكلَّم خلقه الله بيده ، ثم نفخ فيه روحه ، ثم قال له : يا آدم قُبُلاً » ، قال : قلت : يا رسول الله ، كم وفى عدة الأنبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، الرسل من ذلك ثلثمائة وخمسة عشر جماً غفيرا » ‹١› .

وفى رواية عن أبى ذر قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى المسجد فجلست إليه فقال : « يا أبا ذر ، هل صليت ؟ » قلت : لا . قال : « قم فصل » . قال : فقمت فصليت ، ثم أتيته فجلست إليه فقال لى : « يا أبا ذر ، استعذ بالله من شر شياطين الإنس والجن ، قال : قلت : يا رسول الله ، وهل للإنس من شياطين ؟ قال : « نعم » يا أبا ذر ، ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ » قال : قلت : بلى بأبى أنت وأمى . قال : « قل : لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة » قال : قلت : يا رسول الله فما الصلاة ؟ قال : « خير موضوع ، من شاء أكثر ومن شاء أقل » ، قال : قلت : فما الصيام يا رسول الله ؟ قال : « فرض مجزيء » . قال : قلت : يا رسول الله فما الصدقة ؟ قال : « أضعافٌ ، مضاعفة ، وعند الله مزيد » قال : قلت :أيها أفضل يا رسول الله ؟ قال :« جُهد من مُقِلٍّ أو بِرٌّ إلى فقير » قلت : فأيٌّ ما أنزل الله عز وجل عليك أعظم ؟ قال : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ حتى ختم الآية ‹٢› ، قلت : فأيٌّ الأنبياء كان أوّل ؟ قال :« آدم » ،

---

١ ـ مسند الإمام أحمد (٥ / ٢٦٥ ، ٢٦٦) .

قال الهيثمى في مجمع الزوائد (١ / ١٥٩) : رواه أحمد والطبرانى في الكبير .

وقال : كم عدد الأنبياء قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً .

ومداره على عليّ بن زيد بن جدعان وهو ضعيف ولكن هذا السند يتقوى بما بعده من رواية أبي ذر .

وقوله : « قبلا » أى عياناً ومقابلة .

٢ ـ سورة البقرة : ٢٥٥ .

قلت : أو نبى كان يا رسول الله ؟ قال : « نَبِيٌّ مكلَّم » ، قلت : فكم المرسلون يا رسول الله ؟ قال : « ثلثمائة وخمسة عشر جماً غفيرا » ‹١› .

* لم تخل أمة من رسول :

هؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام قد أرسلهم الله تعالى إلى الأمم فى جميع العصور ، فلم تخل أمة من رسول يدعوها إلى الله جل ثناؤه ، ويرشدها إلى الحق .

قال تعالى :

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ ‹٢›

وقال جل ثناؤه :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ ‹٣›

وقال تعالى :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ‹٤›

---

١ ـ مسند الإمام أحمد (٥ / ١٧٩) .

وقال الهيثمى (١ / ١٦٠) رواه أحمد والبزار والطبرانى في الأوسط بنحوه وعند النسائى طرف منه وفيه المسعودى وهو ثقة ولكنه اختلط . وفي طريق الطبرانى زيادة .

فعن أبى أمامة الباهلى أن رجلاً قال يارسول الله أنبى كان أدم ، قال « نعم » قال :كم بينه وبين نوح ؟ قال : « عشرة قرون » قال : كم بين نوح وإبراهيم ؟ قال : « عشرة قرون » قال يارسول الله : كم كانت الرسل ؟ قال : ثلثمائة وخمسة عشر ، رواه الطبرانى في الأوسط ورجاله رجال الصحيح .

(مجمع الزوائد ومنبع الفوائد : ١ / ١٩٦) .

٢ ـ سورة النحل : ٦٣ .

٣ ـ سورة فاطر : ٢٤ .

٤ ـ سورة يونس : ٤٧ .

وقال عز من قائل :

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ ‹١›

* صفة الرسل عليهم السلام :

والرسل عليهم السلام بشر من نفس الأمة ، وإن كانوا من معدن كريم ، فقد خصهم الحق سبحانه وتعالى بمواهب عقلية وروحية ، وذلك ليستعدوا لتلقى الوحى عن الله تعالى ‹٢› .

قال عز من قائل :

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ ‹٣›

وقال تعالى :

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ ‹٤›

فالله سبحانه وتعالى قد خص الرسل بمزايا وفضائل ليقووا على الاضطلاع بأعباء الرسالة ، وليكونوا مُثُلاً يُقتدى بهم فى أمور الدين والدنيا ، وليكونوا أهلاً لتحمل هداية الله إلى الناس ، ومن صفاتهم أنهم يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ‹٥› .

---

١ ـ سورة الرعد : ٧ .

٢ ـ انظر العقائد الإسلامية (١٧٦) .

٣ ـ سورة الأنعام : ١٢٤ .

٤ ـ سورة الحج : ٧٥ .

٥ ـ انظر العقائد الإسلامية : ١٧٦ .

لقوله جل ثناؤه :

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ‹١›

وأنهم يتزوجون ويولد لهم أولاد كغيرهم من البشر ، لقوله تعالى :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ‹٢›

* الرســول رجــل :

ولا يكون الرسول إلا رجلاً ، فالله تعالى لم يُرسلْ إلى الناس ملكاً ولا أنثى ، بل جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام ـ من الرجال ‹٣› .

لقوله تعالى :

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ ‹٤›

ولقوله تعالى :

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ ‹٥›

---

١ ـ سورة الفرقان : ٢٠ .

٢ ـ سورة الرعد : ٣٨ .

٣ ـ انظر العقائد الإسلامية (١٧٨) .

٤ ـ سورة الأنبياء : ٧ .

٥ ـ سورة يوسف : ١٠٩ .

* الرسل عليهم الصلاة والسلام يعرض لهم ما يعرض للبشر مع سلامتهم مما ينفر منهم :

والرسل عليهم السلام قد يعرض لهم كما يعرض للبشر من الصحة والمرض ، والقوة والضعف ، واللذة والألم ، والحياة والموت ، إلا أن ما ينزل بهم لا يعرضهم لتنفير الناس منهم <١> .

قال تعالى :

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ <٢>

وقال تعالى :

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ <٣>

* الرسل عليهم السلام ليس لهم القدرة على التأثير في الأشياء ، ولا علم الغيب إلا ما يجريه الله على أيديهم من خوارق العادات :

فهم عليهم السلام لا يتصرفون في الكون ، ولا يملكون لأحد نفعاً ولا ضراً ، ولا يؤثرون في إرادة الله ، ولا يعلمون الغيب إلا ما أراده الله لهم من علمه <٤> .

---

١ ـ انظر : العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق (١٧٧) .

٢ ـ سورة الأنبياء : ٨٣ ، ٨٤ .

٣ ـ سورة آل عمران : ١٤٤ .

٤ ـ انظر العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق (١٧٧) .

لقوله تعالى :

قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ
أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ
أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ‹١›

وقال جل ثناؤه :

عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا
يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ
يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ
رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٨﴾ ‹٢›

* عصمة الأنبياء :

والرسل عليهم السلام اصطفاهم الله تعالى واختارهم ، ونزههم عن السيئات ، وعصمهم من المعاصى صغيرها وكبيرها ، وحلاَّهم بالأخلاق الفاضلة من الصدق والأمانة والتفانى فى أداء الحق ‹٣› .

* معجزات الرسل :

لم يرسل الله عز وجلَّ رسولاً إلا وقد أيده بالآيات والمعجزات المخالفة للسنن المعروفة للناس ، والخارجة عن مقدورهم ، وذلك ليكون إظهارها على يديه مع بشريته دليلاً يثبت أنه مرسل من عند الله تعالى .

---

١ ـ سورة الأعراف : ١٨٨ .

٢ ـ سورة الجن : ٢٦ ـ ٢٨ .

٣ ـ انظر العقائد الإسلامية (١٨٠) .

كعدم إحراق النار لإبراهيم ، وناقة صالح ، وعصا موسى ، وما ظهر على يدى عيسى من العجائب ، من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك ‹١› .

أما محمد صلى الله عليه وسلم فمعجزاته كثيرة وأهمها القرآن الكريم ، فقد جعله الله تعالى المعجزة الخالدة له صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة .

قال تعالى :

قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ ‹٢›

---

١ ـ انظر العقائد الإسلامية (١٢٥ ، ١٢٦) .

٢ ـ سورة الإسراء : ٨٨ .

المبحث الأول

موقف المشركين من وحي الله تعالى والرد على شبهاتهم

ويشتمل على ما يأتي :

* تكذيب المشركين بالحق لما جاء من عند الله تعالى .
* طلب المشركين نزول كتاب عليهم .
* اقتراح المشركين أن يكون مع الرسول صلى الله عليه وسلم ملك يدعوهم إلى الإيمان به وتصديقه .
* طلب المشركين أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم معجزة حسية كمعجزات الرسل السابقين .
* عدم انتفاع المشركين بالآيات التي طلبوها لو نزلت عليهم .
* طلب المشركين أن ينزل عليهم الوحي كما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم والرد عليهم .
* حضورهم مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا لينتفعوا بل ليتخذوا من حضورهم وسيلة للتشكيك .
* موقف أهل الكتاب : اليهود والنصارى موقف إنكار .
* وصف هؤلاء المكذبين بأنهم أظلم الناس .

* تكذيب المشركين بالحق لما جاء من عند الله تعالى :

كان موقف المشركين من وحى الله موقف إعراض وصدود وإنكار ، وقد آتاهم الله سبحانه وتعالى من الآيات والأدلة والبراهين الواضحة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصدق ما جاءهم به من عند الله تعالى .

والحق سبحانه وتعالى يبين موقفهم كما يبدو ذلك في الآيتين فيقول عز من قائل :

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ
ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ
لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾

<١>

معانى الكلمات :

« **وما تأتيهم من آية من آيات ربهم** » : أى دلالة ومعجزة وحجة من الدلالات على وحدانية الله ، وصدق رسله عليهم الصلاة والسلام .

« **إلا كانوا عنها معرضين** » : أى إلاّ أعرضوا عنها فلا ينظرون إليها ، ولا يبالون بها <٢> .

« **فقد كذبوا بالحق لما جاءهم** » : قيل : كذبوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل : كذبوا بالقرآن .

« **فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون** » : أى أخبار الشيء الذى كانوا به يستهزئون ، وهو القرآن ، أو محمد صلى الله عليه وسلم <٣> .

---

١ ـ سورة الأنعام : ٤ ، ٥ .
٢ ـ انظر : تفسير ابن كثير (٢ / ٧) .
٣ ـ انظر : فتح القدير (٢ / ١٠٠) .

المعنى الإجمال للآيتين :

فى هاتين الآيتين الكريمتين يخبر الله تعالى عن أحوال هؤلاء المشركين . فقد كذبوا بالقرآن الكريم الذى جاءهم به الرسول صلى الله عليهم وسلم من عند الله تعالى ، أو كذبوا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وقد توعدهم الله جل ثناؤه على تكذيبهم واستهزائهم هذا ، بأنه سوف ينالهم الهلاك والدمار ، كما نال غيرهم من الأمم السابقة المكذبة للرسل – عليهم السلام – .

التوضيح للآيتين :

يوضح الله سبحانه وتعالى فى هاتين الآيتين الكريمتين موقف هؤلاء المشركين المتعنتين من وحى الله تعالى ، وتكذيبهم به وبرسوله صلى الله عليه وسلم ، وإعراضهم عن الإستجابة لدعوة الحق والهدى .

فهؤلاء المعرضون مهما جاءتهم الأدلة والمعجزات والبراهين الساطعة التى تدلهم على وحدانية الله تعالى ، وعلى صدق رسوله صلى الله عليه وسلم بما جاءهم به من عند الله الواحد الأحد .

فهم يُعرضون ولا يهتمون بها ولا ينظرون إليها . فتوعدهم الحق سبحانه وتعالى جزاء على تكذيبهم واستهزائهم بما جاءهم من الحق والهدى بالهلاك والدمار والعذاب الأليم ، كما نال غيرهم من الأمم السابقة المكذبة للحق والهدى ، ولرسل الله عليهم أفضل الصلاة والتسليم .

قال الطبرى : فى تفسيره لهذه الآية : (يقول تعالى ذكره : وما تأتى هؤلاء الكفار الذين بربهم يَعدلون أوثانهم وآلهتهم « آية من الآيات » يقول : حجةٌ وعلامة ودلالة من حجج ربهم ودلالاته وأعلامه على وحدانيته وحقيقة نبوتك

يا محمد ، وصدق ما تأتيهم به من عندى « **إلا كانوا عنها معرضين** » يقول : إلا أعرضوا عنها ، يعنى الآية ، فصدّوا عن قَبُولها ، والإقرار بما شهدت على حقيقته ، ودلّت على صحته ، جهلاً منهم بالله ، واغتراراً بحلمه عنهم) <١> .

وقال الشوكانى فى قوله : « وما تأتيهم ... إلخ » (كلام مبتدأ لبيان بعض أسباب كفرهم وتمردهم ، وهو الإعراض عن آيات الله التى تأتيهم كمعجزات الأنبياء ، وما يصدر عن قدرة الله الباهرة ، مما لا يشك من له عقل أنه فعل الله سبحانه .

والإعراض :ترك النظر فى الآيات التى يجب أن يستدلوا بها على توحيد الله .

و « مِنْ » فى « من آية » مزيدة للاستغراق .

و « مِنْ » فى « من آيات » تبعيضية .

أى وما تأتيهم آية من الآيات التى هى بعض آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ، والفاء فى قوله : « **فقد كذبوا** » جواب شرط مقدر : أى إن كانوا معرضين عنها فقد كذبوا بما هو أعظم من ذلك وهو الحق .

« **لما جاءهم** » قيل : المراد بالحق هنا القرآن ، وقيل : محمد صلى الله عليه وسلم) <٢> .

وقال الطبرى فى تفسيره لهذه الآية أيضاً :

(يقول تعالى ذكره : فقد كذب هؤلاء العادلون بالله ، الحقَّ لما جاءهم . وذلك « **الحق** » هو محمد صلى الله عليه وسلم كذبوا به وجحدوا نبوته : لما جاءهم قال الله متوعداً على تكذيبهم وجحودهم نبوته : سوف يأتى المكذبين بك يا محمد من قومك وغيرهم « **أنباء ما كانوا به يستهزءون** »

---

١ ـ تفسير الطبرى (١١ / ٢٦١ ، ٢٦٢) .

٢ ـ فتح القدير (٢ / ١٠٠) .

يقول : سوف يأتيهم أخبار استهزائهم بما كانوا به يستهزءون من آياتى وأدلتى التى آتيتهم ، ثم وفى لهم بوعيده لمَّا تمادوا فى غيِّهم ، وعتوا على ربهم فقتلتهم يوم بدرٍ بالسيف) ‹١› .

وقال الشوكانى فى تفسيره لقوله : « **فسوف يأتيهم أنباء ماكانوا به يستهزءون** » (أى أخبار الشيء الذى كانوا بـه يستهزءون ، وهو القرآن أو محمد صلى الله عليه وسلم على أن « ما » عبارة عن ذلك ، تهويلاً للأمر وتعظيماً له ، أى سيعرفون أن هذا الشيء الذى استهزأوا به ليس بموضع للإستهزاء ، وذلك عند إرسال عذاب الله عليهم ، كما يقال : اصبر فسوف يأتيك الخبر عند إرادة الوعيد والتهديد ، وفى لفظ «الأنباء »ما يرشد إلى ذلك ، فإنه لا يطلق إلا على خبر عظيم) ‹٢› .

وإن الحق سبحانه وتعالى وعظهم وحذرهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوى ما حل بأمثالهم من القرون الماضية الذين كانوا أشد منهم قوة ، وأكثر جمعاً ، وأكثر أموالاً وأولاداً ، واستعلاءً فى الأرض ، وعمارة لها .

فقال تعالى :

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ‹٣›

فالله تعالى أمرهم بأن ينظروا إلى الأمم السابقة كيف أنه جل ثناؤه مكنهم فى الأرض وذلك بأن جعل لهم فيها مساكن ، وذلَّلها لهم ، وأنزل عليهم من السماء الماء ، وجعل الأنهار تجرى من تحت بيوتهم .

---

١ ـ جامع البيان (تفسير الطبرى ، ١١ / ٢٦٢) .
٢ ـ فتح القدير (٢ / ١٠٠) .
٣ ـ سورة الأنعام : ٦ .

أى أن الحق سبحانه وتعالى جعل لهم من خيرات الأرض الكثير ، ومن خيرات السماء ، ولكنهم لما كفروا وطغوا وتمادوا فى طغيانهم أهلكهم الله بذنوبهم ، وأنشأ سبحانه وتعالى بعد هلاكهم قوماً آخرين <١> .

ومن هذا الباب ما ذكره الله سبحانه وتعالى من إنكارهم إنزال أيِّ شيء من الوحى على أيِّ بشر .

قال تعالى :

وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ
قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ
تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ
أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾
وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ
أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ
وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

<٢>

معانى الكلمات :

« **وما قدروا الله حق قدره** » : أى هؤلاء الكفار ما عظموا الله حق تعظيمه ، وما عرفوه حق معرفته .

« **إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء** » : أى أنكروا إنزال أى كتاب على أى بشر .

---

١ ـ وقد فصلنا الكلام عن هذه الآية في (المقصد الأول : « قضية التوحيد » في المبحث الثالث : « سنن الله » . السنة الأولى : سنة الله في إهلاك الأمم المكذبة للرسل عليهم الصلاة والسلام .

٢ ـ سورة الأنعام : ٩١ ، ٩٢ .

« **قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى** » : أى قل لهم يا محمد : من أنزل التوراة التى جاء بها موسى عليه السلام .

« **تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً** » :قراطيس:جمع قرطاس ، وهو مايكتبون فيه من ورق وغيره ، أى أنهم يكتبونها فى دفاتر مقطَّعة .

« **تبدونها** » : أى تظهرونها .

« **وتخفون كثيراً** » :مما كتب فيها كنعت النبى صلى الله عليه وسلم وغيره .

« **قل الله** » : أى قل لهم : الله أنزله ، إذ لا جواب غيره .

« **ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون** »:أى اتركهم فى ضلالهم وباطلهم يستهزئون .

« **وهذا كتاب أنزلناه** » : أى القرآن الكريم أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم .

« **مبارك** » : كثير البركة والمنافع والفوائد .

« **مصدق الذى بين يديه** » : أى القرآن مصدق لما سبقه من الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل .

« **ولتنذر أم القرى ومن حولها** » : أى لتنذر به أهل مكة وسائر الناس جميعاً .

« **والذين يؤمنون بالآخرة** » : أى الذين يصدقون بيوم القيامة .

« **يؤمنون به** » : أى يصدقون بالقرآن .

« **وهم على صلاتهم يحافظون** » : أى يؤدونها مستكملة بشروطها وأركانها وآدابها (١) .

---

١ ـ انظر : تفسير الجلالين (١١٤) بتصرف .

المعنى الإجمالي للآيتين :

يبين الحق سبحانه وتعالى في هاتين الآيتين الكريمتين الحقائق الآتية وهي :

أولاً : أنه لا أحد يعلم حقيقة قدر الله وعظمته إلا من آمن به وصدق ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم .

ثانياً : هؤلاء الكفرة لم يعرفوا عظمة الله وقدره حق معرفته حين قالوا « **ما أنزل الله على بشر من شيء** » .

ثالثاً : أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يرد على إنكارهم هذا بأن يقول لهم ـ عليه الصلاة والسلام : « **من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى** » ؟ أي التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام ، وهي نور يستضاء بها ، وهداية من عند الله ، فأنتم تعرفون ذلك حق المعرفة .

رابعاً : يبين الحق سبحانه وتعالى أن اليهود كانوا يجعلون التوراة قراطيس ، أي قطعاً يكتبون فيها ما يريدون كتابته .

وأنهم كانوا يخفون ما يريدون إخفاءه من صفات النبي صلى الله عليه وسلم ، التي وردت فيها ، ويظهرون ما يريدون إظهاره منها .

خامساً : يخبر الله تعالى بأنه جل ثناؤه علَّم هؤلاء ما لم يكونوا يعلمون هم ولا آباؤهم ، من أخبار الأمم السابقة وغيرها .

سادساً : يبين الحق سبحانه وتعالى جواباً على السؤال الذي ذكر في صدر هذه الآية وهو : « **من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى** » ؟

والجواب عنه : أن الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى عليه السلام هو : « **الله** » .

وهذا الكتاب هو التوراة ، وهى نور وهداية من الله للناس .

وأن اليهود كانوا يجعلون من التوراة قِطَعاً ليكتبوا فيها ما يريدون إظهارة ، وليخفوا ما يريدون إخفـــاءه ، من صفـــات الرســـول صلى الله عليه وسلم وغيره .

سابعـــاً : يبين الله تعالى أن من أنكر رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما جاءهم به من عند الله فما على الرسول صلى الله عليه و سلم إلا أن يتركهم فى ضلالهم وطغيانهم يلهون ويلعبون .

ثامنـــاً : يمتن الله تعالى على عباده بإنزال القرآن الكريم الكثير البركة والمنفعة ، والمصدق لما سبق من الكتب السماوية ، لينذر أهل مكة ومن حولها من القرى جميعاً .

تاسعـاً : سمى الله تعالى مكة بأم القـــرى ، لأنها قبلة المسلمين جميعاً ، فهى كالأم التى تجمع من حولها .

عاشـراً : يبين الله تعالـــى أن الذين آمنوا بالقرآن وما جاء فيه من أخبار غيبية ، كالبعث والجزاء والجنـــة والنار ، هم المنتفعـــون بذلك ، لأن نتيجة إيمانهم بهذا القرآن العظيم جعلتهم يحافظـــون على كل ما أمروا به ، ونهوا عنه من صلاة وغيرها .

التوضيح للآيتين :

فى هاتين الآيتين الكريمتين يبين الحق سبحانه وتعالى :

أولاً : أن من عرف الله حق معرفته ، وعظمه حق تعظيمه ، آمن بوحيه إلى عباده ، وإنزال وصاياه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام المبلغين عن الله تعالى .

وأن هؤلاء المشركين لم يعرفوا الله حق معرفته ، ولم يعظموه حق تعظيمه ، فأنكروا كل ما أنزله الله ، وجميع الوصايا التى جاءت بها الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وقالوا فى صراحة : « **ما أنزل الله على بشر من شيء** » .

أى أنهم أنكروا الكتب السماوية السابقة وجميع الوصايا الإلهية التى تحدث بها الرسل عليهم الصلاة والسلام .

قال تعالى عنهم : « **وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء** » .

ثانياً : رد الله تعالى عليهم قولهم هذا وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يوجه إليهم هذا السؤال :

« **من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس** » ؟ أى قل لهم يا محمد : إذا كان الله لم ينزل على بشر من شيء فمن أنزل التوراة التى جاء بها موسى ؟

واليهود يعرفون أن التوراة أنزلها الله تعالى ، ويعلنون ذلك على الناس ، والمشركون يصدقون اليهود فى هذا ، وإن اليهود كانوا يجعلون التوراة قراطيس ، ليكتبوا فيها ما يريدون إظهاره ، وليخفوا

ما يريـــدون إخفـاءه من صـفـات الرسـول صـلى الله عليـه وسلم ونحوها ، والتى ذكرت فيها .

ثالثــاً : أن الحق سبحانـــه وتعالـــى علَّم هـــؤلاء ما لـــم يكونوا يعلمون هم ولا آباؤهم من أخبار الأمم السابقة وغيرها .

رابعــاً : أن الحق سبحانه وتعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم على هـــذا السؤال الذى سألـــوه وهو :

« **من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى** » ؟

بأن يقـول لهم : « **الله** » هـو الذى أنزل الكتــاب الذى جــاء بـه موسى وهو التوراة .

واليهود يعترفون بأن الله أنزل التوراة ، ويعلنون ذلك ، والمشركون يصدقونهم فيما يقولون .

فدعـــوى أن الله سبحانه وتعالى لم ينزل علـــى بشر من شيء دعوى باطلة .

فقد ثبت باعتراف اليهود وتصديق المشركين لهم صحة إنزال الله جل ثناؤه وحيَه ووصاياه على موسى عليه السلام .

خامساً : أن الله تعالى أمر رسوله عليه الصلاة والسلام أن يترك هؤلاء فى طغيانهم وأباطيلهم يلعبون .

سادساً : ثم وضح الحق سبحانه وتعالى وبيَّن ما لهذا القرآن العظيم من أهمية عظمى ، وفائدة كبرى بقوله عز من قائل :

« **وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه** » .

أى أن هذا القرآن العظيم القدْرَ أنزله الله جل ثناؤه على رسوله صلى الله عليه وسلم ـ كما أنزل التوراة على موسى عليه السلام .

ومعنى قوله تعالى : « **مبارك** » أى كثير الخير والبركة والمنفعة .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ ‹١›

سابعاً : أن هذا القرآن الكريم أنزله الله تعالى مصدقاً لغيره من الكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام .

ثامناً : أن القرآن الكريم قد انتظم أصول الإيمان ، وفضائل الأخلاق ، والأحكام الشرعية العملية ، والمبادئ الإنسانية ، بحيث يُغنى عن غيره من الأديان والفلسفات والمذاهب ، ولا يغنى غيره عنه .

تاسعاً : أنه أعظم هداية للفرد وللأسرة وللمجتمع وللعالم كله .

وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

‹٢›

---

١ ـ سورة الإسراء : ٩ .

٢ ـ سورة الشورى : ٥٢ ، ٥٣ .

ويقول عز من قائل :

الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ‹١›

ويقول سبحانه وتعالى :

وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ‹٢›

ويقول تعالى :

أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ ‹٣›

عاشراً : أن هذا الكتاب الكريم الذى جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ليبلغه للناس جميعاً لا لقوم دون قوم ، ولا لأمة دون أمة .

حادى عشر : قال تعالى : « **ولتنذر أم القرى ومن حولها** » أى لتنذر أهل مكة ومن حولها من سائر الناس جميعاً .

وسمى الله تعالى مكة بأم القرى لأنها قبلة المسلمين جميعاً فى جميع أقطار العالم ، وأمروا أن يتجهوا إليها .

ويمكن أن يقال : إنها أصل القرى حيث فيها أول بيت وضع للناس وحيث حرمها الله يوم خلق السموات والأرض .

---

١ ـ سورة إبراهيم : ١ ، ٢ .

٢ ـ سورة النحل : ٨٩ .

٣ ـ سورة العنكبوت : ٥١ .

ثانى عشر : أن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم كما تنتظم أم القرى تنتظم كل ما حولها فى جميع الأقطار والأقاليم ، وهذا كقول الله تعالى :

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا (١)

وكقوله تعالى :

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ (٢)

ثالث عشر : ثم ختم الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى :

« والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون» .

أى أن من ينتفع بدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم هم الذين يؤمنون باليوم الآخر ، وما فيه من بعث وحساب وجزاء وجنة ونار ، وهم الذين يؤمنون بالقرآن الكريم ، ويتخذونه منهجاً لهم وأسلوباً لحياتهم .

رابع عشر : أن من صفات هؤلاء المؤمنين أنهم يحافظون على الأعمال الصالحة ، وعلى الواجبات التى كلفوا بها ، وفى طليعة هذه الواجبات الصلاة ، فهم يحافظون عليها بأدائها فى أوقاتها مستكملة شروطها وأركانها وآدابها .

خامس عشر : وإنما خص الله تعالى الصلاة بالذكر لأن الصلاة أهم ركن من أركان الإسلام بعد الإيمان بالله تعالى ، فالمحافظة عليها مظهر من مظاهر الصلاح ، ودليل على المحافظة على سائر الواجبات .

---

١ ـ سورة الفرقان : ١ .

٢ ـ سورة الأعراف : ١٥٨ .

يقول الله تعالى : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ‹١›

ويقول تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ ‹٢›

وفى الحديث الشريف :

عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة ، فإن صلحت صلح له سائر عمله ، وإن فسدت فسد له سائر عمله » ‹٣› .

---

١ ـ سورة العنكبوت : ٤٥ .

٢ ـ سورة الأعلى : ١٤ ، ١٥ .

٣ ـ ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (كتاب الصلاة ١ / ٢٩١ ، ٢٩٢) .

وقال : رواه الطبرانى في الأوسط ، وفيه القاسم بن عثمان ، قال البخارى : له أحاديث لا يتابع عليها ، وذكره ابن حبان في الثقات ، وقال : ربما أخطأ .

وذكره السيوطى في الجامع الصغير ، وعزاه للطبرانى في الأوسط ، والضياء المقدسي في المختار .

فيض القدير (٣ / ٨٧) ، رقم الحديث (٢٨١٨) .

وقد روى هذا الحديث بعدة طرق .

فقد رواه أبو داود في (كتاب الصلاة ، باب قول النبى صلي الله عليه وسلم كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه ، ١ / ٢٢٩) .

ورواه الترمذى في (أبواب الصلاة ، باب ما جاء أول ما يحاسب يوم القيامة به العبد الصلاة ، ٢ / ٢٦٩ ، ٢٧٠) . قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

وفي مقدمة : تحفة الأحوذى (١ / ٣٩٨) .

قوله : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه والحسن عند الترمذى (١ / ٤٠٤) .

١ ـ لا يكون في إسناده متهمٌ بالكذب .

٢ ـ لا يكون الحديث شاذا .   ٣ ـ يروى من غير وجه .

وقوله : غريب من هذا الوجه (١ / ٣٩٨) .

أى من هذا الإسناد كقوله : هذا حديث غريب إسنادا .

١ ـ انفرد به راو واحد .

٢ ـ انفرد بأمر لا يذكره فيه غيره . إما في متنه وإما في إسناده .

واخرجه ابن ماجه في (كتاب إقامة الصلاة والسنه فيها ، باب أول ما يحاسب به العبد الصلاة ، ١ / ٤٥٨) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله تبارك وتعالى : إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ، ولم يستطل على خلقى ، ولم يبت مصراً على معصيتى ، وقطع نهاره فى ذكرى ، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ، ورحم المصاب ، ذلك نوره كنور الشمس ، أكلؤه بعزتى ، واستحفظه ملائكتى ، أجعل له فى الظلمة نوراً وفى الجهالة حلماً ، ومثله فى خلقى كمثل الفردوس فى الجنة » (١) .

---

١ ـ رواه البزار بسنده عن ابن عباس في مسنده كما في كشف الأستار (١ / ١٧٦) .

قال البزار : لا نعلمه مرفوعاً بهذا اللفظ إلا عن ابن عباس بهذا الإسناد وعبد الله بن واقد لم يكن بالحافظ حدث عنه جماعة كثيرة من أهل العلم ، وكان حرانياً عفيفاً متفقهاً بقول أبى حنيفه ، وكان يلغط ولا يرجع إلى الصواب ، وكان قاضياً يكنى أبا قتادة .

وذكره الهيثمى في مجمع الزوائد (٢ / ١٤٧) وقال : رواه البزار وفيه عبد الله بن واقد الحرانى ، ضعفه النسائى والبخارى وإبراهيم الجوزجانى ، وابن معين في روايه ، ووثقه في رواية .

ووثقه أحمد وقال : يتحرى الصدق ، وأنكر على من تكلم به ، وأثنى عليه خيراً ، وبقية رجاله ثقات .

وذكره المناوى في الإتحافات السنية بالاحاديث القدسية (٢٦) مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثالثة ، بتحقيق محمد عفيف الذهبى .

* طلب المشركين نزول كتاب عليهم :

كان من تعنت هؤلاء المشركين مع رسوله صلى الله عليه وسلم أنهم طلبوا أن يُنَزَّل عليهم كتاب من السماء ، يدعو كل واحد منهم إلى الإيمان ، كما نَزل على الرسول صلى الله عليه وسلم فرد الله سبحانه وتعالى عليهم فقال :

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ
لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ‹١›

معانى الكلمات :

« **ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس** » : أى كتابـــاً مكتوبـــاً فى ورق كما اقترحوا .

« **فلمسوه بأيديهم** » : أى عاينوه ومسوه بأيديهم حتى تجتمع لهم إدراك الحاستين : حاسة البصر وحاسة اللمس ..

« **لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين** » : أى لقال هؤلاء الكفار : ما هذا إلا سحر ، يخيل إلينا أننا رأينا كتابنا ولمسناه ، وذلك تعنتاً وعناداً منهم ‹٢› .

المعنى الإجمالى للآية :

يبين الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة تعنت هؤلاء المشركين فى عدم إيمانهم بالله تعالى الواحد الأحد ، والتصديق برسالة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن الله سبحانه وتعالى لو استجاب لمطلبهم ومقترحهم ، وأنزل عليهم الكتاب الذى طلبوه مكتوباً فى صحيفة ، ولمسوه بأيديهم ، وأدركوه إدراكاً كاملاً ، كما يدرك الإنسان الشيء المحسوس ،

---

١ ـ سورة الأنعام : ٧ .

٢ ـ تفسير الجلالين (١٠٥) ، وانظر : فتح القدير (٢ / ١٠١) بتصرف .

ويلمسه بيده حتى لا يشك فيه ، وهذا منتهى اليقين ـ لادّعى هؤلاء الكفار ، فقالوا : ما هذا الذى رأيناه ولمسناه إلا سحر بَيِّنٌ فى نفسه ، وإنما خُيِّل إلينا أننا رأينا كتاباً ولمسناه ، وإنما قالوا ذلك تعنتاً وعناداً لعدم إيمانهم بما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم .

التوضيح للآية :

قوله تعالى : « **ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم** » .

فى هذه الآية الكريمة يوضح الحق سبحانه وتعالى ، ويبين لنا تعنت هؤلاء المشركين عندما دعوا إلى الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتصديق ما جاءهم به من عند الله تعالى ، فما كان منهم إلا أن طلبوا أن ينزل الله عليهم كتاباً مكتوباً من السماء ، يدعو كل واحد منهم للإيمان بالله الإله الواحد وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ـ نبياً ورسولاً كما نزل ذلك الكتاب عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

فرد الله عليهم هذا القول بأنه جل ثناؤه لو استجاب لمطلبهم هذا ، وأنزل عليهم ، كما طلبوا ، كتاباً مكتوباً فلمسوه بأيديهم ، وشاهدوه بأعينهم ، لما آمنوا بالله الإله الواحد ، ولا استجابوا لدعوة الإيمان والحق بل لقالوا : كما حكى الله عنهم « **إن هذا إلا سحر مبين** » أى لقالوا : ما هذا إلا سحر مبين ، يُخيل إلينا أننا رأينا أن هذا كتاب مكتوب ، وذلك تعنتاً وكفراً وعناداً منهم للحق الذى جاءهم .

قال ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية : (يقول تعالى مخبراً عن المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ، ومباهتتهم ومنازعتهم فيه : « **لو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم** » أى عاينوه ورأوا نزوله ، وباشروا ذلك « **لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين** » ، وهذا كما قال تعالى

مخبراً عن مكابرتهم للمحسوسات :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ‹١›

وكقوله تعالى :

﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ‹٢›

وذكر الطبرى فى تفسيره لهذه الآية فقال : (عن مجاهد فى قول الله تعالى ذكره : « **كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم** » .

قال : فمسوه ونظروا إليه ، لم يصدِّقوا به .

وعن قتادة يقول : فعاينوه معاينة « **لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين** » .

وعن ابن عباس يقول : لو نزلنا من السماء صُحُفاً فيها كتاب ، فلمسوه بأيديهم ، لزادهم ذلك تكذيباً .

وعن السدى : « **لو أنزلنا عليك كتاباً فى قرطاس** » الصحف .

وعن قتادة فى قوله : « **فى قرطاس** » يقول : فى صحيفة .

« **فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين**») ‹٣› .

---

١ ـ سورة الحجر : ١٤ ، ١٥ .

٢ ـ سورة الطور : ٤٤ .

وانظر : تفسير ابن كثير (٣ / ٨) .

٣ ـ جامع البيان (١١ / ٢٦٥ ، ٢٦٦) .

وقال الخازن فى تفسيره لهذه الآية : (قال الكلبى ومقاتل : نزلت فى النضر بن الحارث ، وعبد الله بن أمية <١> ونوفل بن خويلد <٢> قالوا : يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ، ومعه أربعة من الملائكة ، يشهدون عليه أنه من عند الله ، وأنك رسوله ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقوله تعالى : « **فلمسوه بأيديهم** » يعنى فعاينوه ولمسوه بأيديهم . وإنما ذكر اللمسّ ، ولم يذكر المعاينة ، لأنه أبلغ فى إيقاع العلم بالشيء من الرؤية ، لأن المرئيات قد يدخلها التخيلات كالبحر ونحوه ، بخلاف الملموس .

« **لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين** » يعنى لو أنزلنا عليهم كتاباً كما سألوه لما آمنوا به ، ولقالوا : هذا سحر مبين ، كما قالوا فى انشقاق القمر ، وأنه لا ينفع معهم شيء لما سبق فيهم من علمى بهم) <٣> .

وهذه الآية الكريمة كغيرها من الآيات التى تبين تعنتهم وعنادهم فى عدم الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وتصديق ما جاءهم به من عند الله ، كقوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ ﴿٧٦﴾ <٤>

---

١ ـ عبد الله بن أميّة بن وهب ، حليف بنى أسد بن عبد العزى بن قصى وابن أختهم ، قتل بحنين شهيداً ، ذكره الواقدي في المغازى ولم يذكره ابن إسحاق .
أسد الغابة (٣ / ١٧٨) والإصابة (٢ / ٢٧٨) والمغازى للواقدى (٧٣٧) .

٢ ـ نوفل بن خويلد بن أسد القرشى ، من أشد قريش شجاعة وأذى للمسلمين في الجاهلية ، كان يدعى « أسد قريش » وهو الذى قرن أبا بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله ، حين أسلما في حبل ، فكانا يسميّان « القرينين » لذلك . شهد الوقائع مع قريش ، وقتل يوم بدر ، قتله على بن أبى طالب .
طبقات ابن سعد (٣ / ١٥٣) ونسب قريش (٢٢٩) وجمهرة الأنساب (١١١) والأعلام (٨ / ٥٤) .

٣ ـ تفسير الخازن (٢ / ٩٨) .

٤ ـ سورة يونس : ٧٦ .

وقوله عز من قائل : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ ‹١›

وقوله تعالى :

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ‹٢›

وقال عز من قائل :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ ﴾ ‹٣›

وقد شبه الحق سبحانه وتعالى هؤلاء المعرضين بالحمر الفارة من الأسود المهاجمة لها ، فقال عز من قائل :

﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ ﴾ ‹٤›

---

١ ــ سورة سبأ : ٤٣ .

٢ ــ سورة الزخرف : ٢٩ ــ ٣٢ .

٣ ــ سورة الأحقاف : ٧ ، ٨ .

٤ ــ سورة المدثر : ٥٠ ، ٥١ .

وقوله « قسورة » : « أسد » أى هربت منه أشد الهرب (الجلالين ، ٤٩٢) .

* اقتراح المشركين أن يكون مع الرسول صلى الله عليه وسلم ملك يدعوهم إلى الإيمان به وتصديقه :

كما أن المشركين اقترحوا أن يكون مع الرسول صلى الله عليه وسلم ملكٌ يدعوهم إلى الإيمان به ، وتصديقه صلى الله عليه وسلم ، فذكر الحق سبحانه وتعالى ذلك عنهم مع الرد عليهم فى ذلك :

فقال عز من قائل :

وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ‹١›

معانى الكلمات :

« **لولا أنزل عليه ملك** » أى هلا أنزل عليه صلى الله عليه وسلم ملك يصدقه .

« **ولو أنزلنا ملكاً** » : أى ولو أنزلنا ملكاً كما اقترحوا فلم يؤمنوا .

« **لقضى الأمر ثم لا ينظرون** »:أى بهلاكهم ، فلا يُمهلون لتوبة أو معذرة ، كسنة الله فيمن قبلهم من إهلاكهم عند وجود مقترحهم إذا لم يؤمنوا .

« **ولو جعلناه ملكاً** » : أى لو جعلنا الرسول إليهم ملكاً .

« **لجعلناه رجلاً** » : أى ملكاً فى صورة رجل . لأنه لا يصلح أن يخاطبهم بالرسالة ويرشدهم بصورته الحقيقية ، إذ لا قوة للبشر على رؤية الملك فى صورته الحقيقية ‹٢› .

---

١ ـ سورة الأنعام : ٨ ، ٩ .

٢ ـ انظر : تفسير الجلالين (١٠٧) وكذلك تفسير النسفى (٢ / ٤) .

« **وللبسنا عليهم ما يلبسون** » : أى ولخلطنا وأشكلنا عليهم من أمره ، إذ كان سبيله كسبيلك يا محمد ، فإنهم يقولون إذا رأوا الملك فى صورة الإنسان : هذا إنسان وليس بملك (١) .

المعنى الإجمالى للآيتين :

فى هاتين الآيتين الكريمتين يبين الحق سبحانه وتعالى بعض مقترحات هؤلاء المشركين من أجل الإيمان والتصديق برسوله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من الحق .

فهؤلاء حين اقترحوا أن ينزل ملك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى التصديق وصِدْقِ ما جاءهم به من عند الله تعالى .

رد الله عليهم ذلك **بجوابين** :

الجواب الأول : أن الله لو حقق لهم ما اقترحوه ثم لم يؤمنوا لنزل بهم عذاب الاستئصال .

الجواب الثانى : لو فرض أن الله تعالى أرسل ملكاً لما آمنوا ، لأنه لا يمكن أن يتلقوا الوحى عن الملك وهو فى صورته الحقيقية ، ولو جاءهم فى صورة رجل لالتبس عليهم الأمر .

التوضيح للآيتين :

يبين الله تعالى فى هاتين الآيتين مقترحات المشركين والرد عليهم :

فقد اقترحوا أن ينزل الله سبحانه وتعالى ملكاً يشهد أن محمداً رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى يصدقوه ويؤمنوا به .

---

١ ـ تفسير النسفى (٢ / ٤) .

فرد الله تعالى عليهم بأمرين :

الأمر الأول : أنه لم تجر سنة الله بإنزال ملائكة يشهدون للرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ويدعون الناس إلى تصديقهم .

وإنما يؤيدهم الله بالمعجزات وخوارق العادات التى يجريها على أيديهم .

ولو حدث أن الله استجاب لهم ، وأنزل ملكاً يؤيد الرسول صلى الله عليه وسلم كما اقترحوا ، ثم لم يؤمنوا ، لأنزل الله بهم العذاب دون إمهال .

والله سبحانه وتعالى لم يكن فى تقديره أن يعجل استئصال هؤلاء المتعنتين الكفرة من هذه الأمة ، والقضاء عليهم نهائياً .

كما قال تعالى :

مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ‹١›

وكما قال تعالى :

يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ ‹٢›

قال الخازن فى تفسيره لقوله :

« **ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون** » .

(يعنى لفرغ الأمر ، ولوجب العذاب ، وهذه سنة الله فى الكفار ، أنهم متى اقترحوا آية ثم لم يؤمنوا استوجبوا التعذيب واستؤصلوا به .

« **ثم لا ينظرون** » : يعنى أنهم لا يمهلون ولا يؤخرون طرفة عين بل يعجل لهم العذاب) ‹٣› .

---

١ ـ سورة الحجر : ٨ .

٢ ـ سورة الفرقان : ٢٢ . وقوله : « حجراً محجوراً » : أى عوذاً معاذاً ، يستعينون من الملائكة كعادتهم في الدنيا عندما تنزل بهم شدة (تفسير الجلالين ، ٣٠٢) .

٣ ـ تفسير الخازن (٢ / ٩٩) .

الأمر الثانى : ولو استجاب الله سبحانه وتعالى لطلبهم واقتراحهم ، وأرسل ملكاً ، فإما أن يرسله الحق سبحانه وتعالى على صورته الحقيقية ، وهم فى هذه الحال لا يستطيعون أن يأخذوا منه التكليف والتبليغ وذلك لاختلاف الطبيعة البشرية مع الملائكية .

وإما أن يأتى الملك على صورة رجل ، وحينئذ فسوف يحصل الالتباس ويقولون : إنه ليس ملكاً بل هو رجل مثلنا .

إذاً فالاقتراح مرفوض .

ويقول الطبرى فى تفسيره لهذه الآية :

« ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

(يقول تعالـــى ذكره : ولو جعلنا رسولنا إلى هؤلاء العادلين بى ، القائلين : لولا أنزل على محمد ملك بتصديقه ـ ملَكاً ينزل عليهم من السماء ، يشهد بتصديق محمد صلى الله عليه وسلم ـ ويأمرهم باتباعه ـ « **لجعلناه رجلاً** » يقول : لجعلناه فى صورة رجل من البشر ، لأنهم لا يقدرون أن يروا الملك فى صورته .

يقول : وإذا كان ذلك كذلك ، فسواء أنزلت عليهم بذلك ملكاً أو بشراً ، إذ كنت إذا أنزلت عليهم ملكاً إنما أنزله بصورة إنسيّ ، وحُجَجِى في كلتا الحالتين عليهم ثابتة : بأنك صادق ، وأن ما جئتهم به حق .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال بعض أهل التأويل :

فعن ابن عباس : « ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً » يقول :

ما أتاهم إلا فى صورة رجل ، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة .

وعن مجاهد : فى صورة رجل ، في خَلق رجل .

وعن قتادة يقول : فى صورة آدمى .

وقال ابن زيد : لجعلنا ذلك الملك فى صورة رجل ، لم نرسله فى صورة الملائكة .

يعنى تعالى ذكره بقوله : « **وللبسنا عليهم** » : ولو أنزلنا ملكاً من السماء مصدقاً لك يا محمد ، شاهداً لك عند هؤلاء العادلين بى ، الجاحدين آياتك على حقيقة نبوتك ، فجعلناه فى صورة رجل من بنى آدم ، إذ كانوا لا يطيقون رؤية الملك بصورته التى خلقتهُ عليها ـ التبس عليهم أمره ، فلم يدروا أملك هو أم إنسيّ !! فلم يوقنوا به أنه ملك ، ولم يصدّقوا به ، وقالوا : ليس هذا ملكاً ، وللبسنا عليهم ما يلبسونه على أنفسهم من حقيقة أمرك ، وصحة برهانك وشاهدك على نبوّتك .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

فعن ابن عباس قوله : « **وللبسنا عليهم ما يلبسون** » يقول :لشبّهنا عليهم .

وعن قتادة : « **وللبسنا عليهم ما يلبسون** » يقول : ما لبّس قوم على أنفسهم إلا لَبّس الله عليهم . واللّبْس إنما هو من الناس .

وعن السدى يقول : شبّهنا عليهم ما يشبّهون على أنفسهم) ‹١› .

وقال ابن كثير أيضاً : (أى ولو أنزلنا مع الرسول البشرى ملكاً ، أى لو بعثنا إلى البشر رسولاً ملكياً ، لكان على هيئة الرجل ، ليمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه ، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر ، كما هم يلبسون على أنفسهم فى قبول رسالة البشريّ .

كقوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ ‹٢›

---

١ ـ جامع البيان (١١ / ٢٦٨ ـ ٢٧٠) .

٢ ـ سورة الإسراء : ٩٥ .

فمن رحمته تعالى بخلقه ، أنه يرسل إلى كل صنف من الإنس والجن رسلاً منهم ، ليدعوا بعضهم بعضاً ، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض ، في المخاطبة والسؤال ، كما قال تعالى :

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ
يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿١٦٤﴾
(١)

---

١ ـ سورة آل عمران : ١٦٤ .

وانظر : تفسير ابن كثير (٢ / ٩) .

* طلب المشركين أن يكون للنبى صلى الله عليه وسلم معجزة حسية كمعجزات الأنبياء السابقين :

وذلك ما ذكره الحق سبحانه وتعالى فى قوله :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٧) ‹١›

معانى الكلمات :

« **وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه** » : أى قال رؤساء كفار قريش : هلا نزل عليه آية كما اقترحوه ، كالملك ليشهد لمحمد بالنبوة ، والآية المعجزة الباهرة مثل معجزات الأنبياء والرسل السابقين .

« **قل إن الله قادر على أن ينزل آية** » : أى « قل » يا محمد لهم : إنه تعالى قادر على إيجاد ما طلبوه وإنزال ما اقترحوه من الآيات والمعجزات الباهرات .

« **ولكن أكثرهم لا يعلمون** » : يعنى ماذا عليهم فى إنزالها من العذاب إن لم يؤمنوا بها وجحدوها ‹٢› .

المعنى الإجمالى لهذه الآية :

فى هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى لهؤلاء المتعنتين فى مقترحاتهم الذين طلبوا أن تنزل عليهم معجزة من الله حتى يؤمنوا ويصدقوا برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم .

يبين لهم أنه تعالى قادر على إنزال هذه الآيات الواضحات ، والبراهين الساطعات ، على رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما أنزلها على غيره من الرسل السابقين عليهم الصلاة والسلام .

---

١ ـ سورة الأنعام : ٣٧ .

٢ ـ تفسير الخازن (٢ / ١٠٨) ، وانظر : تفسير الجلالين (١٠٨) .

ولكن هؤلاء يجهلون حقيقة عاقبة إنزال الآيات عليهم إذا أُنزلت ولم يؤمنوا بها ، ماذا يحل بهم .

فهم بذلك سوف يعرضون أنفسهم لعذاب الله ، كما جرت بذلك سنة الله فى الأمم السالفة ، عند نزول الآيات التى يقترحونها وإذا لم يؤمنوا بها فسوف ينالهم الهلاك والعذاب .

التوضيح للآية :

ومن تعنت هؤلاء المشركين أنهم طلبوا أن يأتيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بآيات حسية ، كالآيات التى أيد الله تعالى بها الرسل السابقين ، كعصا موسى ، وناقة صالح ، وغيرها من المعجزات التى أجراها الله تعالى على أيدى الرسل لتكون دليلاً على صدق الرسل ، وباعثا على تصديق الناس لهم .

ومما طلبوه من هذه الآيات ما ذكره الحق سبحانه وتعالى فى قوله عز من قائل :

وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ
ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ
فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا
زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾
أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ
لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ
كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ
ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾

‹١›

١ ـ سورة الأسراء : ٩٠ ـ ٩٤ .

ومعنى قوله « كسفاً » : أى قطعاً .

وقوله : « قبيلاً » أى مقابلة وعياناً فنراهم (تفسير الجلالين : ٢٤١) .

فهؤلاء المشركون طلبوا أن تنزل عليهم معجـزة حسية لكي يؤمـنوا ويصدقوا بما جاءهم به الرسول ـ صلى الله عليه وسلـم ـ فأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يجيبهم بقوله تعالى :

« **قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون** » .

فالحق سبحانه وتعالى قادر على ذلك لا يعجزه شيء ، ولكن الحكمة تقتضي تأخير ذلك ، لأنه لو أنزل ما طلبوه ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأمم السابقة .

وكما قال عز من قائل :

وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ
وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ
إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ‹١›

قال الخازن في تفسيره لقوله : « **قل إن الله قادر على أن ينزل آية** » (يعني أنه تعالى قادر على إيجاد ما طلبوه ، وإنزال ما اقترحوه من الآيات والمعجزات الباهرات .

« **ولكن أكثرهم لا يعلمون** » يعني ماذا عليهم في إنزالها من العذاب إن لم يؤمنوا بها .

وقيل معناه : أنهم لا يعلمون أن الله قادر على إنزال الآيات .

وقيل : إنهم لا يعلمون وجه المصلحة في إنزالها) ‹٢› .

ويمكن الجمع بين هذه الأقوال بأنهم لا يعلمون ماذا عليهم في إنزالها من العذاب إن لم يؤمنوا بها ، وأنهم لا يعلمون أن الله قادر على إنزال الآيات ، وأنهم لا يعلمون وجه المصلحة في إنزالها . والله تعالى أعلم .

---

١ ـ سورة الإسراء : ٥٩ .

٢ ـ تفسير الخازن (٢ / ١٠٨) .

* عدم انتفاع المشركين بالآيات التى طلبوها لو نزلت عليهم :

لقد أقسم المشركون بالله أنهم لو جاءتهم آية ليؤمنن بها ، ولكنهم لم يكونوا صادقين فى هذا الذى زعموه ، وإن الآية لو جاءت لاستمروا على تكذيبهم وكفرهم .

يقول الحق سبحانه وتعالى فى ذلك :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ
لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا
جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ
يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)
۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا
عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) ﴾ (١)

معانى الكلمات :

« **وأقسموا بالله جهد إيمانهم** » : أى حلفوا بالله أعظم الأيمان .

« **لئن جاءتهم آية** » : أى معجزة وهى الأمر الخارق للعادة .

« **ليؤمنن بها** » : أى ليصدقن بها .

« **وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون** » : أى وما يعلمكم أنها إذا جاءتهم المعجزة لا يصدقون بها ولا يؤمنون .

« **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم** » : أى نحول قلوبهم وأبصارهم عن الحق ، فلا يفهمونه ولا يبصرونه .

---

١ ـ سورة الأنعام : ١٠٩ ـ ١١١ .

« **ونذرهم فى طغيانهم يعمهون** » : أى نتركهم فى ضلالهم يترددون متحيرين .

« **ولو أننا نزّلنا إليهم الملائكة** » : أى أنزل الله تعالى عليهم الملائكة كما طلبوا .

« **وكلمهم الموتى** » : أى أخبرهم الموتى بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم .

« **وحشرنا عليهم كل شيء قبلا** » : أى وجمع الله جميع الأمم جماعات لتخبرهم بذلك .

« **ما كانوا ليؤمنوا** » : أى لم يؤمنوا ولم يصدقوا بذلك ، لعدم قبولهم هداية الله تعالى .

« **إلا أن يشاء الله** » : أى إلا من أراد الله له الهداية ، وكان لديه استعداد لقبولها .

« **ولكن أكثرهم يجهلون** » : أى لا يعلمون هذه الحقيقة فى أن الله يوفق من لديه استعداد للهداية والتوفيق (١) .

المعنى الإجمالى للآيات :

يبين الله تعالى لنا فى هذه الآيات الكريمة أحوال المشركين فى تعنتهم للحق الذى جاءهم به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عند ربّ العزة والجلال ، وعدم قبولهم له .

فهؤلاء حلفوا بالله وأقسموا أيماناً مؤكدة : لئن جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأمر خارق للعادة ليصدقُنَّ برسالته عليه الصلاة والسلام وليؤمنن بها .

---

١ ـ تفسير الجلالين (١١٦) وكذلك انظر : تفسير النسفى (٢ / ٢٨ ، ٢٩) بتصرف .

فأمره الله تعالى أن يبين لهم أن أمر هذه المعجزات لله جل ثناؤه وحده ، وذلك لعلمه سبحانه وتعالى بأن سؤالهم وطلبهم هذا ليس على سبيل الإيمان والهداية والتصديق ، وإنما على سبيل التعنت والكفر والعناد .

وأعلمه تعالى أن هذه المعجزات إذا جاءتهم لا يؤمنون بها ولا يصدقونها .

فالله سبحانه وتعالى عالم بأحوالهم ، فحال بينهم وبين الإيمان ، وذلك لعدم استعدادهم لقبول الإيمان والهداية حتى ولو جاءتهم هذه المعجزات ، فهم لم يؤمنوا بها أول مرة عندما جاءتهم .

ثم أمر الله بأن يتركهم فى ضلالهم وأباطيلهم وطغيانهم يترددون .

ثم بين الحق سبحانه وتعالى أنه لو استجاب لطلبهم هذا فأنزل عليهم الملائكة ـ تكلمهم بصدق رسالته ـ صلى الله عليه وسلم كما طلبوا ، وكلمهم الموتى وأخبروهم بصدق ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجمع الله لهم جميع الأمم جماعات لتخبرهم بذلك ، فهم لم يؤمنوا وذلك لعدم قبولهم هداية الله ، لأن الحق سبحانه وتعالى يهدى من يكون لديه قبول لذلك ، بعد إرسال الرسل عليهم السلام ، وإنزال الكتب وإجراء المعجزات على أيديهم ، لتدلهم على صدق ما جاءهم به من عند الله تعالى .

فهو سبحانه وتعالى عالم ومطلع على أحوالهم وعدم استعدادهم لقبول الهداية والإيمان ، وله جل ثناؤه الحكمة العظيمة فى ذلك .

التوضيح للآيات :

فى هذه الآيات مزيد من بيان تعنت هؤلاء المشركين ، وعدم استجابتهم للإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه و سلم ، وصدق ما جاءهم به من عند الله الواحد الأحد ، وتصديقه عليه الصلاة والسلام فى ذلك .

فقوله تعالى:«**وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها**» معناه أن هؤلاء المشركين المتعنتين حلفوا بالله أيماناً مؤكدة : لئن جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم بمعجزة حسية ، وهى الأمر الخارق للعادة ، فإنهم يؤمنون به ويصدقونه .

وقد ورد فى سبب نزول هذه الآية الكريمة :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :قالت قريش للنبى صلى الله عليه وسلم : ادع الله ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك . قال :« أو تفعلون ؟» قالوا : نعم ، « فدعا الله ، فأتاه جبريل فقال : إن ربك يقرىء عليك السلام ويقول : إن شئتَ أصبح لهم الصفا ذهباً ، فمن كفر منهم عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإشئت فتحت لهم باب التوبة والرحَمة » . قال : « يارب ، باب التوبة والرحمة » ‹١› .

ثم أخبر الله تعالى بعد ذلك بأن مرجع أمر هذه الآيات إلى الله جل ثناؤه وحده ، فقال عز من قائل :

« **قل إنما الآيات عند الله** » أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين المتعنتين الذين يسألونك المعجزات الحسية تعنتاً وكفراً وعناداً ، لا على سبيل الهدى والاسترشاد : إنما مرجعها إلى الله وحده ، فإن شاء جل ثناؤه جاءكم بها ، وإن شاء ترككم .

ثم أتبع الله تعالى ذلك بقوله « **وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون** » أى وما يدريكم أن هذه الآيات إذا جاءتهم لعلهم لا يؤمنون .

---

١ ـ المستدرك على الصحيحين (كتاب التفسير ، تفسير سورة الأنعام ، سؤال قريش إن يجعل لهم الصفا ذهباً ، ٢ / ٣١٤) .

وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى ، وقال : صحيح . وكذلك انظر : تفسير الطبرى (١٢ / ٣٨ ، ٣٩) .

قال الطبرى مرجحاً أحد معانى الآية : (وإنما معنى الكلام : وما يدريكم أيها المؤمنون لعل الآيات إذا جاءت هؤلاء المشركين لا يؤمنون ، فيعاجَلون بالنقمة والعذاب عند ذلك ، ولا يُؤَخَّرون به) <١> .

ثم بين جل ثناؤه حالهم فى عدم الإيمان والاستجابة له ، فقال تعالى : « **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون** » .

فهؤلاء المشركون المتعنتو ن جحدوا ما أنزل الله من الحق والهدى ، ولم تثبت قلوبهم على شيء ، وردت كل قول ، وتحولت عن كل أمر ، فلم يؤمنوا ولم يستجيبوا لذلك ، حتى ولو جاءتهم كل الآيات التى طلبوها واقترحوها .

قال ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية : (قال العَوْفىٌ عن ابن عباس فى هذه الآية : لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء ، ورُدَّت عن كل أمر . وقال مجاهد فى قوله : « **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم** » : ونحول بينهم وبين الإيمان ، ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنوا ، كما حُلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة ، وكذا قال عكرمة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم <٢> ،

---

١ ـ تفسير الطبرى (١٢ / ٤٣) .

٢ ـ عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العُمَرى المدنى ، كان صاحب قرآن وتفسير ، جمع تفسيراً في مجلد ، وكتابا في الناسخ والمنسوخ . وحدث عن أبيه وابن المنكدر ، توفى سنة (١٨٢ هـ) .
التاريخ الكبير (٥ / ١٨٤) والضعفاء للعقيلى (٢ / ٢٣١) والجرح والتعديل (٥ / ٢٣٣) والمجروحين (٢ / ٥٧) وميزان الإعتدال (٢ / ٥٦٥) وسير أعلام النبلاء (٨ / ٣٤٩) والعبر (١ / ٢٨٢) والشذرات (١ / ٢٩٧) .

وقال : ابن أبى طلحة <١> عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : إنه قال : أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوه ، وعملهم قبل أن يعملوه ، وقال : « وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » <٢> جل وعلا .

قال تعالى : أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ <٣>

فأخبر الله سبحانه وتعالى أنهم لو ردوا لم يكونوا على الهدى .

وقال تعالى :

بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ <٤>

وقال تعالى:« ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة » .

وقال : ولو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى ، كما حُلنا بينهم وبينه أول مرة وهم فى الدنيا) <٥> .

---

١ ـ ابن أبى طلحة : هو على بن أبى طلحة ، مولى ابن العباس ، سكن حمص ، وأرسل عن ابن عباس ولم يره ، وإنما أخذ التفسير عن مجاهد وعكرمة، وهذا القول لا يوجب طعناً ، لأنه أخذه عن رجلين ثقتين ، وهو في نفسه ثقة صدوق ، ولذا قال ابن حجر :« بعد أن عرفت الواسطة وهو ثقة فلا ضير في ذلك » .
ونقل أبو جعفر النحاس بسنده عن الأمام أحمد قال :بمصر صحيفة تفسير، رواها على بن أبى طلحة ، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً .
وذكر حاجى خليفة أن طريقة على بن أبى طلحة الهاشمى هى أحسن الطرق عن ابن عباس ، ولذلك اعتمد عليها البخارى في صحيحه .
الميزان (٣ / ١٤٣) والتهذيب (٧ / ٣٣٩) والتقريب (٢ / ٣٩) والمراسيل (١١٨) والناسخ والمنسوخ للنحاس (١٢ / ١٣) والإتقان للسيوطى (٢ / ٢٤١) وكشف الظنون (١ / ٤٢٩) .

٢ ـ سورة فاطر : ١٤ .

٣ ـ سورة الزمر : ٥٦ ـ ٥٨ .

٤ ـ سورة الأنعام : ٢٨ .

٥ ـ تفسير ابن كثير (٣ / ٤١) ، وانظر : تفسير الطبرى (١٢ / ٤٤ ، ٤٥) .

وقال الخازن أيضاً في تفسيره : (قال ابن عباس : يعني نحول بينهم وبين الإيمان ، فلو جئناهم بالآيات التى سألوها لما آمنوا بها .

والتقليب هو : تحويل الشيء وتحريكه عن وجهه إلى وجه آخر ، لأن الله إذا صرف القلوب والأبصار عن الإيمان بقيت على الكفر « **كما لم يؤمنوا به أول مرة** » يعنى كما لم يؤمنوا بما قبل ذلك من الآيات التى جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثل إنشقاق القمر ، وغير ذلك من المعجزات الباهرات .

وقيل : « **أول مرة** » يعنى الآيات التى جاء بها موسى وغيره من الأنبياء ، وقال ابن عباس : المرة الأولى دار الدنيا ، يعنى لو ردوا من الآخرة إلى الدنيا نقلب أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان ، فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا به أول مرة قبل مماتهم .

وفى الآية دليل على أن الله تعالى يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وأن القلوب والأبصار بيده وفى تصرفه ، فيقيم ما يشاء منها ، ويزيغ ما أراد منها .

ففى الحديث الشريف الذى أخرجه الترمذى ، عن أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول : « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » فقلت : يا نبيّ الله ، آمنّا بك وبما جئت به ، فهل تخاف علينا ؟ قال : « نعم ، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يُقلبها كيف يشاء » (١) .

---

١ ـ الجامع الصحيح (أبواب القدر ، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعى الرحمن ، ٣ / ٣٠٤) .
وقال الترمذى : هذا حديث حسن .
وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣ / ١١٢ ، ٢٥٧) .
وقال أحمد شاكر إسناده صحيح المسند ٩ / ١٠ رقم ٦٥٦٩ .
وأخرجه مسلم في (كتاب القدر ، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء من رواية عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن قلوب بنى آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » ، ٤ / ٢٠٤٥) .

فمعنى قوله : « **ونقلب أفئدتهم** » نزيغها عن الإيمان ، ونقلب «أبصارهم» عن رؤية الحق ومعرفة الصواب ، وإن جاءتهم الآية التى سألوها فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا بالله ورسوله وبما جاء من عند الله ، فعلى هذا تكون الكناية فى « به » عائدة على الإيمان بالقرآن وبما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم قبل سؤالهم الآيات التى اقترحوها .

وقوله تعالى : « **ونذرهم فى طغيانهم يعمهون** » يعنى ونترك هؤلاء المشركين ، الذين سبق فى علم الله أنهم لا يؤمنون ، فى تمردهم على الله واعتدائهم عليه ، يترددون لا يهتدون إلى الحق) ‹١› .

وقال المراغى : (**تقليب الأفئدة والأبصار** :الطَّبْع والخَتْم عليها ، أى وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم عن إدراك الحق فلا يدركونه ، وأبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه ، لكمال نبوِّها عنه ، وتمام إعراضهم عن درك حقيقته ، وتكون حالهم حينئذ كحالهم الأولى فى عدم إيمانهم بما جاءهم أول مرة من الآيات .

ونظير الآية قوله :

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ‹٢›

ومن لم يقنعه ما جاء به القرآن من الدلائل العقلية ، والبراهين العلمية ، لا يقنعه ما يراه بعينيه من الآيات الحسية ، فله أن يدعى أن عينيه قد خُدِعتا أو أصيبتا بآفة ، فهما لا تريان إلا صوراً خيالية ، إو سحراً مُفترى ، وهذه سنة الأولين فى مكابرة آيات الرسل .

---

١ ـ تفسير الخازن (٢ / ١٤٢) .

٢ ـ سورة الحجر : ١٤ ، ١٥ .

« **ونذرهم فى طغيانهم يعمهون** » العَمَه : التردُّد فى الأمر من الحيرة فيه ، والطغيان : تجاوز الحد ، أى إنا ندعهم يتجاوزون الحد فى الكفر والعصيان ، ويترددون متحيِّرين فيما سمعوا ورأوا من الآيات ، محدِّثين أنفسهم : أهذا هو الحق المبين أم السحر الذى يخدع عيون الناظرين ؟ وهل الأرجح اتباع الحق بعد ما تبين ، أو المكابرة والجدل كِبراً وأنفة من الخضوع لمن يرونه دونهم .

وإنما أسنده الخالق إلى نفسه لبيان سننه الحكيمة فى ربط المسببات بأسبابها ، فرسوخهم فى الطغيان الذى هو غاية الكفر ، والعصيان هو سبب تقليب القلوب والأبصار ، أى الختم عليها فلا تفقه ولا تبصر) <١> .

ثم بين الحق سبحانه وتعالى حقيقة هــؤلاء المشركين المتعنتين .

فقال تعالى : « **ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ، وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قُبُلا ما كانوا ليؤمنوا إلا ان يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون** » .

أى لو أجاب الله تعالى مطلبهم ومقترحاتهم فإنهم لن يؤمنوا ، وذلك لعدم قبولهم الهداية والإيمان ، وأن الله يهدى من يكون لديه استعدادٌ وقبول لذلك .

فهو سبحانه وتعالى عالم ومطلع على أحوالهم ، وله الحكمة العظيمة فى ذلك .

قال ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية : (يقول تعالى : ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أقسموا بالله جهدَ أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، فنزلنا عليهم الملائكة تخبرهم بالرسالة من عند الله بتصديق الرسل ، كما سألوا فقالوا :

أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ <٢>

و

قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ <٣>

---

١ ـ تفسير المراغى (٧ / ٢١٦ ، ٢١٧) .

٢ ـ سورة الإسراء : ٩٢ .

٣ ـ سورة الأنعام : ١٢٤ .

و

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ ‹١›

« **وكلمهم الموتى** » أى فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل .

« **وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً** » قرأ بعضهم : « **قِبَلاً** » بكسر القاف وفتح الباء ، من المقابلة والمعاينة ، وقرأ آخرون:« قُبُلاً » بضمهما . قيل معناه : من المقابلة والمعاينة أيضاً ، كما رواه على بن أبى طلحة ، والعوفى ، عن ابن عباس ، وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقال مجاهد : « قُبُلاً » أى أفواجاً ، قبيلاً قبيلاً ، أى تعرض عليهم كل أمة بعد أمة ، فيخبرونهم بصدق الرسل فيما جاءوهم به .

« **ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله** » أى إن الهداية إليه لا إليهم ، بل يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وهو الفعال لما يريد .

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ‹٢›

لعلمه وحكمته وسلطانه وقهره وغلبته .

وهذه الآية كقوله تعالى :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ ‹٣›

---

١ ـ سورة الفرقان : ٢١ .

٢ ـ سورة الأنبياء : ٢٣ .

٣ ـ سورة يونس : ٩٦ ، ٩٧ ، انظر : تفسير ابن كثير (٢ / ٨٢ ، ٨٣) ، وانظر : تفسير الطبرى (١٢ / ٤٦ ـ ٥٠) ، وتفسير الخازن (٢ / ١٤٢ ، ١٤٣) .

وقال المراغى فى تفسيره لقوله : « **ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله** » .

(والخلاصة : أن فقد هؤلاء للاستعداد للإيمان ، جار بحسب مشيئته تعالى ككل ما يجرى فى الوجود ، ولو شاء غير ذلك لكان ، ولكنه لا يشاء لأنه تغيير لسنته وتبديل لطباع الإنسان .

« **ولكن أكثرهم يجهلون** » أى ولكن أكثر المؤمنين يجهلون عدم إيمانهم عند مجيء الآيات ، لجهلهم سنة الله تعالى فى عباده ، وانطباقها على الأفراد والجماعات ، لذلك يتمنى بعض المؤمنين لو يؤتى مُقْترحو الآيات ما اقترحوا ، ظناً منهم أن ذلك يكون سبب إيمانهم ، مع أن الآيات لا تُلزمهم الايمان ولا تغيِّر طباع البشر فى اختيار ما يترجح لدى كل منهم بحسب ما يؤديه إليه فكره وعقله ، ولو شاء الله لخلق الإيمان فى قلوبهم خلقاً بحيث لا يكون لهم فيه عمل ولا اختيار ، وحينئذ لا يكونون محتاجين إلى الرسل ، كما أنه لو شاء جعل الآيات مغيرة لطبائع البشر ، وملزمة لهم أن يؤمنوا فيكون الإيمان إلجاء وقَسْراً ،لا اختياراً وكسباً ، ولكنه لم يشأ ذلك بدليل قوله تعالى :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ
مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ
ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٥٦) <١>

---

١ ـ سورة البقرة : ٢٥٦ ، وانظر : تفسير المراغى (٨ / ٥) .

وجاء في تفسيري المراغي : أن ابن عباس قال :المستهزئون بالقرآن خمسة الوليد بن المغيرة المخزومى ، والعاصى بن وائل السهمى ، والأسود بن يغوث الزهرى ، والأسود بن عبد المطلب ، والحارث بن حنظلة ، أتوا النبى صلى الله عليه وسلم في رهط من أهل مكة وقالوا :أرنا الملائكة يشهدون بأنك رسول الله ، أو أبعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم (أحق ما تقول أم باطل ؟) أو أئتنا بالله والملائكة ، قبيلاً ، فنزلت الآية (انظر تفسير المراغى ، ٨ / ٥ ، ٦) .

* طلب المشركين أن ينزل عليهم الوحي كما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم والرد عليهم :

وذلك قول الحق سبحانه وتعالى ورده عليهم حيث قالوا كما حكت الآية الكريمة : ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ ‹١›

معاني الكلمات :

« **وإذا جاءتهم آية** » : أي إذا جاء أهل مكة « آية » تدل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم .

« **قالوا لن نؤمن** » : أي لن نصدق به .

« **حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله** » : من الرسالة والوحي إلينا لأنا أكثر مالا وأكبر سناً .

« **الله أعلم حيث يجعل رسالته** » : أي يعلم الموضع الصالح للرسالة فيضعها فيه ، وهؤلاء ليسوا أهلاً لها .

« **سيصيب الذين أجرموا** » : أي الكفار .

« **صغار عند الله** » : أي ذلة وهوان .

« **وعذاب شديد بما كانوا يمكرون** » : أي بسبب كفرهم ومكرهم وإفسادهم .

والمكر : هو التلطف في حيلة وخفاء وخديعة ‹٢› .

---

١ ـ سورة الأنعام : ١٢٤ .

٢ ـ انظر : تفسير الجلالين (١١٨) ، وتفسير ابن كثير (٢ / ٩٦ ، ٩٧) .

المعنى الإجمالى للآية :

يبين الله تعالى فى هذه الآية الكريمة تعنتاً آخر من تعنت هؤلاء المشركين فى اعتراضهم على رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعدم تصديقه صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : لن نؤمن حتى ينزل علينا الوحى مثل ما نزل على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وعلى غيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام .

فرد الله عليهم بما يفيد أن رسالة الله سبحانه وتعالى لا يحملها ، ولا يقوى عليها ، ولا يستحقها إلا من كان أهلاً لها من الناحية الروحية ، والناحية العقلية ، والناحية النفسية ، والناحية الجسدية ، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد أعدَّه الله لحمل الرسالة حيث توفر له الكمال فى كل ناحية من هذه النواحى ، بينما هم لم تتوفر لهم هذه المزايا . ثم إن الحق سبحانه وتعالى هددهم بما سوف ينالهم وينزل بهم من العذاب الأليم والذل والهوان بسبب مكرهم هذا وكفرهم .

التوضيح للآية :

يبين الله تعالى فى هذه الآية أن هؤلاء المشركين إذا جاءتهم آية أو معجزة تدل على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ـ قالوا : « **لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله** » من الآيات والمعجزات ، كما أوتى موسى وعيسى وغيرهما ممن أيدهم الله بمعجزاته .

فرد جل ثناؤه على هؤلاء المشركين بأن آيات الله إنما يؤتيها جل شأنه للرسل المؤهلين لحمل الرسالة إلى البشر ، وهؤلاء المشركون ليسوا أهلاً لحمل هذه الرسالة من النواحى النفسية أو العقلية أو الروحية وغيرها ، مما يُعتبر كمالاً للإنسان .

فالله تعالى رد عليهم بأنه عالم بمن هو أهلٌ لحمل هذه الرسالة ، وأنهم ليسوا مثل رسول الله صلى الله عليه وسلـــم ، مؤهلين لحملها ، ولا مثل الرسل عليهم الصلاة والسلام .

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية : (أى إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعـــة ، قالــوا : « **لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله** » أى حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة ، كما تأتى إلى الرسل .

كقوله جل وعلا :

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ‹١›

وقوله تعالى : « **الله أعلم حيث يجعل رسالته** » أى هو أعلم حيث يضع رسالته ، ومن يصلح لها من خلقه .

كقوله تعالى :

وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ
يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم
بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾
‹٢›

---

١ ـ سورة الفرقان : ٢١ .

٢ ـ سورة الزخرف : ٣١ ، ٣٢ .

يعنون : لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير جليل مُبَجَّل في أعينهم « **من القريتين** » أى من مكة والطائف ، وذلك أنهم ، قبحهم الله ، كانوا يزدرون بالرسول صلوات الله وسلامه عليه بغياً وحسداً وعناداً واستكباراً .

كقوله تعالى مخبراً عنه : وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ ‹١›

وقال تعالى :

وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ ‹٢›

وقال تعالى : وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾ ‹٣›

هذا وهم معترفون بفضله وشرفه ونسبه ، وطهارة بيته ومَرْباه ، ومنشئه صلى الله وملائكته والمؤمنون عليه ، حتى أنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه « **الأمين** » .

وقد اعترف بذلك زعيم الكفار أبو سفيان ‹٤› حين سأله هرقل ملك الروم : وكيف نسبه فيكم ؟ قال : هو فينا ذو نسب ، قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب

---

١ ـ سورة الأنبياء : ٣٦ .

٢ ـ سورة الفرقان : ٤١ .

٣ ـ سورة الأنعام : ١٠ .

٤ ـ أبو سفيان : هو صخر بن حرب بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف ، صحابي ، من سادات قريش في الجاهلية ، وهو والد معاوية رأس الدولة الأموية ، قاد قريشاً وكنانة يوم أحد ويوم الخندق لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسلم يوم فتح مكة سنة (٨ هـ) وأبلى بعد إسلامه البلاء الحسن ، وشهد حنيناً والطائف ، ففقئت عينه يوم الطائف ، ثم فقئت الأخرى يوم اليرموك فعمي ، وكان من الشجعان الأبطال ، توفي بالمدينة سنة (٣١هـ) وقيل بالشام .

الاستيعاب (٢ / ٧١٤) وأسد الغابة (٣ / ١٠) ، (٦ / ١٤٨) والإصابة (٢ / ١٧٨) وتهذيب تاريخ دمشق (٦ / ٣٩٠) وسير أعلام النبلاء (٢ / ١٠٥) والعبر (١ / ٢١) وتهذيب التهذيب (٤ / ٤١١) والشذرات (١ / ٣٠ ، ٣٧) .

قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ... » الحديث <١> . فقد استدل ملك الروم بطهارة صفاته عليه الصلاة السلام ،على صدق نبوته وصحة ما جاء به)<٢>.

وقالوا : « لن نؤمن لك حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله » يعنى النبوة .

وإنما قالوا هذه المقالة الخبيثة حسداً منهم للنبى صلى الله عليه وسلم . وفى قولهم : « **لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله** » قولان :

أحدهما وهو المشهور : أن القوم أرادوا أن تحصل لهم النبوة والرسالة ، كما حصلت للنبى صلى الله عليه وسلم وأن يكونوا متبوعين لا تابعين .

القول الثانى : وهو قول الحسن ومنقول عن ابن عباس :

أن المعنى : وإذ جاءتهم آية من القرآن تأمرهم باتباع محمد صلى الله عليه وسلم قالوا : « **لن نؤمن لك** » يعنى لن نصدقك « **حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله** » يعنى حتى يوحى إلينا ويأتينا جبريل بصدقك بأنك رسول .

فعلى هذا القول لم يطلبوا النبوة ، وإنما طلبوا أن تخبرهم الملائكة بصدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه رسول من الله تعالى .

وعلى القول الأول : أنهم طلبوا أن يكونوا أنبياء .

ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله تعالى : « **الله أعلم حيث يجعل رسالته** » يعنى أنه تعالى يعلم من يستحق الرسالة فيشرفه بها ، ويعلم من لا يستحقها ومن ليس بأهل لها ، وأنتم لستم لها بأهل ، وأن النبوة لا تحصل لمن يطلبها خصوصاً لمن عنده حسد ومكر وغدر) <٣> .

---

١ ـ صحيح البخارى (كتاب الوحى ، ١ / ٥) .
٢ ـ تفسير ابن كثير (٢ / ٩٥) .
٣ ـ تفسير الخازن (٢ / ١٤٩) .

وقال الشوكانى أيضاً فى تفسيره لهذه الآية : (يريدون أنهم لا يؤمنون حتى يكونوا أنبياء ، وهذا نوع عجيب من جهالاتهم الغريبة ، وعجرفتهم العجيبة ، ونظيره :

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ ‹١›

والمعنى : إذا جاءت الأكابر « **آية** » قالوا هذه المقالة ،فأجاب الله عنهم بقوله : « **الله أعلم حيث يجعل رسالته** » أى إن الله أعلم بمن يستحق أن يجعله رسولاً ، ويكون موضعاً لها ، وأميناً عليها ، وقد اختار أن يجعل الرسالة فى محمد صَفِيِّه وحبيبه ، فَدَعُوا طلب ما ليس من شأنكم) ‹٢› .

ولقد توعدهم الحق سبحانه وتعالى بقوله : « **سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون** » .

وقال ابن كثير :(هذا وعيد شديد من الله ، وتهديد لمن تكبر عن اتباع رسله ، والانقياد لهم فيما جاءوا به ، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدى الله صغار ، وهو الذلة الدائمة ، كما أنهم استكبروا فأعقبهم ذلك ذلاً يوم القيامة لما استكبروا فى الدنيا .

كقوله تعالى : وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

‹٣›

أى صاغرين ذليلين حقيرين .

١ ـ سورة المدثر : ٥٢ .

٢ ـ فتح القدير (٢ / ١٥٩) .

٣ ـ سورة غافر : ٦٠ .

وقوله تعالى : « **وعذاب شديد بما كانوا يمكرون** » لما كان المكر غالباً إنما يكون خفياً ، وهو التلطف فى التحيل والخديعة ، قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة جزاءاً وفاقاً « **ولا يظلم ربك أحدا** » يشير إلى قوله :

وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ
لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟
حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ‹١›

كما قال تعالى :

يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ ‹٢›

أى تظهر المستترات والمكنونات والضمائر . وجاء فى الحديث الشريف .

عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، يرفع لكل غادرٍ لواء فقيل : هذه غدرة فلان ابن فلان » ‹٣› .

والحكمة فى هذا أنه لما كان الغدر خفياً لا يطلع عليه الناس فيوم القيامة يصير علماً منشوراً على صاحبه بما فعل) ‹٤› .

---

١ ـ سورة الكهف : ٤٩ .

٢ ـ سورة الطارق : ٩ .

٣ ـ أخرجه البخارى في الأدب ، باب ما يُدعى الناس بآبائهم (٨ / ٥١) .
وفي (ترك الحيل ، باب إذا غصب جارية فزعم أنها ماتت ، ٩ ، ٣٢) .
وفى (الفتن ، باب إذا قال عند قوم شيئاً ثم خرج بخلافه ، ٩ / ٧٢) .
ومسلم في (كتاب الجهاد والسير ، باب تحريم الغدر ، ٢ / ١٣٦) .
وأحمد في مسنده (٢ / ١٦ ، ٢٩ ، ٤٨ ، ٥٦) واللفظ لمسلم .

٤ ـ تفسير ابن كثير (٣ / ٩٧) .

* **حضورهم مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا لينتفعوا بل ليتخذوا من حضورهم وسيلة للتشكيك :**

وذلـك ما ذكره الله تعالى من أعمالهم المعارضة للنبوة، والصدّ عن سبيله .

فقد ذكر القرآن الكريم بعض مظاهر تعنت المشركين فى أثناء مجيئهم إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم لم يحضروا الاجتماع للإنتفاع ، وإنما يحضروا من أجل إحداث نوع من التشكيك والجدل بالباطل .

قال تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦)﴾ ‹١›

معانى الكلمات :

« **وجعلنا على قلوبهم أكنة** » : أي جعل الله عليها أغطية .

« **أن يفقهوه** » : أي حتى لا يفهموا القرآن الكريم .

« **وفي آذانهم وقراً** » : أي صمم ، فلا يسمعونه سماع قبول وانتفاع .

« **إن هذا إلا أساطير الأولين** » : أى ما هذا القرآن إلا أكاذيب الأولين ، كالأضاحيك والأعاجيب .

والأساطير : جمع أسطورة بالضم ، أى خرافة السابقين .

« **وهم ينهون عنه** » : أي وهم ينهون الناس عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم .

---

١ ـ سورة الأنعام : ٢٥ ، ٢٦ .

« **وينأون عنه** » : أي وهم يتباعدون عنه فلا يؤمنون به .

« **وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون** » : أي وما يهلكون بالبعد عنه إلا أنفسهم ، لأن ضرره عليهم ، وما يشعرون بذلك ‹١› .

المعنى الإجمالي للآيتين :

يبين الله تعالى في هاتين الآيتين أحوال هؤلاء المشركين المتعنتين عندما كانوا يأتون إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحضرون فيه لا من أجل السماع والانتفاع ، وإنما كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم علّهم يجدون ما يكون وسيلة إلى التشكيك في وحي الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم .

فعاقبهم الحق سبحانه وتعالى على ذلك بأن أغلق أدوات المعرفة عندهم عقوبة لهم ، فجعل على قلوبهم الأكنة ، وهي الأغطية ، حتى لا يفقهوا ، وجعل أسماعهم كمن لا سمع له ، كالأصم الذي لا يسمع ولا يفقه . فهؤلاء لا يؤمنون بآيات الله الواضحات مهما كانت هذه الآيات واضحة جلية .

فالله تعالى سجل عليهم هذا العناد ، لأنهم يجادلون بالباطل مع إعراضهم عن الحق وتكذيبهم به ، وينهون غيرهم عن الدخول فيه ، فهم لم ينتفعوا بوحي الله ، ولم يتركوا غيرهم ينتفع به ، وزعموا أن الحق الذي جاء به الوحي أساطير الأولين وأباطيلهم وترهاتهم .

وبهذا عرضوا أنفسهم لعقاب الله وعذابه وهم لا يعلمون بذلك .

---

١ ـ انظر : تفسير الجلالين (١٠٧) ، وانظر : تفسير النسفي (٢ / ٨) .

التوضيح للآيتين :

ومزيداً لبيان أحوال هؤلاء المشركين المتعنتين ، وموقفهم من وحي الله ، وتكذيبهم لما جاءهم من الحق ، وصدهم أنفسهم وغيرهم عن اتباعه ، والتشكيك والجدل بالباطل فيه .

بين الله تعالى أن هؤلاء المشركين كانوا يستمعون إلى الوحي ، فيحضرون إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لا من أجل السماع والانتفاع ، وإنما من أجل التشكيك وإلقاء الشبهات في الحق الذي جاءهم من عند الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، ليبتعدوا عن الانتفاع به ويبعدوا غيرهم عن ذلك ، فعاقبهم الله على ذلك بأن عطل أدوات المعرفة لديهم ، فجعل على قلوبهم الأكنة فلا تفقه ولا تفهم ، وأصم آذانهم فلا تسمع ولا تستجيب إلى الهدى فلا يؤمنوا بها ، وإنما يجادلون بالباطل ، ويقولون على الحق : إنه أباطيل الأولين ، فهم ابتعدوا عن الهدى والحق ، وأبعدوا غيرهم عنه ، بإلقاء الشبهه في الوحي ولم يعلموا ما عاقبة ذلك ، فعرضوا أنفسهم لعذاب الله وسخطه .

جاء في تفسير الخازن لقوله تعالى : « **ومنهم من يستمع إليك** » الآية :

(قال الكلبي : اجتمع أبو سفيان صخر بن حرب وأبو جهل بن هشام والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وعتبة <١> وشيبة <٢>

---

١ ـ عتبة بن ربيعة : هو أبو الوليد عبتة بن ربيعة بن عبد شمس ، كبير قريش وأحد ساداتها في الجاهلية . كان خطيباً نافذ القول ، موصوفاً بالرأى والحلم والفضل . أدرك الإسلام ولم يسلم ، وطغى فشهد بدراً مع المشركين ، وقاتل قتالاً شديداً فأحاط به علي بن أبي طالب والحمزة وعبيدة بن حارث فقتلوه . (ت ٢ هـ) .

انظر : الروض الأنف (١ / ١٢١) وبلوغ الأرب (١ / ٢٤١) والاعلام (٢ / ٢٠٠) .

٢ ـ شيبة بن ربيعة بن عبد شمس ، من زعماء قريش في الجاهلية . أدرك الإسلام ، وقتل على الوثنية يوم بدر .

أنساب الأشراف للبلاذرى (١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٤٠ ، ١٥٢ ، ٢٩١ ، ١٩٢ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧) والكامل لابن الأثير (٢ / ٦٣ ، ٧٦ ، ٩١ ، ١٠٢ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٥٩) والأعلام (٣ / ١٨١) .

ابنا ربيعة وأمية<١>وأبيّ<٢>ابنا خلف والحارث بن عامر<٣> يستمعون القرآن ، فقالوا للنضر : يا أبا قتيبة ، ما يقول محمد ؟ قال : ما أدرى ما يقول ، إلا أنى أراه يحرك لسانه ، ويقول أساطير الأولين ، مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية ، وكان النضر كثير الحديث عن القرون الماضية وأخبارها . فقال أبو سفيان : إني لأرى بعض ما يقول حقاً . فقال أبو جهل : كلا لا نقر بشيء من هذا . وفي رواية : لَلْمَوْتُ أهون علينا من هذا ، فأنزل الله تعالى : « **ومنهم من يستمع إليك** » يعني إلى كلامك وقراءتك يا محمد .

« **وجعلنا على قلوبهم أكنة** » : يعنى أغطية ، جمع كنان « **أن يفقهوه** » يعنى لئلا يفقهوه ، أو كراهية أن يفقهوه « **وفي آذانهم وقراً** » يعنى : وجعلنا في آذانهم صمماً وثقلاً ، وفي هذا دليل على أن الله تعالى يقلب القلوب فيشرح بعضها للهدى والإيمان فتقبله ، ويجعل بعضها في أكنة فلا تفقه كلام الله ولا تؤمن به .

---

١ ـ أمية بن خلف بن وهب ، من بني لؤى ، أحد جبابرة قريش في الجاهلية ومن ساداتهم ، أدرك الإسلام ولم يسلم ، وهو الذى عذب بلالاً في بداية ظهور الإسلام ، أسره عبد الرحمن بن عوف يوم بدر ، فرآه بلال وحرض الناس على قتله فقتلوه .

الكامل لابن الأثير (٢ / ٦٦ ، ١٢٧ ـ ١٢٩) والأعلام (٢ / ٢٢) .

٢ ـ أبيّ بن خلف الجمحى أخو أمية بن خلف وكانا على شر ما عليه أحد من أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكذيبه . قتل يوم أحد بحربة رسول الله صلي الله عليه وسلم طعنة في عنقه خدشاً غير كبير ، فلما رجع إلى قريش قال : قتلنى محمد قالوا : والله ما بك بأس ، قال : إنه كان قال لى أنا أقتلك ، فوالله لو بصق عليّ لقتلنى ، فمات عدوا الله بشرف .

الكامل لابن الأثير (٢ / ٦٩ ، ٧٢ ، ١٥٤ ، ١٥٧) وأنساب الأشراف للبلاذرى (١ / ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٣٨ ، ١٤٣ ، ١٩٥ ، ٢٦٤ ، ٣١٩ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ ، ٣٣٥ ، ٤٤٨) دار المعارف .

٣ ـ الحارث بن عامر بن نوفل من أشراف قريش الذين اجتمعوا في دار الندوة للتشاور في قتل النبى صلى الله عليه وسلم وشهد معركة بدر مع المشركين ، وقتل يوم أحد بيد خبيب بن عدى كافراً .

الكامل لابن الأثير (٢ / ١٠٢ ، ١١٩ ، ١٦٧) وأنساب الاشراف للبلاذرى (١ / ١٥٤ ، ١٥٧ ، ٢٩٢ ، ٢٩٧) دار المعارف .

« **وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها** » يعني كل معجزة من المعجزات الدالة على صدقك « **لا يؤمنوا بها** » ، يعني : لا يصدقوا بها ولا يقروا أنها دالة على صدقك .

«**حتى إذا جاءوك يجادلونك**» يعنى أنهم إذا رأوا الآيات واستمعوا القرآن ، إنما جاءوا ليجادلوك ويخاصموك لا ليؤمنوا بها .

« **يقول الذين كفروا إن هذا** » أى ما هذا القرآن « إلا أساطير الأولين » ، يعنى أحاديث الأولين من الأمم الماضية وأخبارهم وأقاصيصهم وما سطروه يعنى وما كتبوه) ‹١› .

وقال ابن كثير في تفسيره أيضاً : (أى يجيئون ليستمعوا قراءتك ، ولا تجزى عنهم شيئاً ، لأن الله جعل على قلوبهم « **أكنة** » أى أغطية ، لئلا يفقهوا القرآن .

« **وفي آذانهم وقراً** » :أى صمماً عن السماع النافع لهم ، كما قال تعالى :

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ
بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ‹٢›

وقوله تعالى : « **وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها** » أي مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات والبراهين ، لا يؤمنوا بها فلا فهم عندهم ولا إنصاف . كقوله تعالى :

وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ‹٣›

١ ـ تفسير الخازن (٢ / ١٠٤) ، وانظر كذلك أسباب النزول للواحدى (١٤٣ ، ١٤٤) وحاشية الصاوى (٢/٩) .

٢ ـ سورة البقرة : ١٧١ .

٣ ـ سورة الأنفال : ٢٣ .

وقوله تعالى : « **حتى إذا جاءوك يجادلونك** » أى يحاجونك ويناظرونك فى الحق بالباطل ، « **يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين** » أى ما هذا الذى جئت به إلا مأخوذ من كتب الأوائل ، ومنقــول عنهـم ، وقوله : « **وهم ينهون عنه وينأون عنه** » فى معنى « **ينهون عنه** » قولان :

أحدهما : أن المراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق وتصديق الرسول والانقياد للقرآن ، « **وينأون عنه** » أى ويبعدون هم عنه ، فيجمعون بين الفعلين القبيحين ، لا ينتفعون ، ولا يدعون أحدا ينتفع . قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : « **وهم ينهون عنه** » يردون الناس عن محمد صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا به . وقال محمد بن الحنفية ‹١› : كان كفار قريش لا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم وينهون عنه ، وكذا قال قتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد ، وهذا القول أظهر ، والله أعلم ، وهو اختيار ابن جرير) ‹٢› .

أما القول الثاني : فنشير إليــه وهــو أن الآية نزلــت في أبى طالب بن عبد المطلب ‹٣› ، وذلك أنه كان ينهى المشركين عن إيذاء رســول اللــه صلى الله عليه وسلم وينأى هو عن الإيمان به واتباعه عليه الصلاة والسلام .

---

١ ـ محمد بن الحنفية : هو محمد بن على بن أبى طالب الهاشمى، أبو القاسم بن الحنفية المدنى ثقة عالم ، مات بالمدينة بعد الثمانى ، وكان رجلاً صالحاً .

انظر : التاريخ الكبير (١/١ / ١٨٢) الجرح والتعديل (٨ / ٢٦) الثقات للعجلى (٤١٠) التهذيب (٩ / ٣٥٤) والتقريب (٢ / ١٩٢) .

٢ ـ تفسير ابن كثير (٢ / ١٤) ، وانظر كذلك تفسير الطبرى (١١ / ٣١١ ـ ٣١٦) .

٣ ـ أبو طالب : هو عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم (٨٥ ق هـ ـ ٣ ق هـ) من قريش والد علىّ وعمّ النبى صلى الله عليه وسلم ، وكافله ومربيه ومناصره ، كان من أبطال هاشم ورؤسائهم ، ومن الخطباء العقلاء .

ولما أظهر النبى صلى الله عليه وسلم الدعوة إلى الإسلام همّ قريش بقتله ، فحماه أبو طالب ، وصدهم عنه . فدعاه النبى صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فامتنع خوفاً من أن تعيّره العرب بتركه دين الآباء ووعد بنصرته وحمايته .

انظر : طبقات ابن سعد (١ / ٧٥) والكامل لابن الأثير (١ / ٤٦٧ ، ٥٩٣) و(٢ / ٥ ، ٢٢ ، ٢٧ ـ ٤٠ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦١ ـ ٦٥ ، ٧٦) . وأنساب الأشراف (١ / ٥٧ ، ٧٢ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٢ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٠) والأعلام (٤ / ١٦٦) .

فعن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله عز وجل « **وهم ينهون عنه وينأون عنه** » قال : نزلت في أبي طالب ، كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتباعد عما جاء به » <١> .

ثم ذكر الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك عاقبة هؤلاء المكذبين للرسول صلى الله عليه وسلم ، ولما جاءهم به من عند الله تعالى ، فقال تعالى : « **وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون** » : أي أن هؤلاء المشركين ما يهلكون إلا أنفسهم ، وذلك بتعريضها لسخط الله وأليم عقابه ، وهم لا يشعرون بذلك .

قال المراغي في تفسيره لقوله تعالى : « **وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون** » : (أي ما يهلكون إلا أنفسهم بتعريضها لأشد العذاب وأفظعه ، وهو عذاب الضلال والإضلال ، وما يشعرون بذلك ، بل يظنون أنهم يبغون الغوائل لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا من معجزات القرآن وإخباره بالغيب ، فقد هلك جميع الذين أصروا على عداوته صلى الله عليه وسلم ، بعضهم في نقم خاصة ، وبعضهم في وقعه بدر وغيرها من الغزوات » <٢> .

---

١ ـ المستدرك على الصحيحن (كتاب التفسير ، ٢ / ٣١٥) .
وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي فقال : صحيح .
٢ ـ تفسير المراغي (٧ / ١٠٠) .

* موقف أهل الكتاب اليهود والنصارى موقف إنكار :

وإذا كان المشركون موقفهم موقف التكذيب والتنعت فموقف أهل الكتاب من اليهود والنصارى كان هكذا أيضاً .

فهم كانوا ينكرون نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . ورسالته مع معرفتهم الصحيحة بصدقه صلى الله عليه وسلم .

فالله تعالى ذكر لنا هذا الموقف ، وردّ عليهم وأكد صدق نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأقام الدليل على صدقه من الكتب التي بين أيديهم ، والتى فيها البِشَارة برسالته صلى الله عليه وسلم ، والتي عرفوا منها نبوته صلى الله عليه وسلم . أكثر من معرفتهم بأبنائهم .

قال تعالى :

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

(١)

معاني الكلمات :

« **الذين آتيناهم الكتاب** » : هم اليهود والنصارى ، والكتاب : التوراة والإنجيل .

« **يعرفونه** » : أى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحليته ونعته الثابت في الكتابين .

« **كما يعرفون أبناءهم** » : بُحلاهم ونعوتهم . وهذا استهشاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب به صلى الله عليه وسلم ، وبصحة نبوته عليه أفضل الصلاة والتسليم .

---

١ ـ سورة الأنعام : ٢٠ ، ٢١ .

« **الذين خسروا أنفسهم** » من المشركين ومن أهل الكتاب الجاحدين .

« **فهم لا يؤمنون** » أى به عليه الصلاة والسلام .

« **ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً** »:استفهام يتضمن معنى النفى ، أى لا أحد أظلم لنفسه من الذي يختلق الكذب فيصف الله تعالى بما لا يليق به ، جل ثناؤه .

والظلم : هو وضع الشيء في غير موضعه ، وأشنعه اتخاذ المخلوقين معبوداً من دون الله ، أو مع الله ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

« **أو كذب بآياته** » : أى بالقرآن العظيم والمعجزات الحسية .

« **إنه لا يفلح الظالمون** » « **إنه** » : أى إن الأمر والشأن ، « **لا يفلح الظالمون** » أى بذلك ، أي بعملهم هذا (١) .

المعنى الإجمالى للآيتين :

يبين الله تعالى لنا في هاتين الآيتين موقف أهل الكتاب : اليهود والنصارى من رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصدق ما جاءهم به من عند الله تعالى .

والله تعالى يبين لنا موقفهم هذا وردّه جل ثناؤه عليهم بتأكيد صدق نبوة رسوله صلى الله عليه وسلم ، واقامة الدليل عليها من كتبهم التي بين أيديهم التوراة والانجيل ، والتى فيها البشارة برسالته وصفته عليه أفضل الصلاة والتسليم ، فهم قد عرفوه

---

١ ـ تفسير النسفى (٢ / ٦ ، ٧) وانظر : تفسير الجلالين (١٠٧) .

فقوله تعالى :« ومن أظلم ممن أفترى ... » الآية فقد ورد البحث فيها في المقصد الأول : « قضية التوحيد » .

في المبحث الرابع : « افتراء المكذبين والرد عليهم » .

أيضاً من مشاهدتهم للمعجزات الحسية والمعنوية التي أجراها الله سبحانه وتعالى على يديه لتثبت لهم صدقه عليه الصلاة والسلام ، وصدق ما جاءهم به من عند الله الواحد الأحد .

فهم عرفوا ذلك أكثر من معرفتهم لأولادهم ، ولكنهم أنكروا ذلك كفراً وعناداً وحسداً ، وبذلك خسروا أنفسهم ، وعرضوها لعذاب الله ، كما أنهم بهذا التكذيب كانوا أعظم وأشد الناس ظلماً وأبعدهم عن الحق والهدى ، لافترائهم الكذب على الله تعالى ، ونسبة ما ليس له إليه ـ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ـ وبتكذيبهم بآيات الله الواضحة الجلية التي جاءهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند الله تعالى .

فهؤلاء لا يفوزون بالجنة ونعيمها المقيم ، ولا ينجون من النار وعذابها الأليم ، فلهم عذاب عظيم نتيجة ظلمهم هذا .

التوضيح للآيتين :

بعد أن كشف الحق سبحانه وتعالى حقيقة المشركين المتعنتين في عدم إيمانهم به تعالى ، وعدم تصديقهم برسوله صلى الله عليه وسلم وما جاءهم به من عند الله العزيز الحكيم ، وما طلبوه من مقترحات لكي يؤمنوا ، ولكن الحقيقة أنهم لن يؤمنوا ، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى علم بأحوالهم وحقيقتهم ، وله الحكمة العظيمة في ذلك .

أتبع الله تعالى ذلك بالبيان والكشف عن أحوال أهل الكتاب من اليهود والنصارى أيضاً في عدم إيمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتصديق به ، مع أنهم يعرفونه بصفاته صلى الله عليه وسلم معرفة أكيده كما يعرفون أبناءهم .

وقد قام الدليل على صدق معرفتهم به صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن كتبهم : التوراة والإنجيل التي يقرأونها ، وبين أيديهم ، شاهدةٌ على كذبهم ، فقد ورد فيهما البشارة برسالتــه عليــه أفضل الصلاة والتسليم وبعــض صفاته صلى الله عليه وسلم .

وأيضاً فإن هذه المعجـزات الحسيــة والمعنوية التي أجراها الله على يديه صلى الله عليه وسلم دليل على صدقه صلى الله عليه وسلم ، وقد شاهدوها .

فموقفهم إذاً موقف خصومة وعنادٍ وتقليدٍ لما ورثوه عن آبائهم مع قيام الدليل على أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم مما بين أيديهم من كتبهم السابقة التي يؤمنون بها .

فهذه الآية الكريمة التي معنا وهي قوله تعالى :

« الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » .

كقوله تعالى :

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾

(١)

وقد قص الحق سبحانه وتعالى عنهم في كتابه العزيز في آيات أخرى ، معرفتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم .

---

١ ـ سورة البقرة : ١٤٦ .

فقال عز من قائل : ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ (٢)

---

١ ـ سورة الأعراف : ١٥٧ .

وقوله : « ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » .

الإصر : الثقل ، والأغلال : جمع غُل ، وهو القيد . وقد استعير للتكاليف الشاقة التى كانوا قد كلفوها .

والمعنى : « وأنه صلى الله عليه وسلم يرفع عنهم هذه التكاليف التى كلفهم الله تعالى بها » . (انظر : فتح القدير ، ٢ / ٢٥٢) .

٢ ـ سورة الفتح : ٢٩ .

فقوله تعالى : « سيماهم » أى علامتهم .

« في وجوههم من أثر السجود » هو نور وبياض يعرفون به .

وقيل : هو السمت الحسن والخشوع والتواضع .

قال ابن عباس : ليس بالذى ترون ولكنه سيما الإسلام وسجيته وسمته .

والمعنى : أن السجود أورثهم الخشوع والتواضع والسمت الحسن يعرفون به .

وقوله : « كزرع أخرج شطأه » : أى أخرج فراخه .

قيل : هو نبت فما خرج بعده فهو شطؤه .

وقوله : « فآزره » : أى قواه وأعانه وشد أزره .

وقوله : « فاستغلظ » : أى ذلك الزرع قوى وغَلُظَ .

وقوله : « فاستوى » : أى تم وتلاحق نباته وقام .

وقوله : « على سوقه » : جمع ساق : أى على أصوله .

وقوله : « يعجب الزراع » : أى يعجب ذلك الزرع زراعه .

وهو مثل ضربه الله عز وجل لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مكتوب في الإنجيل .

أنهم يكونون قليلاً ، ثم يزدادون ويكثرون . قال قتادة : مثل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مكتوب في الإنجيل أنه سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

تفسير الخازن (٦ / ١٧٩) .

* وصف هؤلاء المكذبين بأنهم أظلم الناس :

لقد وصف الله المشركين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنهم أظلم خلق الله لأنهم :

أولاً : كذّبوا بآيات الله التي جاءتهم على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثانياً : أنهم كذبوا على الله سبحانه وتعالى فنسبوا إلى الدين ما ليس منه .

فكان من أثر هذا التكذيب والعناد أن عاقبهم الله جل ثناؤه فحال بينهم وبين الإيمان .

قال الطبري في تفسيره لهذه الآية : (يقول تعالى ذكره : « **الذين آتيناهم الكتاب** » التوراة والإنجيل يعرفون إنما هو إله واحد ، لا جماعة آلهة ، وأن محمد نبي مبعوث « **كما يعرفون أبناءهم** » .

ويعنى بقوله : « **الذين خسروا أنفسهم** » أهلكوها وألقوها في نار جهنم ، بإنكارهم محمداً أنه رسول مرسل ، وهم بحقيقة ذلك عارفون « **فهم لا يؤمنون** » يقول : فهم بخسارتهم بذلك أنفسهم لا يؤمنون . وقد قيل : إن معنى « خسارتهم أنفسهم » أن كل عبد له منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، فإذا كان يوم القيامة جعل الله لأهل الجنة منازل أهل النار في الجنة ، وجعل لأهل النارمنازل أهل الجنة في النار ، فذلك خسران الخاسرين منهم ، لبيعهم منازلهم من الجنة بمنازل أهل الجنة من النار بما فرط منهم في الدنيا من معصية الله ، وظلمهم أنفسهم ، وذلك معنى قول الله تعالى ذكره :

﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (١)

---

١ ـ سورة المؤمنون : ١١ .

وذكر الطبري بسنده عن قتادة قوله : « **الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم** » يعرفون أن الإسلام دين الله ، وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل .

وعنه أيضاً : النصارى واليهود يعرفون رسول الله في كتبهم ، كما يعرفون أبناءهم .

وعن السدى : يعني : يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم : « **كما يعرفون أبناءهم** » لأن نعته معهم في التوراة .

وعن ابن جريج : يعني النبى صلى الله عليه وسلم . قال : زعم أهل المدينة عن أهل الكتاب ممن أسلم ، أنهم قالوا : والله لنحن أعرف به من أبنائنا ، من أجل الصفة والنعت الذي نجده في الكتاب ، وأما أبناؤنا فلا ندرى ما أحدث النساء) ‹١› .

وذكر أن عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن سلام ‹٢› : ما هذه المعرفة التي تعرفون بها محمداً صلى الله عليه وسلم ؟ قال : والله لأنا بِهِ إذا رأيته أعرفُ منى بابنى وهو يلعب مع الصبيان ، لأني لا أشك فيه أنه محمد صلى الله عليه وسلم ، ولست أدرى ما صنع النساء في الابن . فهذه المعرفة لصفته في كتابهم ‹٣› .

---

١ ـ تفسير الطبرى (١١ / ٢٩٤ ـ ٢٩٦) .

٢ ـ عبد الله بن سَلَام بن الحارث ، الإمام الحَبْر ، المشهود له بالجنّة ، أبو الحارث الاسرائيلى ، حليف الأنصار ، من خواص أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، كان ممن شهد فتح بيت المقدس ، وكان أسلم وقت هجرة البنى صلى الله عليه وسلم وقدومه ، توفى سنه ٤٣هـ .

طبقات ابن سعد (٢ / ٣٥٢) الاستيعاب (٢ / ٩٢١) أسد الغابة (٣ / ٢٦٤) الإصابة (٢ / ٣٢٠) سير أعلام النبلاء (/ ٤١٣) العبر (١ / ٥١) التهذيب (٥ / ٢٤٩) مروياته في مسند أحمد (٥ / ٤٥٠) .

٣ ـ معانى القرآن ، تأليف أبى زكريا يحي بن زياد الفراء (١ / ٣٢٩) ، دار النشر : عالم الكتاب بيروت .

وقال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية أيضاً : (قال تعالى مخبراً عن أهل الكتاب أنهم يعرفون هذا الذي جئتهم به ، كما يعرفون أبنائهم بما عندهم من الاخبار والأنباء ، عن المرسلين المتقدمين والأنبياء ، فأن الرسل كلهم بشروا بوجود محمد صلى الله عليه وسلم ونعته وصفته وبلده ومهاجره وصفة أمته ، ولهذا قال بعد « **الذين خسروا أنفسهم** » ، أي خسروا كل الخسارة « **فهم لا يؤمنون** » بهذا الأمر الجلى الظاهر الذي بشرت به الأنبياء ، ونوهت به في قديم الزمان وحديثه) ‹١› .

ثم قال الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : « **ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون** » .

قال الطبري : في تفسيره لهذه الآية : (يقول تعالى ذكره : ومن أشدُّ اعتداءً ، وأخطأ فعلاً ، وأخطأ قولاً « **ممن افترى على الله كذباً** » يعني : ممن اختلق على الله قيلاً باطلاً ، واخترق من نفسه عليه كذباً ، فزعم أن له شريكاً من خلقه ، وإلهاً يعبد من دونه ، كما قاله المشركون عبدة الأوثان ، أو ادعى له ولداً أو صاحبة ، كما قالته النصارى .

« **أو كذب بآياته** » يقول : أو كذب بحججه وأعلامه وأدلته التى أعطاها رسله على حقيقة نبوتهم ، كذبت بها اليهود ، « **إنه لا يفلح الظالمون** » يقول إنه لا يفلح القائلون على الله الباطل ، ولا يدركون البقاء في الجنان ، والمفترون عليه الكذب ، والجاحدون بنبوة أنبيائه) ‹٢› .

---

١ ـ تفسير ابن كثير (٣ / ١٢) .

٢ ـ تفسير الطبرى (١١ / ٢٩٦) .

المبحث الثاني

تسلية الله للنبي صلى الله عليه وسلم ،

وأمره له بالاحتمال والصبر على تكاليف الدعوة

ويشتمل على ما يأتي :

* إخبار الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بأخبار الرسل السابقين مع أقوامهم .

* بيان الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أنه يعلم ما ينزل به من الآلام والأحزان .

* بيان الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أنه قادر على هداية قومه لو كان لديهم استعداد لذلك ، ليدفع عنه ما يصيبه من ألم وحزن على عدم إيمانهم .

* بيان الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ، كنوع من التسلية ، أنه لا يستجيب إلى دعوة الإيمان إلا الذين يسمعون سماع قبول ، وأما الذين لا يسمعون فهم موتى القلوب .

* ومن تسلية الله لنبيه صلى الله عليه وسلم توجيهه له في كل حالة من الحالات التي تعرض له ، مما يحتاج إلى توجيه ، كما يظهر ذلك في الحالات الآتية :

الحالة الأولى : إعلان الرسول صلى الله عليه وسلم للمعارضين له بأنه على بينة من ربه ، وأنه سيمضي في طريق الدعوة ، وأن الله هو الذي يحكم بينه وبينهم .

الحالة الثانية : تحديد وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهى التبشير والإنذار ، وأنه ليس بوكيل على قومه .

الحالة الثالثة : نهى الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يجالس الخائضين فى آيات الله ، وحكم مجالستهم .

الحالة الرابعة : أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يستمر فى دعوته بقطع النظر عن استجابتهم لها أو إعراضهم عنها ، وأن المعرضين سينالون جزاءهم وافياً .

الحالة الخامسة : بيان سنة الله بالنسبة للرسل والدعاة بأن يكون لهم أنصار ، كما يكون لهم خصوم من الإنس والجن .

الحالة السادسة : أمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام بأن يقول لهؤلاء الكافرين المنكرين للحق : إنه لا يرضى حاكماً يحكم بينه وبينهم إلا الله .

الحالة السابعة : أمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن لا يهتم بضلالهم وكفرهم ، فهم كغيرهم من الكفرة .

لقد كان الكفار يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعترضون على دعوته ، ويتهمونه بالسحر والجنون والكذب على الله جل شأنه ، وكان ذلك يؤذى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويؤلمه ويضيق صدره به .

فأراد الله سبحانه وتعالى أن يسليه ويُقَوِّىَ عزيمته ، ليتم الرسالة التى بعثه بها ، فسلاه تعالى بما يأتى :

أولاً : إخبار الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام بأخبار الرسل السابقين مع أقوامهم :

فلقد سلى الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأخبره بأخبار الرسل السابقين ، وما يلاقونه مع أقوامهم من العنت والخصومة والكفر ، كما يلاقى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويجد من قومه ، فهو ليس الوحيد الذى كَذَّبه قومه ونالوا منه ، بل هذه سنة الله فى الأنبياء والرسل والدعاة والمصلحين ، وأن الله تعالى سينصره عليهم ، وينزل بهم العقاب الصارم الأليم .

قال تعالى :

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ
بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾

(١)

معانى الكلمات :

« **ولقد استهزىء برسل من قبلك** » : فيه تسلية النبى صلى الله عليه وسلم .

« **فحاق** » : أى نزل وأحاط وحل .

---

١ ـ سورة الأنعام : ١٠ .

« **بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون** » : أى نزل العذاب بهم ، فكذا يحيق وينزل بمن استهزأ بك ‹١› .

المعنى الإجمالى للآية :

فى هذه الآية الكريمة يسلى الله سبحانه وتعالى رسوله وحبيبه محمداً صلى الله عليه وسلم ، لما يلاقيه من إيذاء وصدود من مشركى قومه ، وأنه عليه الصلاة والسلام ليس الوحيد الذى قد تعرض للأذى دون غيره .

فيدعوه إلى الاحتمال والصبر على أذاهم ، وأنه سوف ينزل بهم أليم عذابه وعقابه إن لم يؤمنوا به ، وأصروا على التكذيب ، كما سبق أن أنزل العذاب الأليم بالأمم السابقة المكذبة لرسلها عليهم أفضل الصلاة والتسليم .

التوضيح للآية :

إن الحق سبحانه وتعالى يسلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويدعوه إلى تحمل أذى المكذبين له ، والمعارضين لدعوته ، والصبر على ذلك ، لأنه تعالى سوف ينزل بهم الهلاك والدمار ، كما أنزله على غيرهم من الأمم المكذبة للرسل عليهم الصلاة والسلام .

وإنه سبحانه وتعالى سينصره عليهم ، هو وجماعة المؤمنين به .

قال ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية : « هذه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم فى تكذيب من كذبه من قومه ، ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة ، فى الدنيا والآخرة » ‹٢› .

---

١ ـ تفسير الجلالين (١٠٦) بتصرف .

٢ ـ تفسير ابن كثير (٣ / ٩) .

ثانياً : بيان الله لرسوله عليه الصلاة والسلام أنه يعلم ما ينزل به من الآلام والأحزان :

بين الحق سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أنه عالم بما ينزل به من الآلام والأحزان ، فصبَّره بإخباره بأنهم لا يكذبونه ، ولكنهم يجحدون آيات الله الواضحة ويكذبونها .

وأن الأنبياء والرسل السابقين عليهم السلام ووجُهُوا بالتكذيب والإيذاء فصبروا على ذلك حتى جاءهم نصر الله تعالى المبين .

قال عز من قائل :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

(١)

معاني الكلمات :

« **قد نعلم أنه ليحزنك الذى يقولون** » : « قد » للتحقيق والتأكيد ، يعنى قد نعلم يا محمد إنه ليحزنك الذى يقول المشركون لك من التكذيب .

« **فإنهم لا يكذبونك** » : أى إنهم لا يكذبونك فى السر ، وذلك لأنهم قد عرفوا أنك صادق .

« **ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** » : يعنى : أن الكافرين يكذبون بالقرآن فى العلانية ، وذلك لأنهم جحدوا القرآن بعد معرفتهم بصدق ما أنزل عليه لعنادهم وكفرهم .

---

١ ـ سورة الأنعام : ٣٣ ، ٣٤ .

« **ولقد كذبت رسل من قبلك** » : يعنى : ولقد كذبت الأمم السابقة رسلهم كما كذبك قومك . وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم <١> .

« **فصبروا على ما كذبوا وأوذوا** » : الصبر : حبس النفس عن المكروه ، أى صبروا على تكذيبهم وإيذائهم <٢> .

« **حتى أتاهم نصرنا** » : أى بإهلاك من كذبهم من قومهم ، فاصبر حتى يأتيك النصر بإهلاك قومك .

« **ولا مبدل لكلمات الله** » : يعنى : لا ناقض لما حكم الله به من إهلاك المكذبين ونصر المؤمنين . فلا مغير لوعوده <٣> .

« **ولقد جاءك من نبأ المرسلين** » يعنى : لقد أنزلت عليك فى القرآن من أخبار المرسلين وقصصهم ، وما كابدوا من مصابرة المشركين <٤> .

المعنى الإجمالى للآيتين :

أخبر الحق سبحانه وتعالى فى هاتين الآيتين الكريمتين بأنه عالم بحال رسوله صلى الله عليه وسلم ، وبما يصيبه من الحزن بسبب إصرار قومه على الكفر بالله تعالى ، والتكذيب له ولما جاءهم به من عند الله .

فبين له المولى عز وجل أنهم لا يكذبونه فيما بينهم وبين أنفسهم ، ولكنهم يجحدون ويكذبون توحيد الله الواحد الأحد ، وآياته الواضحة ، وينكرون ويكذبون ما جاءهم به من الحق والهدى عناداً وتكبراً وجحوداً للحق ، فلا يحزن لتكذيبهم وكفرهم .

---

١ ـ تفسير الجلالين (١٠٨) ، وتفسير الخازن (٢ / ١٠٨) بتصرف .
٢ ـ تفسير النسفى (٢ / ١٠) .
٣ ـ تفسير الخازن (٢ / ١٠٨) ، وكذلك تفسير الجلالين (١٠٨) .
٤ ـ تفسير الخازن (٢ / ١٠٨) ، وكذلك تفسير النسفى (٢ / ١٠) .

كما بين أن الرسل السابقين عليهم الصلاة والسلام ، قد لاقوا من ذلك ، ولكنهم صبروا حتى جاءهم نصرنا بإهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين .

وفى ذلك تسليةٌ للرسول صلى الله عليه وسلم لما ناله من الغم والحزن على تكذيب الكفار له ، ووعدٌ من الحق سبحانه وتعالى بالنصر والتأييد ، كما نصر غيره من الأنبياء والرسل السابقين عليهم الصلاة والسلام ، والله لا يخلف الميعاد .

التوضيح للآيتين :

يبين الحق سبحانه وتعالى فى هاتين الآيتين ما يصيب الرسول صلى الله عليه وسلم من الحزن والألم على عدم إيمان قومه المكذبين له عليه الصلاة والسلام ، فيسليه على ذلك ويخبره بأنهم يعلمون علم اليقين أنه صادق فيما يقوله لهم ، وإنما حملهم على ذلك الحسد والظلم ، ويقول له : **« قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون »** .

قال الخازن فى تفسيره لهذه الآية : « ففى هذه الآية تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتعزية عما يواجه به قومه ، لأنهم كانوا يعتقدون صدقه ، وأنه ليس بكذاب ، وإنما حملهم على تكذيبه في الظاهر الحسد والظلم » ‹١› .

عن ناجية بن كعب ‹٢› عن على ، أن أبا جهل قال للنبى صلى الله عليه وسلم : إنَّا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به ،

---

١ ـ تفسير الخزان (٢ / ١٠٧) .

٢ ـ ناجية بن كعب : هو ناجية بن كعب الأسدى الكوفى ، روى عن على رضى الله عنه وهو ثقة . وقد أخرج له أبو داود والترمذى والنسائى .

انظر : الثقات للعجلى (٤٤٦) والتهذيب (١٠ / ٣٩٩) والتقريب (٢ / ٢٩٤) .

فأنزل الله تعالى : « **فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** » وأخرج أيضاً عن ناجية « أن أبا جهل قال للنبى صلى الله عليه وسلم ، وذكر نحوه ولم يذكر فيه عن على وهذا أصح»<١> .

وروى ابن جرير عن السدى فى قوله : « **قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** » :

(لما كان يوم بدر قال الأخنس بن شريق <٢> لبنى زهرة <٣> : يا بنى زهرة ، إن محمداً ابن اختكم ، فأنتم أحقُّ مَنْ كفَّ عنه ، فإنه إن كان نبياً لم تقتلوهُ اليوم ، وإن كان كاذباً كنتم أحق من كف عن ابن أخته ، قفوا هاهنا حتى ألقى أبا الحكم، فإن غُلب محمد صلى الله عليه وسلم ـ رجعتم سالمين ، وإن غَلَبَ محمدٌ فإن قومكم لا يصنعون بكم شيئاً ، فيومئذ سمىّ « الأخنس » وكان اسمه « أبىّ » فالتقى الأخنس وأبو جهل ، فخلا الأخنس

---

١ ـ سنن الترمذى (أبواب التفسير ، سورة الأنعام ، ٤ / ٣٢٦ ، ٣٢٧) وقوله : « هذا أصح » أى الإسناد الثانى بترك على أصح من الإسناد الأول .

وحديث على أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢ / ٣١٥ ، ٣١٦) ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وتعقبه الذهبى بقوله : ما خرجا لناجية شيئاً .

وانظر : تحفة الأحوذى (٨ / ٤٢٣) والدر المنثور (٣ / ٩) وكنز العمال (٢ / ٤٠٩) .

٢ ـ الأخنس بن شَريق من أشراف قريش وساداتهم وكان أبو سفيان لما أحرز عيره أرسل إلى قريش : إن الله قد نجىّ عيركم وأموالكم فارجعوا ، فأبى أبو جهل ، فقال الأخنس بن شَريق الثقفى وكان حليفاً لبنى زُهرة وهم بالجُحْفة : يابنى زُهرة قد نجىّ الله أموالكم وصاحبكم فارجعوا ، فرجعوا فلم يشهدها زُهرى ولا عدوى ، وشهدها سائر بطون قريش .

الكامل لابن الأثير (٢ / ٦٠ ، ١٢١ ، ٢٠٥) اكتساب الأشراف للبلاذرى (١ / ١١٦ ، ٢١١ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٩١) ، دار المعارف .

٣ ـ بنو زهرة : بطن من بنىْ مُرة بن كلاب من قريش من العدنانيّة . وهم بنو زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فِهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

جمهرة أنساب العرب لابن حزم (١٢٨) وأنساب الأشراف للبلاذرى (٤٧ ـ ٤٩) .

ومعجم قبائل العرب : لعمر رضا كحالة (٢ / ٤٨٢) وتاج العروس للزبيدى (٣ / ٢٤٨) .

بأبى جهل فقال : يا أبا الحكم ، أخبرني عن محمد ، أصادقٌ هو أم كاذب ؟ فإنه ليس ههنا من قريش أحد غيرى وغيرك يسمع كلامنا . فقال أبو جهل : ويْحك . والله إن محمداً لصادق ، وما كذب محمد قطُّ ، ولكن إذا ذهب بنو قُصَيٍّ ‹١› باللواء والحجابة والسقاية والنبوة ، فماذا يكون لسائر قريش ؟ فذلك قوله : « **فإنهم لا يكذّبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** » ، « **فآيات الله** » محمد صلى الله عليه وسلم) ‹٢› .

فهؤلاء عرفوا الحق ، ولكنهم لا يريدون أن يعترفوا به . فالله سبحانه وتعالى يسلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويحثه على الصبر وعدم الحزن على كفرهم وتكذيبهم ، فهم عرفوا أنه صادق ، ولكن الذى حملهم على ذلك الظلم والحسد .

ثم بين الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن غيره من الرسل عليهم ـ الصلاة والسلام ـ السابقين قد كُذِّبوا بما جاءوا به من عند الله ، ولكنهم صبروا على ما نالهم من قومهم من التكذيب والاستهزاء والإيذاء ، صبروا على ذلك عليهم الصلاة والسلام حتى جاءهم نصر الله المبين .

فقال تعالى:«**فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون**» .

---

١ ـ بنو قُصَىّ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى ، سيد قريش فى عصره ورئيسهم ، وهو الأب الخامس في سلسلة النسب النبوى ، وكان موصوفا بالدهاء ، وولى البيت الحرام فهدم الكعبة وجدّد بنائها ، وكانت له الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء وكان أمره في قومه كالدين المتبوع لا يعمل بغيره . مات بمكة ودفن بالحجون .

طبقات ابن سعد (١ / ٣٦) تاريخ الطبرى (٢ / ١٨١) الكامل (٢ / ١٨) تاريخ ابن هشام (١ / ٤٢) الروض الأنف (١ / ٨٤) أنساب الاشراف للبلاذرى (٤٧ ـ ٥٨) الأعلام (٥ / ١٩٨) .

٢ ـ تفسير الطبرى (١١ / ٣٣٢) وانظر كذلك تفسير ابن كثير (٢ / ١٨) وأسباب النزول للواحدى (١٤٤ ، ١٤٥) .

قال النسفى <١> فى تفسيره لهذه الآية الكريمة :

(والمعنى : أن تكذيبك أمر راجع إلى الله لأنك رسوله المصدَّق بالمعجزات ، فهم فى الحقيقة إنما يكذبون الله ، لأن تكذيب الرسول تكذيب المُرْسِل .

« **ولقد كذبت رسل من قبلك** »:تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو دليل على أن قوله : « **فإنهم لا يكذبونك** » ليس بنفى لتكذيبه ، وإنما هو من قولك لغلامك إذا أهانه بعض الناس : إنهم لم يهينوك وإنما أهانوننى) <٢> .

وقال الشوكانى أيضاً فى تفسيره لهذه الآية الكريمة :

(هذا من جملة التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى أن هذا الذى وقع من هؤلاء إليك ليس هو بأول ما صنعه الكفار مع من أرسله الله إليهم ، بل قد وقع التكذيب لكثير من الرسل المرسلين من قبلك فاقتد بهم ولا تحزن ، واصبر كما صبروا على ما كذبوا به وأوذوا ، حتى يأتيك نصرنا كما أتاهم ، فإنا لا نخلف الميعاد) <٣> .

والله سبحانه وتعالى وعد رسوله صلى الله عليه وسلم ـ بالنصر والتأييد كما نصر غيره من الرسل السابقين ، وإذا كان ذلك كذلك فالرسول صلى الله عليه وسلم ـ مكلف بأنه لا يحزن ، فإن الله تعالى سوف ينصره عليهم كما نصر غيره من الرسل السابقين ـ عليهم السلام .

---

١ ـ النسفى : هو عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى أبو البركات ، حافظ الدين ، فقيه حنفىٌ مفسّر ، نسبته إلى « نسف » ببلاد السند بين جيحون وسمرقند ، له مصنفات جليلة ، توفى سنة ٧١٠هـ .
الدرر الكامنة (٢ / ٣٥٢) الجواهر المضّية (٢ / ٢٩٤) الفوائد البهيّة (١٠١) مفتاح السعادة (٢ / ١٨٨) الأعلام (٤ / ٦٧) .
٢ ـ تفسير النسفى (٢ / ١٠) .
٣ ـ فتح القدير (٢ / ١١٢) .

فقد قال عز من قائل :

وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور ﴿٤﴾ ‹١›

وقال تعالى :

وإن يكذبوك فقد كذبت
قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ﴿٤٢﴾ وقوم إبراهيم وقوم لوط ﴿٤٣﴾
وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم
أخذتهم فكيف كان نكير ﴿٤٤﴾

‹٢›

وقال تعالى :

ولقد كذب أصحاب
الحجر المرسلين ﴿٨٠﴾ وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين
﴿٨١﴾ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ﴿٨٢﴾ فأخذتهم
الصيحة مصبحين ﴿٨٣﴾ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴿٨٤﴾

‹٣›

وقال الخازن فى تفسيره : لقوله تعالى « **حتى أتاهم نصرنا** » (يعنى بإهلاك من كذبهم ، « **ولا مبدل لكلمات الله** » يعنى ولا ناقض لما حكم الله به من إهلاك المكذبين ونصر المسلمين ، كما قال تعالى :

ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴿١٧١﴾ إنهم لهم المنصورون ﴿١٧٢﴾
وإن جندنا لهم الغالبون ﴿١٧٣﴾

‹٤›

---

١ ـ سورة فاطر : ٤ .

٢ ـ سورة الحج : ٤٢ ـ ٤٤ .

٣ ـ سورة الحجر : ٨٠ ـ ٨٤ .

٤ ـ سورة الصافات : ١٧١ ـ ١٧٣ .

وقال تعالى :

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ ‹١›

ولا خلف فيما وعد الله به) ‹٢› .

فالمقصود بـ « **كلمات الله** » وعد الله تعالى بالنصر ، فقد وعد الحق سبحانه وتعالى بنصر رسله عليهم الصلاة والسلام ، ووعد الله لا يتبدل ولا يتغير ولا يتخلف .

فقد قال عز من قائل :

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾ ‹٣›

وقال ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية الكريمة :

(هذه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتعزية له ، فيمن كذبه من قومه ، وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، ووعد بالنصر كما نصروا ، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة ، بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ ، ثم جاءهم النصر فى الدنيا كما لهم النصر فى الآخرة . ولهذا قال : « **ولا مبدل لكلمات الله** » : أى التى كتبها بالنصر فى الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين .

وقوله : « **ولقد جاءك من نبأ المرسلين** » أى من خبرهم ، كيف نُصروا وأُيِّدوا على من كذبهم من قومهم ، فلك فيهم أسوة ، وبهم قدوة) ‹٤› .

---

١ ـ سورة المجادلة : ٢١ .

٢ ـ تفسير الخازن (٢ / ١٠٧ ، ١٠٨) .

٣ ـ سورة غافر : ٥١ ، ٥٢ .

٤ ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢ / ١٩) .

ثالثاً : بيان الله لرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قادر على هداية قومه لو كان لديهم استعداد لذلك ، ليدفع عنه ما يصيبه من ألم وحزن على عدم إيمانهم :

دفعاً للحزن الذي في نفس الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما يلاقيه من قومه ، وتقوية له ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليقوى قلبه الشريف ويثبته سبحانه وتعالى على الحق ويمده بالقوة والصبر .

يقول له عز من قائل :

وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ
نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ
ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾

‹١›

معاني الكلمات :

« **وإن كان كبر عليك إعراضهم** » : أي إن عظم وشق عليك إعراضهم عن الإسلام ،

« **فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض** » : أي منفذا تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض حتى تخرج لهم آية يؤمنون بها ، والنفق : السِّرب .

« **أو سلماً في السماء** » أو تجعل لك سلماً في السماء ، فتصعد فيه فتأتيهم بآية أفضل مما آتيتهم به فافعل ‹٢› .

« **ولو شاء الله لجمعهم على الهدى** » : أي لجعلهم بحيث يختارون الهدى ولكن لما علم أنهم يختارون الكفر لم يشأ أن يجمعهم على ذلك .

« **فلا تكونن من الجاهلين** » ‹٣› .

---

١ ـ سورة الأنعام : ٣٥ .

٢ ـ تفسير النسفي (٢ / ١٠) .

٣ ـ تفسير ابن كثير (٢ / ١٩) .

المعنى الإجمالى للآية :

فى هذه الآية الكريمة يخاطب الحق سبحانه وتعالى نبيه وحبيبه سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ـ ويقول له : إن عَظُم وصَعبُ وشَقّ عليك إعراض قومك عن الإيمان بما جئتهم به من الحق والهدى ، وتكذيبهم لك ، فلو استطعت أن تطلب وتتخذ سرباً فى الأرض ، أو سلماً فى السماء وهى الدرج ، وذلك من أجل أن تأتيهم بآية أو معجزة لتحملهم على الإيمان ليؤمنوا بما جئتهم به ، فلو استطعت أن تفعل ذلك رجاء إيمانهم فافعل ، ولن يفعل صلى الله عليه وسلم .

فحينئذ يرشده الله تعالى إلى الصبر والتحمل فى تبليغ الدعوة ، فلا ييأس من عدم إيمانهم بالله الواحد الأحد ، بل يستمر فى تبليغ رسالته التى أرسله الله تعالى بها لهداية الناس ، وإخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان .

ويبين الله تعالى له أنه سوف يحاسبهم على إعراضهم وعدم إيمانهم ، فهذه هى الحقيقة ، لأنك يا محمد لا تستطيع أن تحملهم على الهداية والإيمان ، ولو شاء الله هدايتهم لحملهم على الهداية حملاً ، ولأكرههم عليها إكراهاً ، ولكنه جل ثناؤه لم يشأ ذلك ، لأنه ترك لهم الاختيار باعتبار كونهم بشراً ، والبشر هو الذى يختار أفعال نفسه الاختيارية ، فلا يجبر على فعل الخير ولا ترك الشر .

فلا تكون يا محمد من هؤلاء الجاهلين الذين لا يعلمون هذه الحقيقة ، وهى الصبر والتحمل على الأذى ، فإن الهداية من الله سبحانه وتعالى وإنما عليك أيها الرسول البلاغ المبين ، فلا تجهل ذلك .

التوضيح للآية :

قوله تعالى : « **وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء فتأتيهم بآية** » .

فى هذه الآية الكريمة يبين الحق سبحانه وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، قائلاً له : إنه إن كان عظم وشق عليك تكذيب قومك لك وإعراضهم ، وعدم إيمانهم بما جئتهم به من الحق والهدى من عند الله تعالى ، فلو استطعت يا محمد أن تستجيب إلى مطالبهم ومقترحاتهم لفعلت ذلك من أجل إيمانهم بما جئتهم به من عند الله تعالى ، فلا تحزن على ذلك ولا تتأذى من عدم إيمانهم ، لأن الله تعالى لو علم فيهم خيراً لآمنوا واستجابوا لك ، ولكنه تعالى لم يشأ ذلك ، بل ترك لهم حرية الاختيار باعتبار كونهم بشراً لأن البشر لهم حرية اختيار أعمالهم الاختيارية ، فلا يجبرون على فعل الخير وترك الشر .

ثم إن الله تعالى وجهه صلى الله عليه وسلم إلى ما ينبغى له أن يسلكه وهو أن يصبر على أذى قومه له .

ثم بين له جل ثناؤه أن الهداية من الله تعالى ، فلا يجهل هذه الحقيقة ، فلو شاء تعالى لهم الهداية لهداهم أجمعين .

قال الخازن فى تفسيره لهذه الآية الكريمة :

(ومعنى الآية : وإن كان كبر وعظم عليك إعراض قومك عن الإيمان بك ، فإن قَدَرتَ أن تذهب فى الأرض ، أو تصعد إلى السماء فتأتيهم بآية لهم على صدقك فافعل .

وإنما حسن حذف جواب الشرط ، لأنه معلوم عند السامع ، والمقصود من هذا أن يقطع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ طمعه في إيمانهم ، ولا يتأذى بسبب إعراضهم عنه وعن الإيمان به ، ويدل عليه قوله تعالى : « **ولو شاء الله لجمعهم على الهدى** » .

أخبر الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنهم إنما تركوا الإيمان ، وأعرضوا عنه ، وأقبلوا على الكفر بمشيئة الله تعالى ونافذ قضائه فيهم ، وأنه لو شاء لجمعهم على الهدى) ‹١› .

وقال الشوكاني في تفسيره لهذه الآية أيضاً : (كان النبى صلى الله عليه وسلم يكبر عليه إعراض قومه ، ويتعاظمه ، ويحزن له ، فبين له الله سبحانه وتعالى أن هذا الذى وقع منهم ، من توليهم عن الإجابة له ، والإعراض عما دعا إليه ، هو كائن لا محالة ، كما سبق فى علم الله عز وجل ، وليس فى استطاعته وقدرته إصلاحهم وإجابتهم قبل أن يأذن الله بذلك ، ثم علق ذلك بما هو محال ، فقال : « **فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض** » فتأتيهم بآية منه ، « **أو سلماً فى السماء فتأتيهم بآية** » منها فافعل ، ولكنك لا تستطيع ذلك فدَع الحزن ، كما قال تعالى :

أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا
فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ
عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ‹٢›

وكما قال تعالى :

فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ‹٣›

---

١ ـ تفسير الخازن (٢ / ١٠٨) .
٢ ـ سورة فاطر : ٨ .
٣ ـ سورة الغاشية : ٢١ ، ٢٢ .

وقيل : إن الخطاب ، وأن كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالمراد به أمته ، لأنها كانت تضيق صدورهم بتمرد الكفرة وتصميمهم على كفرهم ، ولا يشعرون أن الله سبحانه فى ذلك حكمة لا تبلغها العقول ولا تدركها الأفهام ، فإن الله سبحانه لو جاء لرسوله صلى الله عليه وسلم بآية تضطرهم إلى الإيمان لم يبق للتكليف الذى هو الابتلاء والامتحان معنى ، ولهذا قال : « **ولو شاء الله لجمعهم على الهدى** » جمعَ إلجاء وقسر ، ولكنه لم يشأ ذلك ، ولله الحكمة البالغة .

« **فلا تكونن من الجاهلين** » : فإن شدة الحرص والحزن لإعراض الكفار عن الإجابة قبل أن يأذن الله بذلك هو صنيع أهل الجهل ولست منهم ، فدع الأمور مفوضة إلى عالم الغيب والشهادة ، فهو أعلم بما فيه المصلحة ، ولا تحزن لعدم حصول ما يطلبونه من الآيات التى لو بدا لهم بعضها لكان إيمانهم بها اضطراراً) ‹١› .

وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى :

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ
جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا
كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ
عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ‹٢›

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى: « **ولو شاء الله لجمعهم على الهدى** » ، قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى ، فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة فى الذكر الأول ‹٣› .

---

١ ـ فتح القدير (٢ / ١١٢) .
٢ ـ سورة يونس : ٩٩ ، ١٠٠ .
٣ ـ تفسير ابن كثير (٣ / ١٩) .

رابعاً : بيان الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ، كنوع من التسلية ، أنه لا يستجيب لدعوة الإيمان إلا الذين يسمعون سماع قبول ، وأما الذين لا يسمعون فهم موتى القلوب :

يبين الحق سبحانه وتعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام ، كنوع من التسلية ، على تكذيب قومه له ، وعدم استجابتهم لدعوة الإيمان ، أنه لا يستجيب لذلك إلا الذين يسمعون سماع قبول ، وأما الذين لا يسمعون ولا يستجيبون فهم موتى القلوب .

وشبههم الله تعالى بذلك لأنهم لا يعقلون ولا يهتدون ، ثم إن مرجعهم ومآلهم إلى الله تعالى .

قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ‹١›

معانى الكلمات :

« **إنما يستجيب** » : أى يجيب دعاءك إلى الإيمان .

« **الذين يسمعون** » : أى سماع تفهم واعتبار .

« **والموتى** » : أى الكفار ، شبههم بالموتى فى عدم السماع .

« **يبعثهم الله** » : أى فى الآخرة .

« **ثم إليه يرجعون** » : يردون فيجازيهم بأعمالهم ‹٢› .

المعنى الإجمالى لهذه الآية الكريمة :

يبين الحق جل ثناؤه فى هذه الآية الكريمة لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم حقيقة هؤلاء الكفار فى عدم استجابتهم إلى دعوة الإيمان والهدى ، والانتفاع بها ، فهم شبه الموتى فى ذلك .

---

١ ـ سورة الأنعام : ٣٦ .

٢ ـ تفسير الجلالين (١٠٨) .

وأنه إنما يستجيب لدعوة الإيمان والهدى المؤمنون الذين شرح الله وفتح قلوبهم لسماع ذلك الحق المبين فاتبعوه وانتفعوا به ، دون غيرهم من الكفار الذين لا يسمعون ولا يستجيبون .

وأن الله تعالى سيبعثهم فى يوم القيامة ويجازيهم على ما عملوه فى دنياهم من خير وشر ، لأن مصير الخلائق جميعاً إلى الله تعالى .

التوضيح للآية :

فى هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حقيقة كل من المؤمنين والكافرين ، فيقرر أن المؤمنين هم وحدهم الذين يستجيبون لدعوة الإيمان والهدى ، التى جاءت بها الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وهم الذين يسمعون هذه الدعوة سماع قبول وانتفاع .

وأن الكفار عكس المؤمنين ، فهم لا يستجيبون لهذه الدعوة ، ولذلك شبههم الحق سبحانه وتعالى بالموتى الذين لا يسمعون ، ولا ينتفعون بشىء . وبعد ذلك بين الله تعالى أن مرجع الخلائق جميعاً إليه ، وأنه جل ثناؤه سيجازى كلا على عمله من خير أو شر .

قال ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية الكريمة : « **إنما يستجيب الذين يسمعون** » .

(أى إنما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه ، كقوله تعالى :

لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ ‹١›

وقوله : « **والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون** » يعنى بذلك الكفار ، لأنهم موتى القلوب ، فشبههم الله بأموات الأجساد ، فقال : « **والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون** » وهذا من باب التهكم بهم والازدراء عليهم) ‹٢› .

---

١ ـ سورة يس : ٧٠ .

٢ ـ تفسير ابن كثير (٣ / ١٩) .

خامساً : ومن تسلية الله لرسوله عليه الصلاة والسلام توجيهه له في كل حالة من الحالات التي تعرض له مما يحتاج فيها إلى توجيه ، كما يظهر ذلك في الحالات الآتية :

الحالة الأولى : إعلان الرسول عليه الصلاة والسلام للمعارضين له بأنه على بينة من ربه ، وأنه سيمضي في طريق الدعوة ، وأن الله هو الذي يحكم بينه وبينهم :

بعد ما سلَّى الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ، وحثه على الصبر على أذى قومه له ، بين له سبحانه وتعالى كيف يكون موقفه صلى الله عليه وسلم مع هؤلاء الخصوم المعارضين له ، وأنه على بصيرة من دعوتهم للإيمان بالله تعالى ، وذلك بما أوحاه إليه من الحق والهدى ، وأنه عليه الصلاة والسلام ، لا يملك أن يأتيهم بالعذاب الذى طلبوا تعجيلَهُ في الدنيا ، لأن أمره متروك إلى الله علام الغيوب ، فهو الذى يقضي فيه بالحق والعدل ، وهو خير الحاكمين ، وعالم بالظالمين ، وسوف يجازيهم على أعمالهم لأنه عادل في حكمه ، يُعطى كل ذى حق حقه .

قال الله تعالى :

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ ‹١›

---

١ ـ سورة الأنعام : ٥٦ ـ ٥٨ .

معانى الكلمات :

« **قل أنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله** » : أى صُرفت وزجرت بأدلة العقل والسمع عن عبادة ما تعبدون من دون الله .

« **قل لا أتبع أهواءكم** » : أى لا أجرى فى طريقتكم التى سلكتموها فى دينكم ، من اتباع الهوى دون اتباع الدليل .

« **قد ضللت إذاً** » : أى إن اتبعت أهواءكم فأنا ضال .

« **وما أنا من المهتدين** » : أى وما أنا من المهتدين فى شىء ، يعنى أنكم كذلك .

« **قل إنى على بينة من ربى** » : أى على حجة واضحة .

« **وكذبتم به** » : حيث اشركتم به غيره .

« **ما عندى ما تستعجلون به** » : يعنى العذاب الذى استعجلوه فى قولهم :

وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ <١>

« **إن الحكم إلا لله** » : أى فى تأخير عذابكم .

« **يقص الحق وهو خير الفاصلين** » : أى يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدره لأنه تعالى خير القاضين بالقضاء الحق .

« **قل لو أن عندى ما تستعجلون به** » : أى فى قدرتى وإمكانى من العذاب الذى تستعجلون وقوعه .

« **لقضى الامر بينى وبينكم** » : أى لأهلكتكم عاجلاً غضباً لربى .

« **والله أعلم بالظالمين** » :فهو ينزل عليكم العذاب فى وقت يعلم أنه أردع<٢>.

---

١ ـ سورة الأنفال : ٣٢ .

٢ ـ تفسير النسفى (٢ / ١٤ ، ١٥) .

المعنى الإجمالى للآيات :

يخاطـــب الحـــق سبحانـــه وتعالى فى هذه الآيات الكريمة نبيه محمداً صلى الله عليه وسلـم ويأمـره بأن يقـــول لقومـــه المشركين المعترضين : إننى نهيت عن عبادة هذه الأصنـــام التى زعموا أنها آلهة ، وعبدوها من دون الله ، وأنها لا تملك الضر ولا النفع .

وفى ذلك تنبيـهـه على سبب ضـلالهم ، وأنه صلى الله عليـه وسلم لو اتبع أهواءهم فى ذلك لا يكون من المهتدين .

وأن عليـه أن يبين لهم أنه على بصيرة من دعوتهـم للإيمان بالله تعالى ، وذلك بما أوحاه الله إليه من الحق والهدى .

فهؤلاء كذبوا بما جئتهم به ، وأنت لا تملك أن تأتيهم بالعذاب الذى طلبوا تعجيله فى الدنيا ، لأن هذا العذاب أمره متروك إلى الله وحده ، فهو الذى يقضى فيه بالحق والعدل ، ويحكم بينى وبينكـم ، وهـــو خير الحاكمين ، ولو كان الأمر بينى وبينكم لانتهى ذلك الأمر ، ولكن اللـه سبحانه وتعالى هو العالم بالظالمين ، وسوف يجازيهم على أعمالهم لأنه عادل فى حكمه ، فهو يُعطى كل ذى حق حقه .

التوضيح للآيات :

فى هذه الآيات الكريمة يوجـه الله تعالى رسوله صلى الله عليـه وسلم ، ويبين له كيف يكون موقفه مع خصومه المعارضين له من قومه ، وذلك بأن يبين لهم أنه عليه الصلاة والسلام على حق ويقين من دعوته دعوة الإيمان ، وأنهم على باطـــل وضلال فيمـــا دعـوه إليـــه ، وما كذبـوا بـــه ، وأنـــه صلى الله عليه وسلم لا يملك تعجيل العذاب الذى طلبوا أن يأتيهم به فى الدنيا ، لأن أمر ذلك لله تعالى وحده ، وهو الذى يحكم به .

كما أنه سبحانه وتعالى عالم ومطلع على أحوال كل منهم ، وهو جل ثناؤه عادل فى حكمه ، يعطى كل شخص ما يستحق ، جزاء عمله الذى عمله من خير أو شر .

قال الخازن فى تفسيره للآية الكريمة : « **قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله** » الآية .

(قوله تعالى : « **قل** » : أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين ، « **إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله** » : يعنى : نهيت أن أعبد الأصنام التى تعبدونها أنتم من دون الله .

وقيل تدعونها عند شدائدكم من دون الله ، لأن الجمادات أخس من أن تُعبد أو تُدعى ، وإنما كانوا يعبدونها على سبيل الهوى ، وهو قوله تعالى : « **قل لا أتبع أهواءكم** » يعنى فى عبادة الأصنام وطرد الفقراء .

« **قد ضللت إذاً** » : يعنى إذا عبدتها ، « **وما أنا من المهتدين** » : يعنى لو عبدتها) <١> .

وقال ابن كثير فى تفسيره لقوله تعالى :

« **قل إنى على بينة من ربى** » : (أى على بصيرة من شريعة الله تعالى التى أوحاها الله إليّ ، « **وكذبتم به** » : أى بالحق الذى جاءنى من الله ، « **ما عندى ما تستعجلون به** » : أى من العذاب ، « **إن الحكم إلا لله** » : أى إنما يرجع أمر ذلك إلى الله ، إن شاء عجل لكم ما سألتموه من ذلك ، وإن شاء أنظركم وأجلكم ، لما له فى ذلك من الحكمة العظيمة ، لهذا قال : « **يقص الحق وهو خير الفاصلين** » أى وهو خير من فصل القضايا ، وخير الفاتحين فى الحكم بين عباده .

---

١ ـ تفسير الخازن (٢ / ١١٥) .

وقـوله : « **قل لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم** » : أى لو كان مرجع ذلـك إلىَّ لأوقعـت لكـم مـا تستحقونه مـن ذلـك) ‹١› .

وقال الخازن فى تفسير قوله تعالـى : « **ما عندى ما تستعجلون به** » (يعنى العذاب ، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخوفـهم بنزول العذاب عليهم ، وكانوا يستعجلون به استهزاءً ، وكانوا يقولون : يا محمـد ائتنا بما تعدنا من نزول العذاب ، فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقـول لهـم : « **ما عندى ما تستعجلون به** » لأن إنـزال العذاب ، لا يقـدر عليه إلا الله تعالى ، ولا يقدر أحد على تقديمه ولا تأخيره .

وقيل : كانوا يستعجلون بالآيات التى طلبوها واقترحوها ، فأعلم الله أن ذلك عنده ليس عند أحد من خلقه

وقيل : كانوا يستعجلون بقيام الساعة ومنه قوله تعالى :

ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ
أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾
‹٢›

وقال الشوكانى فى تفسير قوله تعالى :« **ما عندى ما تستعجلون به** » : (أخبرهم بأنه لم يكن عنده ما يتعجلونه من العذاب ، فإنهم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله استهزاء نحو قوله تعالى :

أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ ‹٣›

---

١ ـ تفسير ابن كثير (٢ / ٣٠) .

٢ ـ سورة الشورى : ١٧ ، ١٨ .

انظر : تفسير الخازن (٢ / ١١٥) .

٣ ـ سورة الإسراء : ٩٢ .

وقولهم : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ ‹١›

وقولهم :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ‹٢›

وقيل :« **ما عندى ما تستعجلون به** » من الآيـات التى تقترحونها عليّ . وقوله : « **إن الحكم إلا لله** » : أى ما الحكم فى كل شيء إلا لله سبحانه ومن جملة ذلك ما تستعجلون به من العذاب أو الآيات المقترحة ، والمراد : الحكم الفاصل بين الحق والباطل) ‹٣› .

وقال الخازن فى تفسير قوله تعالى :

« **إن الحكم إلا لله** » : (يعنى الحكم الذى يفصل به بين الحق والباطل ، والثواب للطائع ، والعقاب للعاصى ، أى ما الحكم المطلق إلا لله ، ليس معه حَكَمٌ فهو يفصل بين المختلفين ، ويقضى بإنزال العذاب إذا شاء .

« **يقص الحق** » : قـــرئ بالصـــاد المهملة ، ومعناه : يقول الحق لأن كل ما أخبر به فهو حق ،وقرىء « يَقْضِي » بالضاد المعجمة ،من القضاء ، يعنى أنه تعالى يقضى القضاء الحق . ‹٤›

« **وهو خير الفاصلين** » يعنى : وهو خير من بَيَّن وفصل وميز بين المحق والمبطل ، لأنه لا يقع في حكمه وقضائه جور ولا حيف على أحد من خلقه.

---

١ ـ سورة الأنفال : ٣٢ .

٢ ـ سورة يس : ٤٨ .

٣ ـ فتح القدير (٢٠ / ١٢٢) .

٤ ـ وهما قراءتان صحيحتان (انظر : « كتاب السبعة القراءات لابن مجاهد ٢٥٩ ») .

أختلفوا في الصاد والضاد من قوله : « يقص الحق » .

فقرأ ابن كثير ونافع وعاصم « يقص » بالصاد . وقرأ أبو عمرو وحمزه وابن عامر والكسائى « يقضى الحق » بالضاد .

وقوله : « **قل لو أن عندى ما تستعجلون به** » يعنى من إنزال العذاب ، والاستعجال : المطالبة بالشيء قبل وقته ، فلذلك كانت العجلة مذمومة ، والإسراع : تقديم الشيء فى وقته ، فلذلك كانت السرعة محمودة .

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين المستعجلين لنزول العذاب : لو أن عندى ما تستعجلون به لم أمهلكم ساعة ، ولكن الله حليم ذو أناة ، لا يعجل بالعقوبة .

وقوله تعالى : « **لقضى الأمر بينى وبينكم** » يعنى لانفصل ما بينى وبينكم ، ولأتاكم ما تستعجلون به من العذاب .

« **والله أعلم بالظالمين** » يعنى أنه أعلم بما يستحقون من العذاب ، والوقت الذى يستحقونه فيه .

وقيل : علم أنه سيؤمن بعض من كان يستعجل بالعذاب ، فلذلك أخره عنهم ، قال : « **والله أعلم بالظالمين** » وبأحوالهم) <١> .

فالحق سبحانه وتعالى عادل فى حكمه ، فهو يعطى كل ذى حق حقه ، كما قال تعالى :

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ <٢>

١ ـ تفسير الخازن (٢ / ١١٦) .

٢ ـ سورة النساء : ٤٠ .

الحالة الثانية : تحديــــد وظيفـــة الرســـول صلى الله عليه وسلم ، وهى التبشير والإنذار ، وأنه ليس بوكيل على قومه :

يسلى الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويحـــدد لــه ما كُلف به بأنه بشير ونذيــر ، وأنـــه لا يملــك الضر ولا النفع ، ولا يعلم الغيب ، وأنـــه صلى الله عليه وسلم ليس بمسيطر على الناس ولا على عقائدهم ، وأنه عليه الصلاة والسلام إذا أدى وظيفته فقد أدى حق الله الذى عليه ، فلا يهتم بعد ذلك بتكذيب قومه له ، فإنما حسابهم على الله .

أما ما كلف به فهو تبليغ الرسالة التى من أجلها أرسل ، وهى دعوتهم إلى الإيمان بالله الواحد الأحد ، والنهضة بهذه الدعوة دون مبالاة بتكذيب المكذبين ، ومعاندة المعاندين له ـ عليه الصلاة والسلام .

قال عز من قائل :

﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١)

معانى الكلمات :

« **وكذب به قومك** » : الضمير راجــع إلى القرآن ، أو إلى العذاب ، وقومه المكذبون : هم كفار قريش ، وقيل : كل معاند .

« **وهو الحق** » : فى محل نصب على الحال : أى كذبوا بالقرآن أو العذاب والحال أنه حق .

« **قل لست عليكم بوكيل** » : أى لست بحفيظ على أعمالكم حتى أجازيكم عليها .

---

١ ـ سورة الأنعام : ٦٦ ، ٦٧ .

« **لكل نبأ مستقر** »:أى لكل شىء وقت يقع فيه ، وقيل : لكل عمل جزاء ، والنبأ : الشىء الذى ينبأ عنه ، ولا يطلق إلا على الخبر العظيم .

« **وسوف تعلمون** » : ذلك بحصوله ونزوله بهم كما علموا يوم بدر بحصول ما كان النبى صلى الله عليه وسلم ، يتوعدهم به (١) .

المعنى الإجمالى للآيتين :

فى هاتين الآيتين يبين الحق سبحانه وتعالى أن قومه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم كفار قريش ، قد كذبوا بالقرآن المنزل عليه صلى الله عليه وسلم ، وأنه حق من عند الله . أو كذبوا بالعذاب ، وأنه أيضاً حق من عند الله .

فأمره الله تعالى بأن يقول لهؤلاء المكذبين المعاندين أنه لا سيطرة ولا سلطان له عليهم ، وإنما مهمته صلى الله عليه وسلم هى تبليغ الحق الذى جاءهم به من عند الله إليهم ، والقرآن الذى فيه خيرهم وصلاحهم ، وأن لكل شيء وقتاً ومعاداً ، يتحقق فيه ، ليجزى كلٌّ بما عمل ، وسوف يعلمون ذلك حين يأتى ذلك الوقت ، وتظهر فيه الحقائق ، وينال كل واحد جزاء ما عمل من خير أو شر ، فيظهر الحق الذى لا مرية ولا شك فيه .

التوضيح للآيتين :

يبين الله تعالى فى هاتين الآيتين موقف المشركين المكذبين بالقرآن الكريم ، أنه منزّل من عند الله تعالى ، وأنه حق لا شك فيه ، أو المكذبين بالعذاب الذى يخوفهم منه ، عليه الصلاة والسلام .

---

١ ـ فتح القدير (٢ / ١٢٨) .

وأن على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبين لهؤلاء المعاندين أنه عليه أفضل ـ الصلاة والسلام ـ ليس بمسيطر أو متسلط على عقائدهم وأعمالهم ليجازيهم عليها ، وإنما مهمته عليه الصلاة والسلام التى أرسل بها من عند رب العزة هى التبليغ ، ودعوتهم إلى ما فيه صلاحهم وخيرهم فى الدنيا والآخرة ، وأن لكل شىء مهم وعظيم وقتاً ومعاداً يتحقق وقوعه فيه ، لكى يجزى كلٌّ عامل بما عمل ، وذلك عندما تظهر الحقائق ، ويظهر الحق الذى لا شك فيه ، فينال كل عامل جزاء ما عمل ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وسوف يعلمون ذلك عند ظهور الحقائق .

قال ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية الكريمة :

« وكذب به قومك وهو الحق » :

(يقول تعالى : « **وكذب به** » أى بالقرآن الذى جئتهم به ، والهدى والبيان ، « **قومك** » : يعنى قريشاً ، « **وهو الحق** » : أى الذى ليس وراءه حق . « **قل لست عليكم بوكيل** » : أى لست عليكم بحفيظ ، ولست بموكل بكم .

كقوله تعالى :

وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن
شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا
وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ
ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

‹١›

أى إنما علىَّ البلاغ ، وعليكم السمع والطاعة ، فمن اتبعنى سعد فى الدنيا والآخرة ، ومن خالفنى فقد شقى فى الدنيا والآخرة .

---

١ ـ سورة الكهف : ٢٩ .

ولهذا قال : « **لكل نبأ مستقر** » .

قال ابن عباس وغير واحد : أى لكل نبأ حقيقة ، أى لكل خبر وقوع ، ولو بعد حين .

كما قال تعالى :

وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ‹١›

وقال تعالى :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ‹٢›

وهذا تهديد ووعيد أكيد ، ولهذا قال بعده « **وسوف تعلمون** ») ‹٣› .

وقال الإمام الخازن فى تفسيره للآية الكريمة : « **لكل نبأ مستقر** » (أى لكل خبر من أخبار القرآن حقيقة ومنتهى ينتهى إليه ، إما فى الدنيا وإما فى الآخرة .

وقيل : لكل خبر يُخبر الله به وقت ومكان يقع فيه من غير خُلف ولا تأخير ، فكان ما وعدهم به من العذاب فى الدنيا وقع يوم بدر، « **وسوف تعلمون** » : يعنى صحة الخبر ، إما فى الدنيا وإما فى الآخرة) ‹٤› .

وقال الزجاج : (يجوز أن يكون وعيداً لهم بما ينزل بهم فى الدنيا .

وقال الحسن : هذا وعيد من الله للكفار لأنهم كانوا لا يقرون بالبعث)‹٥› .

---

١ ـ سورة ص : ٨٨ .

٢ ـ سورة الرعد : ٣٨ .

٣ ـ تفسير ابن كثير (٣ / ٤٢) .

٤ ـ تفسير الخازن (٢ / ١١٩) .

٥ ـ فتح القدير (٢ / ١٢٨) .

الحالة الثالثة : نهى الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يجالس الخائضين في آيات الله وحكم مجالستهم :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأحيان يجالس قومه ، ويسمع منهم الخوض في الباطل ، وبمقتضى كونه رسولاً وهادياً وداعياً إلى الله لا يحل له أن يستمع إلى ما يقال من الباطل ، فنهاه الله عز وجل عن مجالستهم ، وألا يجلس مع هؤلاء في مثل هذه المجالس التي فيها الباطل والشر والفساد والاستهزاء .

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ‹١›

معاني الكلمات :

« **وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا** » ، « **يخوضون** » : أي يستهزءون ويطعنون ، و« **في آياتنا** » : أي في آيات القرآن الكريم ، وكانت قريش في أنديتهم يفعلون ذلك .

« **فأعرض عنهم** » أي لا تجالسهم وقم عنهم .

« **حتى يخوضوا في حديث غيره** » : أي غير القرآن مما يحل ، فحينئذ يجوز أن تجالسهم .

« **وإما ينسيك الشيطان** » : أي ينسك ما نهيت عنه .

---

١ ـ سورة الأنعام : ٦٨ ، ٦٩ .

« **فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين** » : أى فلا تجلس بعد أن تتذكر مع هؤلاء المشركين .

« **وما على الذين يتقون من حسابهم** » : أى ماعليهم شيء من حساب هؤلاء الذين يخوضون فى آيات القرآن تكذيباً واستهزاءً .

« **من شىء** » : أى إثم ، أى ليس عليهم إثم ولا يحاسبون على هذا .

« **ولكن ذكرى** » : أى ولكن عليهم أن يذكروهم ذكرى ، وذلك إذا سمعوهم يخوضون ، بالقيام عنهم ، وإظهار الكراهية لهم وموعظتهم .

« **لعلهم يتقون** » : أى لعلهم يجتنبون الخوض حياءً أو كراهة لمساءتهم (١).

المعنى الإجمالى للآيتين :

يبين الله تعالى فى هاتين الآيتين ما يجب أن يكون عليه حال الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين مع الكفار ، فلقد كان صلى الله عليه وسلم فى بعض الإحيان يجلس معهم ليدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى وليبين لهم الدين الحق ، فكانوا فى أثناء جلوسه عليه الصلاة والسلام معهم يخوضون فى آيات القرآن التى جاءهم بها من عند الله تعالى ، ويستهزءون بها ويسخرون منها .

فبين الحق سبحانه وتعالى له أنه يجب عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعرض عنهم هو ومن معه من المؤمنين فى أثناء الخوض والاستهزاء حتى ينتهوا منه ، ثم له ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحق بعد ذلك فى أن يجالسهم ، هو ومن معه من المؤمنين ، ويتحدثوا إليهم فى أمور الدعوة إلى الله تعالى ، فإذا خاضوا فليبعدوا عنهم .

---

١ ـ تفسير النسفى (٢ / ١١٨) بتصرف .

ثم بين الله تعالى له صلى الله عليه وسلم أنه لو قدر له صلى الله عليه وسلم أو لأحد من المؤمنين إن نسى هذا التوجيه ، وجلس معهم ، فعليه صلى الله عليه وسلم ، وعلى أمته أن يتجنبوا هذه المجالس فى مستقبل الأيام .

ثم بين الله تعالى لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يترتب على هذا المنع من مجالسة هؤلاء الخائضين فإنه لا إثم عليهم فى ذلك ، وإنما هذا المنع لحكمة عظيمة ، وهى أن ينتفع هؤلاء الكفار بهذا الإعراض ، فيكفوا عن الخوض فى القرآن بالباطل .

التوضيح للآيتين :

فى هاتين الآيتين الكريمتين توجيه من الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ولأمته : كيف يكون موقفهم من هؤلاء المشركين المتعنتين عندما يخوضون فى آيات القرآن بالباطل والاستهزاء ، وهو : ألا يجالسهم فى ذلك الوقت ، حتى يتكلموا فى حديث آخر غير الخوض فى آيات الله ، فعند ذلك يدعوهم إلى الحق والهدى ، ويبين لهم حقيقة ما جاءهم به من عند الله .

ولو فرض أن الرسول صلى الله عليه وسلم نسى هذا التوجيه ، أو أحداً من المؤمنين ، وجلس معهم وهم يخوضون فى آيات القرآن بالباطل ، فعليه أن يتذكر ذلك فى المجالس القادمة ، فلا يجلس معهم .

وهذا المنع من الله تعالى ليس على أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحاسب على أعمال الكفار ، أو أن المؤمنين يحاسبون على ذلك ، أو أن الكفار يحاسبون على أعمال المؤمنين ، ليس ذلك ، وإنما لكل واحد منهم حسابه الخاص به على أعماله التى عملها فى حياته .

ولكن هذا التذكير لحكمة عظيمة ، لعل هؤلاء الكفار ينتهون عن الخوض فى آيات الله ، ويكـــون ذكـــرى لمن عنـــده اسـتـعـداد لقبـول الهـداية والانتفاع بها ، فينتفع بها ويتقى الله تعالى .

فقوله تعالى : « **وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا** » .

هل الخطاب فى هذه الآية مـوجـه إلــــى الرسـول صلى الله عليـه وسلم خاصة ؟ أو إلى كل من يتأتى منه الرؤية ؟ .

قيل : بهذا ، وقيل : بهذا .

قال الخازن فى تفسيره لهذه الآية : (الخطاب فى قوله « **وإذا رأيت** » للنبى صلى الله عليه وسلم .

والمعنى : وإذا رأيت يا محمد هؤلاء المشركين الذين يخوضـون فى آياتنا يعنى القرآن الذى أنزلناه إليك .

وقيل : الخطاب فى الآية لكل فرد من الناس .

والمعنى : وإذا رأيت أيهـا الإنسـان الذين يخـوضـون فى آياتنا ، وذلك أن المشركين كانوا إذا جالسوا المؤمنين وقعوا فـــى الاستهزاء بالقـرآن ، وبمن أنزله ، وبمن أُنزل عليه ، فنهـاهم الله أن يقـعـدوا مـعـهم فى وقت الاستـهزاء ، بقـوله : « **فأعرض عنهم** » يعنى فاتركهم ولا تجالسـهم ، والخوض أكثر مـــا يستعمـــل فى الحديث علـــى وجـــه اللعـب والعبث وما يذم عليه ، ومنه قوله تعالى :

وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ (١)

---

١ ـ سورة المدثر : ٤٥ .

وقوله : « **حتى يخوضوا فى حديث غيره** » يعنى حتى يكون خوضهم فى غير القرآن والاستهزاء به) ‹١› .

فالحق سبحانه وتعالى نهى النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن الجلوس مع المشركين عندما يخوضون ويستهزءون بآيات القرآن ويكذبون بها فى ذلك الوقت بقوله تعالى : « **فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره** » ثم وجه الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم بقوله عز من قائل : « **وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين** » .

فالخطاب هنا موجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى أمته ، فلو حدث نسيان وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أصحابه رضوان الله عليهم معهم لتبليغهم دعوة الإيمان ، وحدث منهم الخوض ، فعليه صلى الله عليه وسلم أن ينصرف ، وعلى المؤمنين كذلك أن ينصرفوا من هذا المجلس ، الذى يستهزءون فيه بكلام الله تعالى ويكفرون به ، فبعد هذا التذكير والنهى عن مجالسة هؤلاء لا يحل لأحد منهم أن يجلس مع هؤلاء الكفرة الظلمة .

ثم ذكر الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك ما يترتب على هذا المنع وهو عدم مجالسة هؤلاء الخائضين فى آيات الله بالباطل .

فقال عز من قائل : « **وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء** » أى ليس على هؤلاء المؤمنين الذين يخافون الله ويبتعدون عن مجالسة هؤلاء الخائضين أى إثم .

---

١ ـ تفسير الخازن (٢ / ١٢) .

قال الخازن فى تفسيره لهذه الآية : (قال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية : « **وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم** » قال المسلمون : كيف نقعد فى المسجد الحرام ، ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبداً ؟

وفى رواية : « قال المسلمون : إنا نخاف الإثم حين نتركهم ولا ننهاهم » .

فأنزل الله هذه الآية : « **وما على الذين يتقون** » يعنى الشرك والاستهزاء « **من حسابهم** » من حساب المشركين ، « **من شيء** » يعنى ليس عليهم شىء من حسابهم ولا آثامهم ، « **ولكن ذكرى** » يعنى ذكروهم ذكرى .

وقيل : معناه : ولكن عليكم أن تذكروهم « **لعلهم يتقون** » يعنى : لعل تلك الذكرى تمنعهم من الخوض والاستهزاء) ‹١› .

هل يحل للمسلم أن يجلس فى مجلس يعصى فيه الله ؟

أجاب عن ذلك الخازن فقال عند تفسير قوله تعالى :

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ‹٢›

قال : « قال العلماء : وهذا يدل على أن من رضى بالكفر فهو كافر ، ومن رضى بمنكر ، أو خالط أهله كان الإثم بمنزلتهم إذا رضى به وإن لم يباشره ، فإن جلس إليهم ولم يرض بفعلهم ، بل كان ساخطاً له ، وإنما جلس على سبيل التقيَّة والخوف ، فالأمر فيه أهون من المجالسة مع الرضا ، وإن جلس مع صاحب بدعة أو منكر ولم يخض فى بدعته أو منكره فيجوز الجلوس معه مع الكراهة .

وقيل : لا يجوز بحال . والأول أصح » ‹٣› .

---

١ ـ تفسير الخازن (٢ / ١٢٠) .

٢ ـ سورة النساء : ١٤٠ .

٣ ـ تفسير الخازن (٢ / ٥٠٩) .

بحث فى نسيان رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ذكرت الآية الكريمة نسيان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسندت ذلك النسيان إلى الشيطان .

فهل الرسول صلى الله عليه وسلم يمكن أن ينسى ؟

وهل يكون للشيطان تأثير عليه صلى الله عليه وسلم فى نسيانه ؟

الجواب عن ذلك :

للعلماء فى هذا آراء مختلفة .

والذى يترجح عندى من هذه الآراء أن النسيان جائز على الرسول صلى الله عليه وسلم ـ فى غير الوحى وما أمر بتبليغه من الدين ، فالوحى والدين لا يمكن أبداً أن ينسى الرسول صلى الله عليه وسلم تبليغ شىء منه .

يقول الحق تعالى :

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾ (٢)

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝٦٧﴾ (٣)

---

١ ـ سورة الأعلى : ٦ ، ٧ .

وقوله : « سنقرئك » أى القرآن . « فلا تنسى » أى ما تقرؤه .

« إلا ما شاء الله » أن تنساه بنسخ تلاوته وحكمه . وكان صلى الله عليه وسلم يجهر بالقراءة مع قراءة جبريل خوف النسيان .

فكأنه قيل له : لا تعجل بها إنك لا تنسى ، فلا تتعب نفسك بالجهر بها . (تفسير الجلالين ، ٥٠٨) .

٢ ـ سورة المائدة : ٦٧ .

وعلى فرض أنه صلى الله عليه وسلم نسى شيئاً مما أُمر بتبليغه فإن الوحى يسارع إلى تنبيهه حتى يتم ما أمره الله بتبليغه . هذا فيما يتصل بأمر الوحى وتبليغ الدين .

أما الأمور التى لا تتعلق بتبليغ الوحى فهذه يمكن أن يقع فيها النسيان ، باعتباره صلى الله عليه وسلم بشراً يجرى عليه ما يجرى على البشر ، من نسيان وغيره ، حيث لا يترتب على النسيان أى ضرر من حيث تبليغ الدين ، ودليل ذلك :

أولاً : هذه الآية الكريمة ، قال تعالى : « **وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين** » .

ثانياً : أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد حصل منه النسيان فعلاً .

فقد روى البخارى ومسلم بسنديهما عن إبراهيم <١> عن علقمة <٢> ، قال : قال عبد الله <٣> : صلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال إبراهيم : (لا أدرى زاد أو نقص) فلما سلَّم قيل له : يا رسول الله ، أحدث فى الصلاة شىء ؟ قال : (وما ذاك) ؟ قالوا : صليت كذا وكذا ، فثنى رجليه ، واستقبل القبلة ، وسجد سجدتين ثم سلَّم ، فلما أقبل علينا بوجهه قال : « إنه لو حدث فى الصلاة شىء لنبأتكم به ، ولكن إنما أنا بشر مثلكم ،

١ ـ إبراهيم النخعى وهو أحد رواة الحديث .

٢ ـ علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك أبو شبل النخعى الكوفى ، ثقة ثبت فقيه عابد مخضرم ، مات بين الستين والسبعين عن تسعين عاماً .

طبقات ابن سعد (٦ / ٨٦) وتاريخ ابن معين (٢ / ٤١٥) والثقات للعجلى (٣٣٩) والحلية (٢ / ٩٨) وتاريخ بغداد (١٢ / ١٩٦) والتهذيب (٧ / ٢٧٦) .

٣ ـ وعبد الله هو : عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكرونى ، وإذا شك أحدكم فى صلاته فليتحرَّ الصواب فليتم عليه ، ثم ليسلم ثم يسجد سجدتين <١> .

وروى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً ، الظهر أو العصر ، فلما انصرف قيل له : يا رسول الله أزيد فى الصلاة ؟ قال : « لا » ، قالوا : فإنك صليت خمساً ، قال : فسجد سجدتى السهو ، ثم قال : « إنما أنا بشر ، أذكر كما تذكرون ، وأنسى كما تنسون » <٢> .

وقال ابن حجر فى شرحه لهذا الحديث : « وفيه دليل على جواز وقوع السهو من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فى الأفعال .

قال ابن دقيق العيد <٣> : وهو قول عامة العلماء والنظار ، وشذت طائفة فقالوا : لا يجوز على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ السهو ، وهذا الحديث يَرُدُّ عليهم لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيه « أنسى كما تنسون » ولقوله « فإذا نسيت فذكرونى » أى بالتسبيح ونحوه » <٤> .

---

١ ـ صحيح البخارى (كتاب الصلاة ، باب التوجه نحو القبلة .. ، ١ / ١١٠) وصحيح مسلم (كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب السهو فى الصلاة والسجود له ، ١/٠٠٤) ، واللفظ للبخارى .

٢ ـ مسند الإمام أحمد (١ / ٤٢٠) وانظر :مسند الإمام أحمد أيضاً تحقيق أحمد محمد شاكر ، قال : إسناده صحيح (٦/٣٦) .

٣ ـ ابن دقيق العيد : هو محمد بن على بن وهب بن مطيع أبو الفتح تقى الدين القشيرى ، قاض مجتهد ، من أكابر العلماء بالأصول والحديث ، ولى قضاء الديار المصريّة سنة (٦٩٥هـ) فاستمرّ إلي أن توفى بالقاهرة سنة (٧٠٢هـ) وكان مولده سنة (٦٢٥هـ) .

البداية والنهاية (١٤ / ٢٧) والبدر الطالع (٢ / ٢٢٩) وطبقات الشافعية للسبكى (٩ / ٢٠٧) والتذكرة (٢ /١٤١٨) وحسن المحاضرة (١ / ٣١٧) ، (٢ / ١٦٨) والدرر الكامنة (٤ / ٢١٠) والطالع السعيد (٣١٧) والنجوم الزاهرة (٨ / ٢٠٦) .

٤ ـ فتح البارى شرح صحيح البخارى (كتاب الصلاة ، باب التوجة نحو القبلة ، ١ / ٥٠٤) .

وإنما كان السهو يقع لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليكون ذلك تشريعاً لأمته فى حالة ما إذا نسوا أو سهوا .

وعن مالك أنه بلغه أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إنى لأنسىَ أو أُنَسَّى لأسُنَّ » .

هذا من بلاغات مالك ، وبلاغات مالك يمكن أن يحتج بها ، فإنها لا تقل عن درجة الصحيح .

وقال سفيان : إذا قال مالك : بلغنى فهو إسناد صحيح .

وما روى عن الحافظ بن حجر فى « الفتح » بأنه لا أصل له ، فليس معناه أنه حديث موضوع لا يحتج به ، وإنما معناه أنه ضعيف ، وأنه قسم من أقسام الحديث الضعيف ، أفاده الزرقانى <١> .

وأخرج الشيخان بسنديهما عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ رجلاً يقرأ فى سورة بالليل ، فقال : « يرحمه الله ، لقد أذكرنى كذا وكذا آية كنت أنسيتُها من سورة كذا وكذا » <٢> .

---

١ ـ شرح الزرقانى على موطأ الإمام مالك (١ / ٩٥) العمل في السهو (٢٠٥) .
والزرقانى : هو محمد بن عبد الباقى بن يوسف بن أحمد بن علوان الزرقانى المصرى المالكى أبو عبد الله (١٠٥٥ ـ ١١٢٢ هـ) فقيه أصولى خاتمة المحدثين بالديار المصرية ، مولده ووفاته بالقاهرة . عجائب الآثار للجبرتى (١ / ٦٩) وفهرس الفهارس للكتانى (١ / ٣٤٢) والرسالة المستطرفة (١٤٣) وهدية العارفين (٢ / ٣١١) والأعلام (٦ / ١٨٤) ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة (١٠ / ١٢٤) .

٢ ـ صحيح البخاري (كتاب التفسير ، باب نسيان القرآن وهل يقول نسيت آية كذا وكذا ، ٦/ ٢٣٩) .
وصحيح مسلم (كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضائل القرآن وما يتعلق به ، ١/ ٥٤٣) .

وفى رواية أخرى عنها قالت : سمع النبى صلى الله عليه وسلم رجلاً يقرأ فى المسجد ، فقال : « رحمه الله ، لقد أذكرنى كذا وكذا آية ، أسقطتهن من سورة كذا وكذا » .

وزاد عبَّاد بن عبد الله <١> عن عائشة : تَهجدَّ النبى صلى الله عليه وسلم فى بيتى ، فسمع صوت عبَّاد <٢> يصلى فى المسجد ، فقال :« يا عائشة ، أصوت عبَّاد هذا ؟ » قلت : نعم . قال : « اللهم ارحم عبَّاداً » <٣> .

وثبت كما جاء فى صحيح البخارى ومسلم :

أن الرسول صلى الله عليه وسلم أراد أن يخبر أصحابه بتعيين ليلة القدر فنسيها ، حيث قال صلى الله عليه وسلم : « إنى أُريت ليلة القدر ، وإنى نُسِّيتُها ، فالتمسوها فى العشر الأواخر من وِتْرٍ ، فإنى رأيت أنى إسجُدُ فى ماء وطين ، ومن كان اعتكف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

١ ـ عباد بن عبد الله بن الزبير بن العوَّام ، الإمام الكبير القاضى أبو يحي القرشي الأسدى ، كان عظيم المنزلة عند والده أمير المؤمنين ، فاستعمله على القضاء وغير ذلك . ثقة ، حدث عن أبيه وجدته أسماء وخالة أبيه عائشة .

نسب قريش للزبير بن بكار (١ / ٧٠) تحقيق محمود شاكر ، وتاريخ البخارى (٦ / ٣٢) والمعارف (٢٢٦) وسير أعلام النبلاء (٤ / ٢١٧) والعقد الثمين (٥ / ٨٩) والتهذيب (٥ /٩٨) والتقريب (١ / ٣٩٢) .

٢ ـ عباد بن بشر بن وقش بن زغبة بن زعوراء بن عبد الاشهل ، أبو الربيع الأنصارى ، أحد البدريين ، كان من سادة الأوس كبير القدر . وهو الذى أضاءت له عصاته ليلة انقلب إلى منزله من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان أحد من قتل كعب بن الأشرف اليهودى . وأبلى يوم اليمامة بلاء حسناً ، عاش خمساً وأربعين سنة .

طبقات ابن سعد (٣ / ٤٤٠) والاستيعاب (٥ / ٣١٠) وأسد الغابة (٣ / ١٥٠) والإصابة (٢ / ٢٦٣) وسير أعلام النبلاء (١ / ٣٣٧) والعبر (١ / ١٥) .

٣ ـ أخرجه البخارى (كتاب الشهادات ، باب شهادة الأعمى وأمره ، ٣ / ٢٢٥) . معلقاً بقوله : « زاد عباد ... » وقال الحافظ في (فتح البارى شرح صحيح البخارى ، ٥ / ٢٦٥) وصله أبو يعلى من طريق محمد بن إسحاق عن يحي بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عائشة . وقد ورد أسم الشخص الذى دعا له الرسول صلي الله عليه وسلم بالرحمه هو عباد بن بشر .

فليرجع ، فرجع الناس إلى المسجد ، وما نرى فى السماء قزعة . قال : فجاءت سحابة فمطرت وأقيمت الصلاة ، فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فى الطين والماء ، حتى رأيت الطين فى أرنبته وجبهته » <١> .

وقد أخرج الإمام الترمذى بسنده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كُلُّ نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عينى كل إنسان منهم وَبيصاً من نور ، ثم عرضهم على آدم فقال : أى رَبِّ ، من هؤلاء ؟ قال :هؤلاء ذريتك ، فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيصُ ما بين عينيه ، فقال : أى ربِّ ، من هذا ، قال : رجل من آخر الأمم من ذريتك ، يقال له داود ، قال : ربِّ ، وكم جعلتَ عمره ؟ قال : ستين سنة ، قال : أى ربِّ زده من عمرى أربعين سنة ، فلما انقضى عمر آدم جاءّ ملك الموت فقال : أو لم يبق من عمرى أربعون سنة ؟ قال : أو لم تُعْطِهَا لابنك داود ؟ قال : فجحد آدم فجحدت ذريته ، ونسى آدم فنسيت ذريته ، وخطىء آدم فخطئت ذريته » <٢> .

وقال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ <٣>

---

١ ـ صحيح البخارى (كتاب الصوم ، باب الإعتكاف وخروج النبى صلى الله عليه وسلم صبيحه عشرين ، ٣ / ٦٤) .

وصحيح مسلم (كتاب الصيام ، باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها ...الخ ، ٢ / ٨٢٦) . واللفظ للبخارى .

٢ ـ سنن الترمذى (أبواب التفسير ، ومن سورة الأعراف ، ٤ / ٣٣٢) . وقال : هذا حديث حسن صحيح . ورواه الحاكم فى مستدركه (كتاب التفسير ، عطاء آدم أربعين سنة من عمره لداود عليهما السلام ، ٢ / ٣٢٥) ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى .

٣ ـ سورة طه : ١١٥ .

ففى الآية نسى آدم عليه السلام تحذير الله له من عداوة الشيطان ، ونسى نهى الله له عن الأكل من الشجرة .

أما فى الحديث فقد نسى أنه أعطى من عمره أربعين سنة لابنه داود عليه السلام .

وقال تعالى عن موسى عليه السلام مع الخضر :

قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ‹١›

وقد أمر الحق سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يذكره إذا نسى ، لقوله تعالى :

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ
إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ
إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا
‹٢›

وأما تأثير الشيطان على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن ذلك غير ممكن ، فمن المعلوم ان اشتغال سر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلبه بالوساوس والخطرات الشيطانية لا خلاف بين العلماء فى منعه ، لأنه صلى الله عليه وسلم لا تسلط للشيطان على قلبه الشريف بأى وجه من الوجوه .

والذى ثبت أن الشيطان الذى وُكِّلَ به ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسلم ، أو سلم الرسول صلى الله عليه وسلم ـ من شره .

---

١ ـ سورة الكهف : ٧٣ .

٢ ـ سورة الكهف : ٢٣ ، ٢٤ .

وقوله : «واذكر ربك إذا نسيت ...» أى إذا قلت شيئاً ونسيت أن تقول : إن شاء الله فقل : إن شاء الله إذا تذكرت .

كما روى أن الشيطان ظهر للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أثناء صلاته فى قيام الليل ، فما استطاع أن يصنع شيئاً .

فقد أخرج الإمام مسلم بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحدٍ إلا وقد وُكل به قرينه من الجن » قالوا : وإياك يا رسول الله ! قال : « وإياى ، إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم ، فلا يأمرنى إلا بخير » ‹١› .

وأخرج الشيخان بسنديهما عن أبى هريرة،عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إن عفريتاً من الجن تفلت البارحة ليقطع علىَّ صلاتى ، فأمكننى الله منه ، فأخذتهُ فأردت أن أربطه على سارية من سوارى المسجد حتى تنظروا إليه كلكم ، فذكرت دعوة أخى سليمان ، ربِّ هبْ لى ملكاً لا ينبغى لأحدٍ من بعدى ، فرددته خاسئاً » ‹٢› .

---

١ ـ صحيح مسلم (كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، بساب تحريش الشيطان وبعثة سراياه .. ، ٤ / ٢١٦٧ ، ٢١٦٨) .

ومعنى « فأسلم » برفع الميم وفتحها وهما روايتان مشهورتان ، فمن رفع قال : « معناه أسلم أنا من شره وفتنته .

ومن فتح قال : إن القرين أسلم ، من الإسلام ، وصار مؤمناً لا يأمرني إلا بخير .

وأختلفوا في الأرجح منهما : فقال الخطابى :الصحيح المختار الرفع ، ورجح القاضى عياض : الفتح ، وهو المختار . لقوله صلى الله عليه وسلم : « فلا يأمرنى إلا بخير » .

واختلفوا في رواية الفتح : قيل : أسلم بمعنى استسلم وانقاد ، وقد جاء هكذا في غير صحيح مسلم : « فاستسلم » وقيل : معناه : صار مسلماً مؤمناً ، وهذا هو الظاهر .

قال القاضى : واعلم أن الأمة مجتمعة على عصمة النبى صلى الله عليه وسلم ، من الشيطان في جسمه وخاطره ولسانه .

وفي هذا الحديث إشارة إلى التحذير من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه ، فأعلمنا بأنه معنا لنحترز منه بحسب الإمكان .

شرح النووى على صحيح مسلم (كتاب صفة المنافقين باب تحريش الشيطان... ، ١٥٧/١٧ ، ١٥٨) .

٢ ـ صحيح البخارى (كتاب بدء الخلق ، باب قول الله تعالى : ووهبنا لداود سليمان ... ، ٤ / ١٩٧) .

وصحيح مسلم (كتاب المساجد ، باب جواز لعن الشيطان .. ، ١ / ٣٨٤) واللفظ البخارى .

وأخرج الإمام مسلم بسنده عن أبى الدرداء قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعناه يقول : « أعوذ بالله منك » ثم قال : « ألعَنُك بلعنة الله » ثلاثاً ، وبسط يده كأنه يتناول شيئاً ، فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله ، قد سمعناك تقول فى الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك ، قال : « إن عدو الله إبليس ، جاء بشهاب من نار ليجعله فى وجهى ، فقلت : أعوذ بالله منك ثلاث مرات . ثم قلت : ألعنك بلعنة الله التامة ، فلم يستأخر ، ثلاث مرات ، ثم أردت أخذه ، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة » ‹١› .

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مرَّ عليَّ الشيطان فأخذته فخنقته حتى لأجد بَرْدَ لسانه فى يدى » فقال : أوجعتنى ، أوجعتنى » ‹٢› .

وأما قوله سبحانه وتعالى :

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾

‹٣›

---

١ ـ صحيح مسلم (كتاب المساجد ، باب جواز لعن الشيطان ... ، ١ / ٣٨٥) .

٢ ـ مسند الإمام أحمد (١ / ١٣) .

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١ / ٢٨٨) ، رواه أحمد وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

٣ ـ سورة الحج : ٥٢ ، ٥٣ .

فهذه الآية الكريمة لا يقصد بها أن الشيطان يمكن أن يلقى فى تلاوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويزيد فيها عن الوحى ، فهذا غير صحيح ، ولا يمكن أبداً أن يكون للشيطان القدرة على ذلك .

والآية معناها كما ذكر المراغى فى تفسيره :

(أى وما أرسلنا من قبلك رسولاً ولا نبياً إلا إذا قرأ ، ألقى الشيطان على سامعيه ، وهو يتلو الوحى الذى أنزل إليه شبهات فيما يقرأ ، فيقول قوم : إنه سحر ، ويقول آخرون : إنه نقله الرسول عن بعض الأولين ، وهكذا من الأباطيل والترهات التى يتقولونها .

« **فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يُحكم الله آياته** » أى فيزيل سبحانه تلك الخرافات التى علِقت ببعض النفوس ، بأن يقيض للدين من يدافع عنه ، ويدفع الشبهات ، ثم يجعل الله آياته محكمة مثبتة لا تقبل الرد بحال) (١) . وقد ذكر بعض المفسرين عند تفسير هذه الآية قصة : الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى ، فهذا محض باطل وكذب ، لا يمكن أن يلتفت إليه ولا يعول عليه (٢) .

---

١ ـ تفسير المراغي (١٧ / ١٢٨ ، ١٢٩) .

٢ ـ والإمام الخازن في تفسيره لهذه الآية قال : « ذكر العلماء عن هذا الإشكال أجوبة أحدها : توهين أصل هذه القصة وذلك أنه لم يروها أحد من أهل الصحة ولا أسندها ثقة بسند صحيح أو سليم متصل وإنما رواها المفسرون والمؤرخون والمولعون بكل غريب ، الملفقون من الصحف كل صحيح وسقيم ، والذى يدل على ضعف هذه القصة اضطراب رواتها وانقطاع سندها واختلاف الفاظها ، فقائل يقول : إن النبى صلى الله عليه وسلم كان في الصلاة ، وآخر يقول : قرأها وهو في نادى قومه ، وآخر يقول : قرأها وقد أصابته سنة ، وآخر يقول : بل حدث نفسه بها فجرى ذلك على لسانه ، وآخر يقول : إن الشيطان قالها على لسان النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم لما عرضها على جبريل قال : ما هكذا أقرأتك ، إلى غير ذلك من اختلاف الفاظها ، والذى جاء في الصحيح من حديث عبد الله ابن مسعود قال : « أول سورة أنزلت فيها سجدة « والنجم » قال:فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد من خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً ، وهو أمية بن خلف » (صحيح البخارى ، كتاب التفسير ، سورة النجم ، ١٧٧/٦) ، و(صحيح مسلم ، كتاب المساجد ...، باب سجود التلاوة ، ٤٠٥/١) وصح من حديث ابن عباس قال : « سجد النبى صلى الله عليه وسلم بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس » (أخرجه البخارى فى كتاب التفسير سورة النجم ، ٦/ ١٧٧) . فهذا الذى جاء فى الصحيح لم يذكر فيه النبى صلى الله عليه وسلم تلك الألفاظ ولا قرأها ، والذى ذكره المفسرون عن ابن عباس في هذه القصة ، فقد رواه الكلبى وهو ضعيف جداً فهذا توهين هذه القصة (تفسير الخازن ، ١٩/٥ ، ٢٠) .

الحالة الرابعة : أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يستمر في دعوته بقطع النظر عن استجابتهم لها أو إعراضهم عنها ، وأن المعرضين سينالون جزاءهم وافياً :

قد كان كفر المشركين الذين يوجه إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم الدعوة كفراً غليظاً فكان صلى الله عليه وسلم ـ يحزنه ذلك ويشق عليه ، فأرشده الله سبحانه وتعالى إلى ما ينبغي أن يكون عليه صلى الله عليه وسلم من عدم الاهتمام بأمرهم ، والاهتمام بتبليغ الدعوة نفسها ، بقطع النظر عن إستجابتهم له صلى الله عليه وسلم أو إعراضهم عنه وعما جاءهم به من عند الله وأن عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يترك هؤلاء الكفرة المكذبين .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ
دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ
أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ
وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴿١﴾

---

١ ـ سورة الأنعام : ٧٠ .

وهذه الآية الكريمة قد سبق شرحها وتوضيحها في (المقصد الثاني : قضية البعث والجزاء ، المبحث الأول : أحوال الناس ومواقفهم يوم القيامة ، سبب عذاب الكافرين في الآخرة وبيان عدم نفع شفاعة الشفعاء) .

الحالة الخامسة : بيان سنة الله بالنسبة للرسل والدعاة بأن يكون لهم أنصار كما يكون لهم خصوم من الإنس والجن :

يسلى الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويبين له أن سنته جرت بأن يكون له أعداء يعاندون ويخالفون ما جاءهم به من الحق والهدى ، كما كان لغيره من الأنبياء والرسل السابقين عليهم السلام أعداء من شياطين الإنس والجن .

قال عز من قائل :

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ‹١›

معانى الكلمات :

« **وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً** » : أى كما جعلنا لك أعداء من المشركين جعلنا لمن تقدمك من الأنبياء أعداء .

« **شياطين الإنس والجن** » : أى المردة من الفريقين . والشيطان كل مارد جبار بَعُدَ عن الحق والصواب .

« **يوحى بعضهم إلى بعض** » : أى يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس ، وكذلك بعض الجن إلى بعض ، وبعض الإنس إلى بعض .

« **زخرف القول** » : أى ما زينوه من القول والوسوسة والإغراء على المعاصى .

---

١ ـ سورة الأنعام : ١١٢ ، ١١٣ .

« **غروراً** » : أى ليغروهم ويخدعوهم .

« **ولو شاء ربك ما فعلوه** » : أى الإيحاء المذكور ، يعنى ولو شاء الله لمنع الشياطين من الوسوسة ، ولكنه امتحن بما يعلم أنه أجزل فى الثواب .

« **فذرهم وما يفترون** » : أى فدع هؤلاء الكفار وما يفترونه من الكفر وغيره مما زين لهم ، وهذا قبل الأمر بالقتال .

« **ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة** » : أى ولتميل إلى زخرف القول قلوب الكفار الذين لا يصدقون بيوم القيامة .

« **وليرضوه** » : أى لأنفسهم .

« **وليقترفوا ما هم مقترفون** » : أى وليكتسبوا من الذنوب والآثام فيعاقبوا عليها (١) .

المعنى الإجمالى للآيتين :

يبين الحق سبحانه وتعالى فى هاتين الآيتين الكريمتين لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ما جرت به سنته ومقتضى حكمته ، أنه إذا كان لك أعداء ومخالفون يعاندونك ويخالفون ما جئت به من الحق والهدى والبينات ، فإنه تعالى كذلك قد جعل لمن سبقك من الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، أعداء ومخالفين ومعاندين من شياطين الإنس والجن .

فهؤلاء الأعداء يوسوس بعضهم إلى بعض بالضلال والفساد والشر ، ليغروا الناس ويخدعوهم بالمعاصى والآثام .

---

١ ـ انظر : تفسير الجلالين (١١٦) ، وكذلك النسفى (٢ / ٢٩) .

ولو شاء الحق سبحانه وتعالى لمنع هؤلاء الشياطين من ذلك ، ولكن حكمة الله جل شأنه اقتضت هذا الابتلاء والاختبار ، ليكون فى ذلك جزيلُ الثواب .

فما على الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أن يصبر على حكم الله وقضائه ، ولا ييأس ولا يحزن فإن العاقبة للمتقين . وفى ذلك تسلية له صلى الله عليه وسلم وتوجيه له بأن يتركهم لكفرهم وما هم عليه من الضلال والفساد .

وإن هؤلاء الكفرة تميل إلى أقوالهم الباطلة قلوبُ الذين لا يصدقون بيوم القيامة فيرضون لأنفسهم بها ، ويكتسبون من الذنوب والمعاصى ما يكتسبون ، فيجازون عليها .

التوضيح للآيتين :

يبين الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فى هاتين الآيتين الكريمتين سنة من سننه ، وهى أن يكون له أعداء ومخالفون يعاندونه ويخالفونه ، كما كان لغيره من الأنبياء والرسل السابقين عليهم أفضل الصلاة والتسليم ـ أعداء يخالفونهم ويعاندونهم من الإنس والجن ، يوسوس بعضهم لبعض بالإغراء على المعاصى والإغواء بالأباطيل الكاذبة .

وإن الله تعالى قادر على أن يمنع هؤلاء من الوسوسة ، ولكن لم يمنعهم من ذلك لحكمة عظيمة ، حتى يعلم من يستجيب لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ويبتعد عن هؤلاء المخالفين المعاندين فينال عظيم الثواب .

ثم وجه الحق سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يصبر على أذى قومه وإعراضهم ، وألاَّ يحزن ولا ييأس فإن العاقبة للمتقين ، وفى هذا تسلية له عليه أفضل الصلاة والتسليم فما عليه إلا أن يترك هؤلاء المعارضين بعد دعوتهم إلى الإيمان وعدم استجابتهم لكفرهم وضلالهم وما هم عليه من الفساد والبعد عن الحق والهدى .

ثم إن هؤلاء الكفار تميل إليهم وإلى أقوالهم الباطلة قلوب الذين لا يؤمنون بيوم القيامة ، فيرضون بها ، ويكتسبون من الذنوب والمعاصى ما يجازون عليها جزاءً وفاقا .

قال الإمام ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية « **وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً** » : (يقول تعالى : وكما جعلنا لك يا محمد أعداء يخالفونك ويعاندونك ، جعلنا لكل نبى من قبلك أيضاً أعداءً فلا يحزنك ذلك ، كما قال تعالى فى سورة « الأنعام » نفسها :

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ
رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا
وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ

‹١›

وقوله تعالى :

مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ
لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾

‹٢›

فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام لهم أعداء ، وهؤلاء الأعداء من شياطين الإنس وشياطين الجن ، وهم يوسوس بعضهم إلى بعض بمنطق سليم ظاهراً بحيث إنه يُضل الناس ، وهو نوع من أنواع الخداع ، كمثل الشيطان عندما خدع أبانا آدم عليه السلام ، وأخرجه من الجنة .

---

١ ـ سورة الأنعام : ٣٤ .

وانظر : تفسير ابن كثير (٣ / ٨٢) .

٢ ـ سورة فصلت : ٤٣ .

كما ورد ذلك فى قوله تعالى : ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾﴾ ‹١›

فشياطين الإنس والجن ، وهم المتمردون الخارجون عن طاعة الله تعالى ، يقومون بالوسوسة فى صدور الناس ليصرفوهم عن الهدى والرشاد ، والوسيلة التى يتخذونها هى وسيلة الإغراء ، وتشويه الحقائق ، وتزيين الباطل ، بصورة ظاهرها الحق ، وباطنها الكفر والضلال .

وقد اختلف العلمــــاء فى المراد من شياطين الإنس والجن فى هذه الآية : **« وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً » . إلى قولين :**

القول الأول :

أن المراد شياطين من الأنس ، وشياطين من الجن لقوله تعالى :

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾
مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ
النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ ‹٢›

ولقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ
يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ
فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ ‹٣›

---

١ ـ سورة طه : ١٢٠ .

٢ ـ سورة الناس : ١ ـ ٦ .

٣ ـ سورة الفرقان : ٢٧ ـ ٢٩ .

فالشيطان فى هذه الآية هو الإنسان ، فأطلق عليه شيطان لأنه أغرى وأغوى صاحبه ، وأبعده عن طريق الهدى والحق .

وهذا هو الرأى الراجح والله أعلم .

القول الثانى :

أن للإنسان شيطاناً ، وللجن شيطاناً ، فيلقى بعضهم إلى بعض بالوسوسة ليعادوا الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكل هؤلاء من أولاد إبليس ، لما جاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن » قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : « وإياى إلاَّ أن الله أعاننى عليه فأسلم فلا يأمرُنى إلا بخير » (١) .

وقال الخازن : (اختلف العلماء فى معنى « **شياطين الإنس والجن** » على قولين :

أحدهما : أن المراد شياطين من الإنس ، و شياطين من الجن .

وهذا قول ابن عباس فى رواية عطاء ، وهو قول مجاهد وقتادة . قالوا : وشياطين الإنس أشد تمرداً من شياطين الجن ، لأن شيطان الجن إذا عجز عن إغواء المؤمن الصالح ، وأعياه ذلك ، استعان على إغوائه بشيطان الإنس لتفتنه .

---

١ ـ صحيح مسلم (كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قريناً ، ٤ / ٢١٦٧ ، ٢١٦٨) ، ولقد سبق هذا الحديث والكلام عنه فى :(مبحث نسيانه صلى الله عليه وسلم) .

ويدل على صحة هذا القول ما ذكر فى حديث أبى ذر ، حيث قال صلى الله عليه وسلم : « يا أبا ذر تعوذ من شر شياطين الجن والإنس » قال : يا نبى الله ، وهل للإنس شياطين ؟ قال : « نعم ، شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ... » .

وفى رواية أخرى : « فقال لى : « يا أبا ذر ، استعذ بالله من شر شياطين الإنس والجن ، قال : قلت :يا رسول الله ، وهل للإنس من شياطين ؟ قال : « نعم يا أبا ذر » ‹١› .

القول الثانى : أن الجميع من ولد إبليس ، وأضيف الشياطين إلى الإنس على معنى أنهم يغوونهم .

وهذا قول عكرمة والضحاك والكلبى والسدى ورواية عن ابن عباس .

قالوا : والمراد بشياطين الإنس التى مع الإنس ، وبشياطين الجن التى مع الجن .

وذلك أن إبليس قسم جنده قسمين ، فبعث فريقاً منهم إلى الجن ، وفريقاً منهم إلى الإنس ، فالفريقان شياطين الجن وشياطين الإنس ، بمعنى أنهم يغوونهم ويضلونهم ، وكلا الفريقين أعداء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأوليائه من المؤمنين الصالحين .

ومن ذهب إلى هذا القول قال : يدل على صحته أن لفظ الآية يقتضى إضافة الشياطين إلى الإنس والجن ، والإضافة تقتضى المغايرة ، فعلى هذا يكون فى الشياطين نوع مغاير للإنس والجن ، وهم أولاد ابليس) ‹٢› .

---

١ ـ مسند الإمام أحمد (٥ / ١٧٩) وقد ذكرت هذا الحديث في التمهيد لقضية النبوات ، وقد بينت درجته .

٢ـ تفسير الخازن (٢ / ١٤٣) ، وانظر تفسير ابن كثير (٢ / ٨٥) .

وقوله تعالى : « **يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً** » يعنى : يلقى ويُسِرُّ بعضهم إلى بعض ، ويناجى بعضهم بعضاً ، وهو الوسوسة التى يلقيها إلى من يريد إغواءه .

فعلى القول الأول : يكون المعنى أن شياطين الإنس والجن يُسِرُّ بعضهم إلى بعض ما يفتتون به المؤمنين والصالحين .

وعلى القول الثانى : يكون المعنى أن أولاد إبليس يلقى بعضهم بعضاً فى كل حين فيقول شيطانُ الإنس لشيطان الجن :أضللت صاحبى بكذا وكذا ، فأضلَّ أنت صاحبك بمثله ، ويقول شيطان الجن لشيطان الإنس كذلك ، فذلك وحى بعضهم لبعض » <١> .

وقال الإمام ابن كثير : (أى يُلقى بعضهم إلى بعض القول المُزَيَّن والمُزَخْرف ، وهو المزوَّق الذى يغتر سامعه من الجهلة بأمره) <٢> .

ومعنى قوله تعالى : « **زخرف القول غروراً** » : (يعنى باطل القول ، والزخرف هو الباطل من الكلام الذى قد زُين ووُشِّى بالكذب ، وكل شيء حسن مموَّه فهو زخرف .

وقوله « **غروراً** » : يعنى أن الشياطين يغرون بذلك القول الكذب المزخرف غروراً ، وذلك أن الشياطين يزينون الأعمال القبيحة لبنى آدم ويغرونهم بها غرورا) <٣> .

وقوله تعالى : « **ولو شاء ربك ما فعلوه** » : قال ابن كثير : (أى وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيئته ، أن يكون لكل نبى عدو من هؤلاء) <٤> .

---

١ ـ تفسير الخازن (٢ / ١٤٣) . بتصرف .
٢ ـ تفسير ابن كثير (٢ / ٨٥) .
٣ ـ تفسير الخازن (٢ / ١٤٤) .
٤ ـ تفسير ابن كثير (٢ / ٨٥) .

وقال الخازن :(والمعنى : أن الله تعالى لو شاء لمنع الشياطين من إلقاء الوسوسة إلى الإنس والجن ، ولكن الله يمتحن من يشاء من عباده مما يعلم أنه الأجزل له فى الثواب إذا صبر على المحنة) <١> .

ثم قال الحق سبحانه وتعالى فى ختام الآية الكريمة : « **فذرهم وما يفترون** » : أى اتركهم وما يفترون من تكذيبك . ويتضمن الوعيد والتهديد .

قال ابن عباس : يريد ما زين لهم إبليس وما غرهم به <٢> .

كما فى قوله تعالى :

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾

<٣>

وكما قال تعالى :

ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ <٤>

فالله تعالى طلب من رسوله صلى الله عليه وسلم أن يترك هؤلاء الكفار ، وما حاكوه من كذب ومكائد ، فهو تعالى كافيه وناصره عليهم .

لقوله تعالى :

فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ <٥>

---

١ ـ تفسير الخازن (٢ / ١٤٤) .

٢ ـ البحر المحيط (٤ / ٢٠٧ ، ٢٠٨) .

٣ ـ سورة المعارج : ٤٢ .

٤ ـ سورة المدثر : ١١ .

٥ ـ سورة الحجر : ٩٤ ، ٩٥ .

ولقوله تعالى :

فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ‹١›

ثم قال الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

« ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون » .

قال الإمام ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية : (أى ولتميل إليه . قاله ابن عباس ، « **أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة** » أى قلوبهم وعقولهم وأسماعهم .

وقال السدى : قلوب الكافرين .

« **وليرضوه** » : أى يحبوه ويريدوه ، وإنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة .

كما قال تعالى : فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾
مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ‹٢›

وقال تعالى :

إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ ‹٣›

وقوله : « **وليقترفوا ما هم مقترفون** » .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : وليكتسبوا ما هم مكتسبون .

وقال السدى وابن زيد : وليعملوا ما هم عاملون) ‹٤› .

---

١ ـ سورة البقرة : ١٣٧ .

٢ ـ سورة الصافات : ١٦١ ـ ١٦٣ .

٣ ـ سورة الذاريات : ٨ ، ٩ .

٤ ـ تفسير ابن كثير (٢ / ٨٥) .

الحالة السادسة : أمر الله لرسوله عليـه الصلاة والسلام بأن يقول لهؤلاء الكافرين المنكرين للحق : إنه لا يرضى حاكماً يحكـم بينـه وبينهم إلا الله :

فمن تسلية الله لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمرُه جل ثناؤه له بأن يقول لهؤلاء الكافرين المنكرين للحق ، والمعاندين له :

إنه لا يرضـى حاكمـا يحكـم بينـه وبينهم إلا الله سبحانه وتعالى ، فقال عز من قائل : أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ‹١›

معاني الكلمات :

« **أفغير الله أبتغى حكماً** » : أى قل يا محمد : أفغير الله أطلب حاكماً يحكم بينى وبينكم ، ويفصل بين المحق منا والمبطل ؟

« **وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً** » : أى القـرآن ، مبيّناً فيه الحق من الباطل .

« **والذين اتيناهم الكتاب** » : هم اليهود والنصارى .

« **يعلمون أنه منزل** » : أى أن أهل الكتاب وإن أظهروا الجحود والمكابرة يعلمـون أن القرآن منزل من عند الله ، بما دلتهم عليه كتب الله المنزلة ، كالتـوراة والإنجيـل ، من أنـه رسول اللـه ، وأنـه خاتـم الأنبياء صلى الله عليه وسلم .

---

١ ـ سورة الأنعام : ١١٤ ، ١١٥ .

« **بالحق** » : متعلق بمحذوف وقع حالاً ، أى متلبساً بالحق الذى لا شك فيه ولا شبهة .

« **فلا تكونن من الممترين** » : أى من الشاكين فيه أيها السامع ، أو فلا تكونن من الشاكين فى أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل بالحق ، ولا يَرِيبك جحود أكثرهم وكفرهم به .

« **وتمت كلمة ربك** » : أى ما تكلم به ، أى تم كل ما أخبر به ، وأمر ونهى ، ووعد وأوعد .

« **صدقاً** » : فى وعده ووعيده ، « **وعدلاً** » : فى أمره ونهيه .

« **لا مبدل لكلماته** » : أى لا أحد يبدل شيئاً من ذلك بنقض أو خلف .

« **وهو السميع** » : لإقرار من أقر ، « **العليم** » : بإصرار من أصر ، أو السميع لما يقولون ، العليم بما يضمرون (١) .

المعنى الإجمالى للآيتين الكريمتين :

فى هاتين الآيتين أمرٌ وتوجيه من الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم لما يلاقيه من كفر وتعنت قومه المشركين المنكرين لما جاءهم به من الحق والهدى ، بأن يقول لهم لما طلبوا منه أن يجعل بينه وبينهم حكماً : أننى لا أرضى حاكماً وقاضياً يحكم بينى وبينكم إلا الله تعالى .

فهو جل ثناؤه الذى أنزل عليكم القرآن ليوضح لكم الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، وهو الدليل القاطع على صدق نبوتى ورسالتى إليكم .

ويضاف إلى ذلك شهادة المنصفين من اليهود والنصارى بما لديهم فى كتب الله المنزلة عليهم : التوراة والإنجيل ، من صدق ما جئتكم به من عند الله تعالى .

---

١ ـ انظر تفسير النسفى (٢ / ٣٠) ، وكذلك تفسير الجلالين (١١٧) ، وفتح القدير (٢ / ١٥٥) .

ثم بين الحق سبحانه وتعالى أن ما أخبر به فهو الحق الذى لا ارتياب فيه ، ولا شبهة معه .

وأنه سبحانـــه وتعالى قــد أتم وعده ووعيده ، فلا خلف لما وعد وأوعد ، ولا مغير ولا مبدل لما حكم به وأمر ونهى .

فإنه لا أحد يستطيع أن يبدل شيئاً مــــن ذلـــك ، والله سبحانــه وتعالى هو السميع لجميع ما يقولون ويقرون به ، العليم بكل ما يضمرونه ويصرون عليه ، لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وما يخفونه فى صدورهم .

التوضيح للآيتين :

قـوله عـز وجل : « **أفغير الله أبتغى حكماً وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً** » : هنا يوجه الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم إلى ما ينبغى له أن ينهجه مع هؤلاء المكذبين المعاندين من قومه لما جاءهم به من الحق والهدى من عند الله تعالى ، حيث أنهم طلبوا منه حكماً يحكم بينهم ، فوجهه سبحانه وتعالى إلى أن يقول لهم : إننى لا أرضى حاكماً عادلاً يحكم بيننا إلا الله الذى أرسلنى إليكـــم ، وأنزل علىَّ هذا القرآن ، فهو الدليل القاطع على صدقى وصدق ما جئتكم به .

وقوله تعالـــى : « **والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين ، وتمــت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماتــه وهو السميع العليم** » .

وكذلك أيضاً أهل الكتاب علماء اليهود والنصارى يعلمون علم اليقين الذى لا شك معه أن القرآن الكريم منزل من عند اللـــه تعالـــى علـــى رسوله صلى الله عليه وسلم وذلك بما جاء فى كتبهم المنزلة على رسلهم عليهم أفضل الصلاة والسلام التوراة والإنجيل .

وقد بين الله تعالى أن ما جاء في القرآن الكريم تام وصادق وعدل ، فإن ما جاء فيه إما إنشاءٌ وإما إخبارٌ .

ومعنى الإنشاء : طلب الفعل أو الترك .

ومعنى الإخبار : ذكر ما يحتمل الصدق والكذب .

فأوامر الله تعالى ونواهيه كلها جمل إنشائية ، وهى كلها عادلة لا ظلم فيها ، وأخبار الله تعالى كلها صادقة لا تحتمل الكذب بوجه من الوجوه ، ومن ثم كانت كلمات الله سبحانه وتعالى تامة من حيث عدالتها ومن حيث صدقها ، فكلمات الله جل ثناؤه لا تغيير فيها ولا تبديل ، حيث لا موجب لهذا التغيير والتبديل ، لأنه صادق فى إخباره ، وعدل فى أحكامه ، والصدق والعدل حق ، والحق لا يقبل التبديل ولا التغيير .

وهو سبحانه وتعالى السميع لكل ما يقال ، والعليم بكل شىء ، وسع علمه كل شىء سبحانه وتعالى .

فقوله تعالى : « **أفغير الله أبتغى حكماً** » :

قال الخازن فى تفسيره لهذه الآية : (أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين أفغير الله أطلب حكماً قاضياً يقضى بينى وبينكم ، وذلك أنهم كانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم : إجعل بيننا وبينك حكماً ، فأمره الله أن يجيبهم بهذا الجواب) ‹١› .

وقيل : الحَكَم أبلغ من الحاكم ، إذ لا يستحق التسمية بحَكَم إلا من يَحكم بالحق ، لأنها صفة تعظيم في مدح ، والحاكم صفة جارية على الفعل ، فقد يسمى بها من يحكم بغير الحق ‹٢› .

---

١ ـ تفسير الخازن (٢ / ١٤٤) .
٢ ـ الجامع لأحكام القرآن (٧ / ٧٠) .

فالله تعالى حكَم لا يحكم إلا بالحق ، فلما أنزل الله على محمد القرآن فقد حكَم له بالنبوة وهو قوله تعالى : « **وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً** » : أى مبيناً فيه أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وفيه الحُكْم بينى وبينكم <١> .

وقوله تعالى : « **والذين آتيناهم الكتاب** » : أى من اليهود والنصارى « **يعلمون أنه منزل من ربك بالحق** » : أى بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين <٢> .

ولقد ثبت أن علماء اليهود والنصارى يشهدون أن هذا القرآن منزل من عند الله ، وذلك لما تأكد عندهم بالدلائل الدالة على ذلك .

وقيل : المراد بهم علماء الصحابة ورؤساؤهم ، مثل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضوان الله عليهم ، ونظرائهم ، يعلمون أن هذا القرآن منزل من ربك بالحق ، فآمنوا به وصدقوه <٣> .

والقول الراجح أن المراد بالذين آتيناهم الكتاب علماء اليهود والنصارى ، كما قال تعالى فى آية أخرى :

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ
فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ <٤>

قال الزمخشرى : (ثم عضَّد الدلالة على أن القرآن حق بعلم أهل الكتاب أنه حق لتصديق ما عندهم وموافقته له) <٥> .

ثم ختم الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله : « **فلا تكونن من المترين** » أى فلا تكونن من الشاكين فى ذلك .

---

١ ـ تفسير الخازن (٢ / ١٤٤) .
٢ ـ تفسير ابن كثير (٣ / ٨٥) .
٣ ـ تفسير الخازن (٢ / ١٤٤) .
٤ ـ سورة البقرة : ١٤٦ .
٥ ـ الكشاف (٢ / ٤٦) .

أى فلا تكونن يا محمد من الشاكين أن علماء أهل الكتاب يعلمون أن هذا القرآن حق ، وأنه منزل من عند الله .

وقيل معناه : فلا تكونن فى شك مما قصصنا عليك أنه حق وصدق ، فهو من باب التهييج لأنه صلى الله عليه وسلم لم يشك قط .

وقيل : الخطاب ، وإن كان فى الظاهر للنبى صلى الله عليه وسلم ، إلا أن المراد به غيره ، والمعنى : فلا تكونن أيها الإنسان السامع لهذا القرآن فى شك أنه من عند الله لما فيه من الإعجاز الذى لا يقدر على مثله إلا الله تبارك وتعالى ‹١› .

وقال ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية : « **فلا تكونن من الممترين** » كقوله تعالى : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ ‹٢›

وهذا شرط والشرط لا يقتضى وقوعه ، ولهذا جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا أشك ولا أسأل » ‹٣› .

---

١ ـ تفسير الخازن (٢ ، ٣ / ١١٤) وانظر : فتح القدير (٢ / ١٥٥) ، وانظر : أبو السعود (٢ / ١٧٧ ، ١٧٨) .

٢ ـ سورة يونس : ٩٤ .

٣ ـ الحديث في تفسير ابن كثير (٣ / ٥٢٩) ، عند تفسير هذه الآية : « فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك ... » ، سورة يونس : ٩٤ .

وعزاه لقتادة وابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصرى وفي روح المعانى (١١ / ١٩٠) . قال الألوسى : إنه من قول النبى صلي الله عليه وسلم على ما أخرجه عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة ، ونصه : « لا أشك ولا أسأل » وفي الطبرى من طرق خمسة كلها تدور على سعيد بن جبير وقتادة ، وهذه الطرق تؤكد أن للحديث أصلاً .

انظر : تفسير الطبرى ، تحقيق الشيخ أحمد شاكر والشيخ محمود شاكر (١٥ / ٢٠٢) ، وانظر : المصنف للحافظ الكبير أبى بكر عبد الرزاق ابن همام الصنعانى (٦ / ١٢٦) .

وقال تعالى فى آية أخرى :

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ ‹١›

وقال عز وجل :

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ ‹٢›

وقال تعالى :

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ ‹٣›

ثم بين الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك صدق ما وعدهم به على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى : « **وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً** » .

قال الزمخشرى فى تفسيره لهذه الآية : (أى تم كل ما أخبر به ، وأمر ونهى ، ووعد وأوعد .

« **صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته** » : لا أحد يبدل شيئاً من ذلك بما هو أصدق وأعدل) ‹٤› .

وقال ابن كثير : (قال قتادة : صدقاً فيما قال ، وعدلاً فيما حكم ، يقول صدقاً فى الأخبار وعدلاً فى الطلب ، فكل ما أخبر به فحقٌ لا مرية فيه ولا شك ، وكل ما أمر به فهو العدل الذى لا عدل سواه ، وكل ما نهى عنه فباطل ، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة .

---

١ ـ سورة البقرة : ١٤٧ .

٢ ـ سورة الزمر : ٦٥ .

٣ ـ سورة الزخرف : ٨١ .

٤ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (٢ / ٤٦) .

كما قال تعالى :

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ
فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ
عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ
عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟
ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

〈١〉

« **لا مبدل لكلماته** » : أى ليس أحد يعقب حكمه تعالى ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، « **وهو السميع** » لأقوال عباده « **العليم** » بحركاتهم وسكناتهم ، الذى يجازى كل عامل بعمله) 〈٢〉 .

وقال الخازن فى تفسيره أيضاً : « **وتمت كلمة ربك** » وقرىء « **كلمات ربك** » على الجمع : فمن قرأ على التوحيد قال : الكلمة قد يراد بها الكلمات الكثيرة إذا كانت مضبوطة بضابط واحد ، كقولهم : قال الشاعر فى كلمته يعنى فى قصيدته ، وكذلك القرآن كلمة واحدة لأنه شيء واحد فى إعجاز النظم ، وكونه حقاً وصدقاً ومعجزاً) 〈٣〉 .

---

١ ــ سورة الأعراف : ١٥٧ .

٢ ــ تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢ / ٨٥ ، ٨٦) .

٣ ــ تفسير الخازن (٢ / ١١٤) . وهما قراءتان صحيحتان (انظر : كتاب السبعة القراءات لابن مجاهد ، ٢٦٦) .

وأخرج الشيخان بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أصدقُ كلِمةٍ قالها شاعر كلِمةُ لبيدٍ :

* ألاَ كُلُّ شَىْءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ <١> .

ويقول ابن مالك فى ألفيته :

* وَكِلْمَةٌ بِهَـا كَلاَمٌ قـد يُؤَمّ <٢> .

---

١ ــ صحيح البخارى (كتاب الأدب ، باب ما يجوز من الشعر والرجز .. ، ٨ / ٤٣) .

وصحيح مسلم (كتاب الشعر ، ٤ / ١٧٦٨) واللفظ للبخارى .

وهو صدر بيت للبيد بن ربيعة العامرى ، وعجزه : * وكل نعيم لا محالة زائل .

والبيت من (كتاب شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامرى) تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ص ٢٥٦ .

٢ ــ انظر : شرح ابن عقيل (١ / ١٣) .

ومعناه : أن لفظ « الكلمة » قد يطلق ويقصد به كلام كثير .

الحالة السابعة : أمر الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن لا يهتم بضلالهم وكفرهم فهم كغيرهم من الكفرة :

يسلى الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، ويأمره سبحانه وتعالى بأن لا يهتم كثيراً بضلال قومه وكفرهم ، فهم متعنتون لا يريدون أن يهتدوا إلى الحق ، ولا أن يخضعوا له ، فهم فى كفرهم كغيرهم من الكثرة الكاثرة من أهل الأرض ، الذين يتبعون أهواءهم ويسيرون فى الضلال دون أن يحاولوا الخلاص منه .

ويبين له أن متابعة هذه الكثرة مهما كانت لا تجعل من الحق باطلاً ، ولا من الباطل حقاً ، فالحق هو الأمر الثابت فى نفسه الذى لا يتغير بتغير الزمان والمكان ، بقطع النظر عن عدد من يعرفه ويتبعه .

قال الحق سبحانه وتعالى :

وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

‹١›

معانى الكلمات :

« **وإن تطع أكثر من فى الأرض** » : أى الكفار لأنهم الأكثرون .

« **عن سبيل الله** » : عن دينه .

« **إن يتبعون إلا الظن** » : أى ما يتبعون إلا الظن ، وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق فهم يقلدونهم ‹٢› .

---

١ ـ سورة الأنعام : ١١٦ ، ١١٧ .

٢ ـ تفسير الخازن (٢ / ١٤٥) .

« **وإن هم إلا يخرصون** » : أى يكذبون ، وأصل الخرص : الحرز والتخمين ، ومنه خرص النخلة ، إذا حرز كمية ثمرتها على الظن من غير يقين .

ويسمى الكذب خرصاً لما يدخله من الظنون الكاذبة .

قيل : إن كان قول مقول عن ظن وتخمين يقال له : خرص ، لأن قائله لم يقله عن علم ويقين ‹١› .

« **إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** » : أى أن الله تعالى يعلم بالكفار والمؤمنين فيجازى كلاً منهم بعمله .

المعنى الإجمالى للآيتين :

فى هاتين الآيتين الكريمتين يبين الحق سبحانه وتعالى أحوال أكثر أهل الأرض من بنى آدم ، فهم يتركون الحق والهدى ، ويتبعون الباطل والضلال ، فعليه صلى الله عليه وسلم ، ألا يستجيب لطلبهم ، وذلك لأنهم لا يريدون الوصول إلى الحق ومعرفته ، وإنما هم معاندون مكابرون ، ومنحرفون عن الصواب .

وأن على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يمضى فى طريقه المستقيم متجنباً أهل الضلال ولو كانوا كثرة كاثرة ، فإن الكثرة الكاثرة الكافرة لا وزن لها ، ولا قيمة لها ، وإنما القيمة الحقيقية فى معرفة الحق واتباعه ، ولو قل عارفوه ومتبعوه .

فالله تعالى يسلى رسوله وحبيبه محمداً صلى الله عليه وسلم ، ويبين له أنه لو أطاع أكثر أهل الأرض فى آرائهم الباطله فى عبادتهم غير الله رب العالمين ، فإنهم يبعدونه صلى الله عليه وسلم عن طريق الحق والهدى ، وذلك لأنهم اعتمدوا فى ذلك على الظنون والأوهام والتقليد للآباء وإدعائهم بأنهم كانوا على الحق والصواب ، ولكنهم لم يكونوا كذلك بل كانوا كاذبين .

---

١ ـ انظر : اللسان (خرص) .

والله سبحانه وتعالى عالم بكلا الفريقين ، من ضل عن سبيل الهداية والصواب ، ومن اهتدى واتبع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم .

التوضيح للآيتين :

فى هاتين الآيتين الكريمتين يسلى الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام ، ويأمره بأن لا يهتم بضلال هؤلاء المكذبين الكافرين ، فهم كغيرهم من الكفرة الذين يتبعون الأهواء الباطلة ، وتقليد الآباء ، فيسيرون فى طريق الضلال والبعد عن الحق والفضيلة .

فلو فُرض أن أطاعهم الرسول صلى الله عليه وسلم فإنما يريدون أن يبعدوه عن الحق والهدى ، لأنهم اعتمدوا فى ذلك على الظنون والأوهام الكاذبة والتقليد للآباء ، دون محاولة الخلوص من الضلال والفساد .

ثم بين الحق سبحانه وتعالى أنه عالم بأحوال كلا الفريقين المؤمنين المتبعين للحق والهدى الذى جاءهم به الرسول عليه الصلاة والسلام من عند ربهم سبحانه وتعالى ، والمكذبين الذين ضلوا عن هذا الطريق المستقيم ، وأنه سبحانه وتعالى سيجازى كُلاً بعمله .

قال الإمام ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية : « **وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله** » : (يخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بنى آدم أنه الضلال ، كما قال تعالى :

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ ‹١›

وقال تعالى :

وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ‹٢›

---

١ ــ سورة الصافات : ٧١ .

٢ ــ سورة يوسف : ١٠٣ .

وهم فى ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم ، وإنما هم فى ظنون وحسبان باطل « **إن يتبعون إلا الظن وإن هم يخرصون** » فإن الخرص هو الحزر ، ومنه خرص النخل ، وهو حزر ما عليها من التمر ، وذلك كله عن قدر الله ومشيئته ، « **وهو أعلم من يضل عن سبيله** » : فييسره لذلك ، « **وهو أعلم بالمهتدين** » فييسرهم لذلك ، وكل ميسر لما خلق له) (١) .

أى إن تطع هؤلاء الكفار فى كفرهم وضلالهم ، وهم أكثر أهل الأرض يضلوك عن سبيل الحق والهدى ، لأنهم اتبعوا الظنون والأوهام الكاذبة فى معتقداتهم وتقليدهم للآباء ، دون المحاولة والبعد عن ذلك الضلال .

وقال الخازن أيضاً : (قال المفسرون : إن المشركين جادلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فى أكل الميتة ، وذلك أنهم قالوا للمسلمين : كيف تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل ربكم ؟

فقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : وإن تطع أكثر من فى الأرض فى أكل الميتة ، وكان الكفار يومئذ أكثر أهل الأرض ، « **يضلوك عن سبيل الله** » : يعنى يضلوك عن دين الله الذى شرعه لك وبعثك به .

وقيل معناه : لا تطعهم فى معتقداتهم الباطلة ، فإنك إن تطعهم يضلوك عن سبيل الله ، يعنى يضلوك عن طريق الحق ومنهج الصدق .

ثم أخبر عن حال الكفار وما هم عليه فقال تعالى : « **إن يتبعون إلا الظن** » : يعنى هؤلاء الكفار الذين يجادلونك ما يتبعون فى دينهم الذى هم عليه إلا الظن ، وليسوا على بصيرة وحق فى دينهم ، وليسوا بقاطعين أنهم على حق ، لأنهم اتبعوا أهواءهم ، وتركوا التماس الصواب والحق ، واقتصروا على اتباع الظن والجهل ، « **وإن هم إلا يخرصون** » : يعنى يكذبون) (٢) .

---

١ ـ تفسير ابن كثير (٣ / ٨٦) .

٢ ـ تفسير الخازن (٢ / ١٤٥) .

وقال الشوكاني في معنى قوله تعالى : « **إن يتبعون إلا الظن** » (أي ما يتبعونه إلا الظن الذي لا أصل له ، وهو ظنهم أن معبوداتهم تستحق العبادة ، وأنها تقربهم إلى الله ، « **وإن هم إلا يخرصون** » : أي وما هم إلا يخرصون ، أي يحدسون ويقدرون ، وأصل الخرص القطع ، ومنه خَرَصَ النخلَ يخرْص ، إذا حَزَره ليأخذ منه الزكاة .

فالخارص يقطع بما لا يجوز القطع به ، إذ لا يقين منه ، وإذا كان هذا حال أكثر من في الأرض ، فالعلم الحقيقي هو عند الله ، فاتَّبع ما أمرك به ، ودع عنك طاعة غيره ، وهو العالم بمن يضل عن سبيله ومن يهتدي إليه) ‹١› .

وقال الإمام الخازن في معنى قوله تعالى : « **إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله** » : (يقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : إن ربك هو أعلم منك ومن جميع خلقه أي الناس يضل عن سبيله .

« **وهو أعلم بالمهتدين** » : يعني وهو أعلم بمن كان على هدى واستقامة وسداد ، لا يخفى عليه شيء من أحوال خلقه ، فأخبر تعالى أنه أعلم بالفريقين الضال والمهتدي ، وأنه يجازي كلاً بما يستحق) ‹٢› .

وقال أبو حيان ‹٣› في تفسيره : « وهذه الجملة خبرية تتضمن الوعيد والوعد ، لأن كونه تعالى عالماً بالضال والمهتدي كناية عن مجازاتهما »‹٤›.

جامعة أم القرى UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

١ ـ فتح القدير (٢ / ١٥٥) .

٢ ـ تفسير الخازن (٢ / ١٤٥) .

٣ ـ أبو حيّان : هو محمد بن علي بن يوسف بن حيّان الغرناطي الأندلسي (٦٥٤ ـ ٧٤٥هـ) من كبار العلماء بالعربيّة والتفسير والحديث والتراجم واللغات واشتهرت تصانيفه في حياته وقُرئت عليه ، توفي بالقاهرة .

الدرر الكامنة (٥ / ٧٠ ـ ٧٦) وبغية الوعاة (١ / ٢٨٠) البدر الطالع (٢ / ٢٨٨) وطبقات الشافعية للسبكي (٩ / ٢٧٦) فوات الوفيات (٤ / ٧١) وطبقات القراء لابن الجزري (٢ / ٢٨٥) وطبقات القراء للذهبي (٢ / ٥٧٧) وطبقات المفسرين للداودي (٢ / ٢٨٦) والنجوم الزاهرة (١٠ / ١١١) ونكت الهميان (٢٨٠) .

٤ ـ تفسير البحر المحيط (٤ / ٢١٠) .